

فائِغًا يترقب

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢١٥٦٧

بطاقة فهرسة

الحمد، رضا

خائفاً يترقب: رواية/ رضا الحمد، ط ١ - القاهرة: دار

غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٣٦٢ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ٥-١٩١-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عبارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

خائفًا يترقب

رواية
رضا الحمد

الإهداء

إليكِ..

يا مَنْ ولدتُ أنا مِنْ إحدى عَيْنِكَ، وفي الأخرى سوف أُدْفَنُ..

أهدي روايتي..

رضا الحَمَد

تنويه

شخصياتُ هذه الرواية وأحداثها هي مِن وحي خيال المؤلف، وليس لها أية علاقة بالواقع، وإنْ حدث تشابه أو تقارب بينها وبين شخص أو حدثٍ مِنَ الواقع فهذا مِن قبيل الصدفة.



الفصل الأول

عصر أحد الأيام الصيفية..

في مكانٍ واسعٍ أمام بيتٍ ريفيٍ بقرية الزيدية التابعة لمدينة أوسيم بالجيزة،
يُخرج طفلٌ ذو سبع سنواتٍ من البيت ويده مسدس، فيقتل به شابين: أخاه،
وصديق أخيه.

في الصباح الباكر لليوم السابق..

يُمسك أبو الطفل ببندقية، ويُمسك ابنه الشاب المسدس، ويصوبان على
رأس كلبٍ ضال كان يمرُّ بالجوار، فيقتلان الكلب.

قبل هذا اليوم بشهر..

على حافة المصرف المائي الممتد أمام حقلهم الواسع تعود هذا الطفل الصغير أن يجلس وحيداً وسط تلك الأشجار ذات الفروع والأغصان المتشابكة، ولا أحد غيره يُرى بالناحية إلا نادراً، ولا صوت يُسمَعُ وسط هذا الهدوء الموحش غير حفيف أوراق الشجر، وكانت أعواد الغاب وأشجار الصفصاف الكثيرة تتكاثر وتنتشر حوله بكل مكان في شكل مُرعبٍ مخيفٍ للقلب والعين معاً، وذلك مما قد تخفيه خلفها أو بداخلها من الكائنات الزاحفة الخطرة.

وهناك قد تعود الطفل أن يجمع بجانبه ويديه أي شيء من نتاج الزروع وغيرها، فهذه لوزاتٌ قطنٍ خضراء لم تتفتح بعد، وقد انتزعها نزعاً من أعوادها، وتلك ثمار جوافة خضراء كأنها مُتَحَجِّرة قد اقتطفها من أغصانها، وهذه بعضٌ من حجارة صغيرة قد أَرهق نفسه للعثور عليها.

إنه يجمع كل ذلك وأكثر بجانبه، ثم يَشْرَعُ في قذفها بهاء المصرف أمامه فيجد متعةً كبيرة في ذلك، كما كان يظنُّ أيضاً أن كلَّ واحدةٍ منها لا بد أنها تقتلُ إحدى الجنيات بالقاع دون أن تَمْسَهُ، هكذا حكى له أخوه الشاب ميسرة الذي يكبره بأحد عشر عاماً.

وأيضاً، فقد حكى له أخوه عن أهوالٍ وحكاياتٍ ريفيةٍ معظمها بالطبع غير حقيقية، فقد كانت غاية الكبير ومتعته الكبرى أن يرى عيني أخيه

الصغير قد ملأهما الخوف، ويرى يديه ترتجفان، ويرقب كلماته الطفولية وهي تخرج من بين شفثيه المرتعدتين خائفة متهدجة، يظنُّ الكبير خطأ ومثله أبوهما الحاج شلبي أنَّ ذلك كله سوف يجعل الطفل الصغير ينشأ منشأ الرجال.

وكان البيتُ غيرَ بعيدٍ عن هذا المكان إلا سير عشر دقائق من الطفل مشياً على قدميه على أحد جسور الحقل التي تشقُّ أفدنتهم المتجاورة من أول البيت حتى المصرف المائي، وقد تعودَ ميسرة أن يقطعها هو الآخر تكراراً ذهاباً إلى أخيه، ثم لا يتراجع عن أن يفاجئه متخفياً داخل عباءة واسعة سوداء مخيفة أعدّها لذلك، يغطى بها جسده القوي المقتول ووجهه الأشقر.

وكان مساء أحد الأيام وقت الغروب حين جاء ميسرة من البيت حيث يجلس أخوه الصغير على حافة المصرف، فلما اقترب من مكانه ارتدى عباءته المخيفة، وغطى وجهه بقناع أسود لم يظهر منه إلا عينان يقترب لونهما من خضرة الزرع، ثم غاص داخل حقل القطن، وشرع يحرك أعواده وهو يقلد بكل مهارة عواء الذئاب تارة، وفحيح الأفاعي تارة ثانية، وصوت الغربان تارة أخرى.. فانتفض الصغير من مكانه خائفاً يترقب مما قد يربعه، وزائع العينين يتبين مكان قدوم الصوت، فإذا به يرى الأعواد الطويلة المتلاصقة تهتز شيئاً فشيئاً تجاهه، فيصرخ بصوت طفولي مرتعدٍ مخنوق:

- (الحقوني).

ويظلُّ الطفل حمزة يلتفت حوله في دعر وحيرة، فإذا بأحدهم يظهر واقفاً له بثياب وحركاتٍ وأصواتٍ غريبة ليراه، ثم يغوص مختفياً، وهكذا يفعل غيره، فيصرخ الصغير ويُسرِع هارباً من المكان، ولا يلتفت خلفه حتى يصل إلى البيت لاهثاً مذعوراً.

وكان يوماً لا يُنسى بينما كانت الشمس تغوص وسط غيمات السماء ليسدل الليل ستائره على تلك البقعة الغامضة المخيفة من الكون هنا حيث كان الطفل حمزة يُحِبُّ أن يقضي معظم وقته، وإنه ليجلس وحيداً كعادته التي لا يفارقها رغم ما يعانیه بسببها، وإذا بميسرة قد جاء في خفةٍ وحقق وهدوءٍ مع رفاقه هؤلاء، واختبأ الجميع وسط الزروع وخلف الأشجار والغاب قريباً من الشاطئ، وانزوى ميسرة قليلاً على شاطئ المصرف المائي مبتعداً لمسافة مناسبة عن المكان الذي يجلس به أخوه، ثم هبط إلى الماء بخفةٍ متخفياً خلف عباءته التي أتقن التخفي بها، ومختبئاً خلف أعواد الغاب وأغصان الصفصاف الرفيعة المنحنية على الماء كأنها أم انحنت على طفلها الوليد تُرضعه حنانها ورعايتها وغذائه.

وكان الطفل الصغير الجالس في سكونٍ غريبٍ يجب دائماً أن يجمع في يديه حجارةً صغيرةً يُلقِيها بالماء واحدة تلو الأخرى مستمتعاً برؤية تلك الدوائر الصغيرة التي تتشكل حول أماكن الحجارة الملقاة وهو يردد:

- (موتي أيتها الجنية العجوز.. مُت أيها العفريت الجبان.. أين أنتِ أيتها النداهة الشريرة؟.. حمزة لا يخاف.. حمزة أشجع رجل).

وفي نفس الوقت يغوص الأخ الأكبر ميسرة بالماء دون أن يتتبع أخوه حمزة لذلك، وإذا به مع آخر رميةٍ من الطفل يظهر قافزاً من أسفل الماء لأعلى أمام الصغير بهيئته المرعبة تلك كأنه جني، ورافعاً كفيه كأنها مخالبٌ وحشٍ مخيفٍ، وفوق وجهه قناعٌ كأنه وجه شيطان.

ويصرخ حمزة صرخاتٍ عاليةً متواصلةً، وتصيبه حالةٌ شديدةٌ من الرعب والإعياء، ويظل يرتعد ويهذي بكلماتٍ غير مفهومة، لكنها تصيب مَنْ يراه على حالته تلك بالحزن لأجله إن كان ذا قلبٍ رحيم.

وها هم الرفاق العابثون قد أقبلوا نحوه يتضحكون، وها هو أخوه ميسرة الأحمق يخرج من المصرف المائي، وقد خلع عن نفسه ثياب الرعب، وأخفاها بالحقل ثم ارتدى ملابسه الجافة، وراح يهدىء من روع أخيه بمساعدة أسعد والرفاق.

وفي البيت انخرط الأب الحاج شلبي الجارحي مع ابنه ميسرة في ضحكٍ وقهقهاتٍ لم يستطع أن يمنع نفسه منها لفترةٍ إلا حين رأى طفله حمزة قد انخرط في البكاء وسقطت من عينيه دموع، فالتفت لطفله يهدىء من روعه قائلاً لميسرة:

- لا تفعل مثل ذلك مرة ثانية يا ميسرة.. هذا يكفي ليكون رجلاً.

فقال له ميسرة:

- كيف يكون رجلاً وهو يصرخ خائفاً من أي شيء؟

وهنا تدخلت الست سامية، تلك المرأة الأربعينية التي تعمل في البيت بأجرها.. مَنْ يرها يظنها امرأة قد تجاوزت الستين، فقد حرمها الله مِنْ كلِّ جمالٍ للنساء، فحُرِّمَتْ مِنَ الزواج لهذا، وعاشت خادمة عند الناس حتى وصلتْ إلى بيت الحاج شلبي، ولأنها لا تملك شيئاً مما يطمع فيه أغلب الرجال لم تنلها الأعين والألسن أبداً بالقليل والقال في كل بيتٍ عملتُ به..
قالت المرأة غاضبة:

- حرام والله ما تفعلانه بالطفل الصغير هذا.. حبيبي يا ابني.

وصاح بها ميسرة:

- لا دخل لكِ بذلك.

فقالت غاضبة للحاج شلبي:

- ارحموا الولد يا حاج.. لم أعرف أحداً يُرعب أولاده هكذا.

فنظر لها الحاج شلبي بغضبٍ قائلاً:

- ماذا جرى لكِ يا ست سامية؟!.. ألم يقل لكِ ميسرة بأنه لا دخل لكِ

بذلك؟

أحمقان هما، ومسكينٌ هذا الصغير، تعطني به الست سامية تلك، ولا أحد سواها يهتم بأمره في هذا البيت الريفى الكبير، إنها تطعمه وتسقيه وتهبىء له ملابسه واحتياجاته بأجرها كعاملةٍ في البيت منذ عام، كما أنها ترفق به

وتشفق عليه في أحيانٍ أخرى بعاطفة الرحمة التي أودعها الله في قلوب النساء تجاه الضعفاء المقهورين.

أجل إنَّ الطفل حمزة طفلٌ ضعيفٌ مقهورٌ منذ أن ماتت أمه تيسير منذ ما يقرب من عام واحدٍ، وهل هناك إنسانٌ لم يعيش الضعف والقهر بعد موت أمه أحنَّ البشر عليه؟

وإنَّ حمزة ليتذكر أمه جيِّداً، ويكاد لا ينساها أبداً، بل إنه يغامر ويذهب تكراراً رغم طفولته تلك إلى شاطئِ المصرف ظناً منه أنه قد يجدها هناك، رآها أكثر من مرةٍ في منامه ذات ليلٍ تخبره بأنها لن تتركه أبداً، وأنها ستؤنسه دائماً في وحدته، وستكون معه دائماً حين يكون وحيداً، وشاطئِ المصرف هو ملاذه النائي الوحيد عن أبيه وأخيه.

ويظنُّ حمزة أيضاً أنَّ أمه سوف تحميه إن تعرض لأخطار البشر أو الجان، بل إنَّ ظنه هذا هو ما يقوده لأنَّ يعرض نفسه للأخطار والمخاوف، ويجعله لا يكفُّ عن معاودة الذهاب إلى شاطئِ هذا المصرف المائي المنعزل، فيقع بكمينٍ جديدٍ من كمائن ميسرة ورفاقه الحمقاء لعله يرى أمه وهي آتية لتنقذه كما وعدته في منامه فيرتمي بين يديها، فلا يتركها تمضي بدونه.

وقد ماتت الأم تيسير قبل سن الأربعين عن مرض أليم، وتركت خلفها ولدين اثنين، شاباً في أوج الشباب وطفلاً حالمًا نابغاً متميزاً، هما ميسرة وحمزة، كما تركت أفدنة كثيرة كميراث عنها لولديها، هي حقها من

تلك التركة الكبيرة التي تركها أبوها لها ولأخيها الوحيد رجل الأعمال جعفر شعلان، لكنها ذهبتُ لربها قبل أن تحصل على ميراثها، أما عن أخيها جعفر، فإنَّ له منزلاً كبيراً في مدينة أوسيم، لكنه كان يقضي أغلب أوقاته مع أعماله ومعه أسرته متنقلين خارج البلاد خاصة في كندا، ولم يكن بمصر عندما ماتت أخته، لذا لم يعطِ الحق للوارثين بسبب ذلك، ولكن عندما علم الحاج شلبي بقدمه إلى مصر واستقراره في بيته بأوسيم، ومعه زوجته ريهام وأولاده، أسرع واتصل به بشأن الميراث، فطلب الرجل إرجاء قليلاً حتى تستقر حياته وأعماله بمصر على حالٍ أفضل.

وكان للحاج شلبي أصحابٌ ومعارفٌ ألحوا عليه كثيراً فور وفاة زوجته تيسير ليتزوج بامرأةٍ تعتني به وبالبيت وبالصغير حمزة، لكن الرجل أخبرهم أنه لا يفكر في هذا الأمر، وفهم البعض من الناس أنَّ السبب في ذلك أنه يريد أولاً الحصول على ميراث زوجته الراحلة قبل زواج جديد، وفهم آخرون أنه لا يريد أن يأتي بزوجة أب لولديه تسيء معاملتهما، وأنه قد قرر أن يحمل على عاتقه عبء الاعتناء بالطفل الصغير وتربيته.

وللحق فإنَّ الحاج شلبي الجارحي كان شغوفاً كل الشغف بابنيه، فميسرة بالنسبة له هو ساعده الأيمن في إدارة أعمال أفدتهم الواسعة وترتيب أمر العمال، وهو صديقه وحافظ أسرارهِ وأمواله، أما عن حمزة فهو قرة العين لهما، وكأنه ابنٌ للاثنتين، فأرادا أن يعوضاه عن حرمانه من أمه صغيراً، فتعهدا

بتربيته وتنشئته منشأ الرجال، وإن كانت تنشئتهما له قد سلكت طرقاً غريبة غير سليمة.

وإنَّ الكثيرين يعرفون جيداً مقولة: "الغاية تبرر الوسيلة" وميسرة وأبوه من هؤلاء المؤمنين بها إيماناً راسخاً مهماً كانت الوسيلة، ولا ريب في أنَّ غايتها في الأصل هي التنشئة الجيدة للطفل على الوجه الذي يريانه صالحاً له في هذا الزمن، لأنهما بالطبع يريان أنَّ البقاء في هذا الزمن الغريب يكون للأقوى، ولكن يجب أن يكون لكل غاية دافع يقوي عزم صاحبه نحو غايته، ولا شك في أنَّ دافعهما هو أنهما بالطبع يحرصان على مصلحة ومستقبل الصغير حمزة، ومن لحمزة غيرهما؟.. إنهما معا يحبانه كثيراً، لكنهما أحباه حباً غريباً منحرفاً عن الطريق السوي، ومن هنا فقد سلكا معاً سبيل تلك الوسيلة غير السوية وهي إرهاب الطفل ليقوى قلبه ويستطيع أن يواجه عقبات حياته برجولة.

فما هذا الفكر الغريب؟.. إنَّ الاثنين يظنان أنَّ الظنَّ أنَّ الرجولة تُكتسب هكذا باقتحام المخاوف عمداً، لا يعلمان أنَّ هناك فارقاً كبيراً بين أن تمر بنا الأزمات رغماً فتصهرنا فنخرج من نارها أقوى مما كنا، وبين أن نلقى بها عمداً دون تأهيل فنخرج منها بشخصياتٍ مريضةٍ مشوهةٍ السلوك والتصرفات.

ومن أجل ذلك يجب أن نعلم أنَّ الأب وابنه الكبير ميسرة غير متعلمين تعليماً عالياً، وتعليم الجامعات إن لم ينفع نفعا ظاهراً فإنه لا يضرُّ بأي شكلٍ مهما كان مجاله، وإن لم يبقَ له أثرٌ ظاهرٌ في السلوك والتعامل، فإنه لا يخلو من

أثر خفي يبقى في خفايا النفس دفيناً متوارياً، لكنه لا شك يظهر كثيراً جلياً بين فلتات الكلام والسلوك.

ولا ننكر أن هناك من لم يطأ أي نوع عالٍ من أنواع التعليم، ومع ذلك نراه قد امتلك ذكاءً مميزاً ونهجاً قوياً يسبق بهما المتعلمين غاية السبق، ويفوقهم في علم الدنيا والحياة، وينتج عنه أجيالٌ يبلغون الغاية القصوى في الروعة والثقافة.

ومثال ذلك الخال جعفر شعلان الحاصل على تعليم متوسط، لكنه استطاع أن يحفظ مال أبيه ويزيده بذكائه واجتهاده، فنجح في عمله، ونجح في تربيته لأولاده الخمسة، بنت وأربعة من البنين، وكلهم ناجحون متميزون.

لكن، ألم يكن هناك من قريب للعائلة غير هذا الخال المشغول بأعماله ليُعين في تربية هذا الطفل الصغير المتوفاة أمه؟.. بالطبع كان هناك أقارب له في بيتٍ آخر ليس ببعيدٍ عن بيت الحاج شلبي الجارحي إلا مشياً بالأقدام لبضع دقائق على طريقٍ يؤدي إلى المصرف، كان هناك الأخت الوحيدة وعد الجارحي الأخصائية الاجتماعية بالمدرسة الابتدائية بالزيدية، والمتزوجة من المهندس الزراعي مهدي الراوي.

كانت العمّة وعد هي الصديقة المقربة للمرحومة تيسير شعلان والدة حمزة وميسرة، إذ لم تكن مجرد أخت لزوجها، وكانت تيسير لا تكف يوماً عن أن تُهديها شيئاً أو تعطيها من الخير الكثير عندها، وذلك لضيق ذات يد زوجها المهندس مهدي عن أن يلبّي كل مطالبها، وكان حمزة من وقتٍ لآخر

يتردد على بيت عمته وعد، ليس من أجلها، إنما من أجل ابنها محمود صديقه وزميله في المدرسة الابتدائية.

وبعد وفاة الصديقة كان الجميع ينتظرون دورًا كبيرًا ومتواصلًا من العمة وعد في الاعتناء بالولدين خاصة الصغير كصديقة لأُمهما المتوفاة من ناحية، وكعمة لهما من ناحية أخرى، لكن الغريب أن وعد قد أخذت تدريجيًا ترفع يديها عن الاهتمام أو الذهاب لهذا البيت إلا لحاجة لها، فأحاطها كثير من عتاب الكثيرين حولها، وكان أكثرهم استغرابًا منها هو أخوها شلبي، فأرادت وعد لذلك أن تُصلح شيئًا من تغيرها المخزي، فطلبت وعد منه أن يسمح للطفل حمزة بأن يبيت ببيتها يلعب ويمرح ويذاكر مع محمود ابنها، لكن أخاها لم يكن يسمح بذلك، ولعله قد فهم شخصيتها أخيرًا فهمًا جيدًا، فكان يقول لها:

- (يكفي أن يلعبا سويًا بالنهار.. فأنا لا أستطيع أن أنام يومًا وحمزة بعيد عني).

وقد كان صادقًا في ذلك بالطبع، ومن للأب في الحياة غير أولاده؟ ومن للأولاد غير أبيهم بعد وفاة الأم؟

وكان حمزة يحكي لابن عمته محمود كل شيء عن حياتهم وبيتهم واهتماماته كلما قابلته، وكان يطلب من محمود كثيرًا أن يذهب سويًا إلى شاطئ

المصرف ليلعبا، فكان محمود يرفض ذلك دائماً، فسأله حمزة يوماً عن سبب رفضه فأجابه محمود:

- بابا وماما لا يوافقان على أن أذهب إلى مكان بعيد دون أن يكونا معي.

فابتسم حمزة وقال بنبرة فخر ورجولة:

- لكن أبي يرضى عن ذهابي وحدي.. بل يشجعني عليه ويقول إن ذلك يجعلني رجلاً معتمداً على نفسي في كل شيء، ولا يستطيع أحد هزيمتي.

- بصراحة أنا أخاف من فعل ما تفعله أنت يا حمزة.. وأتعجب كيف لا تخاف من ذلك؟!

- محمود أنا أذهب إلى هناك كل يوم لعلني أرى أمي.. فكيف أخاف؟!

فتعجب محمود مما يقوله حمزة وقال له:

- أمك ماتت يا حمزة، فكيف تراها هناك؟!

- أنا فعلاً لم أرها حتى الآن عند المصرف.. لكنها وعدتني في الحلم أنها ستأتي لي كلما احتجتُ لها.

- أنا لا أصدق ما تقوله يا حمزة.. أنت تكذب.

- والله لا أكذب.

- لكنني عندما أحكي لماما ما تحكيه لي تقول: لا تصدقه.

وعاد حمزة إلى بيتهم، وأمسك بهاتف أمه المتوفاة، وراح يقلب في صورهما معاً، ويتذكر أيامها الأخيرة معه قبل أن تموت، يتذكرها ويبيكي، وهو دائماً يفعل ذلك، لذلك ترك أبوه هاتفها معه.

ودخلت عليه الست سامية، فلما رآته بتلك الحال أشفقت عليه، وأسرعت إلى أبيه تحبره، فجاء وجلس بجواره، وراح يمسح دموعه قائلاً له:

- حبيبي لا تحزن.. أملك في الجنة.. وعندما نموت سنذهب لها ونعيش كلنا سوياً هناك.

فرفع حمزة عينيه لأبيه قائلاً:

- أريد أن أموت بسرعة يا أبي.

- لا تقل هذا الكلام مرة ثانية.. بل أريدك أن تعيش رجلاً شجاعاً مثل أخيك ميسرة.

- أنا فعلاً رجل شجاع.

فضحك الأب وقال:

- إذاً لماذا تبكي كثيراً يا رجل يا شجاع؟

- وهل الرجال لا يكونون يا أبي؟

- أجل.. الرجال الشجعان لا يكونون.

- إذا أنتَ لستَ قويًا شجاعًا يا أبي.

- لمَ تقول ذلك يا حمزة؟

- لأنني رأيتك تبكي يوم ماتت أمي.

وابتسم الحاج شلبي ابتسامة حزينة، وقال لابنه وهو يربت على كتفه:

- مرة بكاء واحدة في عمر الرجل لا تضر يا حمزة.

فسأله حمزة:

- وهل المرأة مثل الرجل في البكاء؟

فضحك الأب وقال:

- المرأة تبكي في كل وقت.

- لمَ؟

- لأن المرأة تعشق البكاء لأي سبب.. وهذا يجعلها ضعيفة.

- ومن يكون المسؤول عن بكائها لأي سبب؟

- غالبًا يكون المسؤول رجلًا في النهاية.. سواء هو ابن أو أخ أو زوج.

فصمت حمزة يفكر لبرهة ثم قال:

- الآن عرفتُ سبب موت أمي؟

فنظر له أبوه مستغربًا كلامه وسأله:

- ما السبب؟

فأجاب الطفل ببراءةٍ وهو ينظر إلى عيني أبيه:

- أنتَ.

فأسرع أبوه يسأله وقد تغيرت ملامح وجهه:

- لماذا تقول ذلك؟! .. من أين جئتَ بهذا الكلام؟

- أُمِّي كانت تبكي كثيرًا قبل أن تموت.. وهذا جعلها ضعيفة، وجعلها

تموت قبل أن أكبر.

- يا حبيبي هذا بكاء مختلف.. أملك كانت مريضة تبكي من الألم.. وظلّت

تتألم ثم ماتت.

- ولماذا تركتها تموت؟ أَلستَ قويا؟

فضحك الأب وقال لحمزة:

- أنا قويا طبعًا.. لكن الموت أقوى.. إنه بيد الله وحده.

- لا لا.. أنا كنتُ مخطئًا حينما ظننتك قويا.. والآن اتضح لي أن الله وحده

هو القوي.

- طبعًا الله وحده هو القوي.

- فلماذا تطلب مني أن أكون قويًا وأنت لست بقوي؟

فضحك الأب كثيرًا وقال لحمزة:

- يا ابني اسمعني.. إنَّ قوتنا غير قوة خالقنا.. ولا يمكن للبشر أن يصلوا إلى قوة وقدرة الله.

فصمت الطفل لثوانٍ، ثم أكمل يسأل أباه:

- وهل كل قوي يكون ظالمًا؟

- لا أفهم قصدك يا حمزة.

فتردّد حمزة ثم قال:

- هل الله ظالم؟

فأسرع الأب يجيب ابنه غاضبًا:

- لا طبعًا.. لماذا تقول هذا الكلام؟

أجاب الطفل وقد أشرف على البكاء:

- لأنَّ الله جعل أُمِّي تموت وأنا كنتُ أريدها أن تعيش لتعتني بي.. الله ظلمني.

- يا حمزة يا حبيبي.. تلك أقدار الله وحكمته.. الله يريد ذلك ويجب أن نرضى بقضائه وحكمته لنستحق دخول الجنة.

- وهل محمود ابن عمتي وعد لن يدخل الجنة؟

فتعجب الأب كثيراً ثم سأله:

- ولماذا هذا السؤال؟!

سكت حمزة ونظر في صورة له مع أمه ثم قال:

- لأنَّ أمه تعيش معه ولم تُمُتْ.

فضحك الحاج شلبي وقال:

- إن شاء الله كلنا سندخل الجنة يا حمزة.

- إذاً لماذا ماتت أمي ولم تُمُتْ عمتي وعد أم محمود؟

فضحك الأب كثيراً وقال:

- والله لا أعرف ماذا أقول لك يا حمزة.. عندما تكبر ستفهم أكثر وستشعر

بحكمة الله في كل شيء.

ونفض الحاج شلبي من مكانه آخذاً بيد ابنه الصغيرة متجهاً إلى حجرته، فأحضر بندقيته، وخرج إلى خارج البيت ومعه حمزة، وأجلسه على حصيرة أمام البيت تحت شجرة كبيرة، وجلس بجانبه يعلمه كيف يستخدم البندقية، والصغير يتهيب من كل ذلك، ويرفض أن يمسك بالبندقية حتى جاء أخوه ميسرة فجلس يوبخ حمزة ويصفه بالضعف والجبن، فاضطر حمزة أمام ذلك أن يسمع لهما، وأمسك بالبندقية في وجل وتردد، ثم راح الاثنان يستحاثانه

على أن يقوم بالتصويب على أحد الكلاب الموجودة بالمكان، وحمزة يمتنع عن ذلك، فلم يزد ميسرة إلا حثًا وتوبيخًا.

وفي يوم تالٍ لهذا اليوم كان حمزة يلعب وسط رفاق له من الصغار أمام البيت، فإذا بأحد الأولاد بسبب الخلاف على شيء ما أثناء اللعب قد أمسك بحجر وضرب به حمزة ضربة شديدة أسالت الدم من رأسه، فدخل حمزة إلى البيت باكياً يشكو لأخيه ميسرة وقد تناثر الدم على وجهه وملابسه، فاستشاط ميسرة غضباً أنه يبكي، وعنفه كثيراً لأنه لم ينتقم لنفسه في الحال بضرب من ضربه، ثم أصرَّ عليه أن يخرج إلى الطفل المعتدي عليه، ويُحدث به كما أحدث، فامتنع حمزة، فانهاه عليه ميسرة تأنيباً وزجراً، وجاء أبوهما الحاج شلبي، فراح يعنف بدوره الطفل ويستحثه كميسرة على أن يخرج ليثأر لنفسه، وجاءت الست سامية مسرعة، وأخذت الطفل من يده، وذهبت به من بينهما قائلة:

- (حرام والله حرام).

وتركها حمزة إلى حجرته مقهوراً، وذهب فأمسك بهاتف أمه، وراح يقلب في صوره معها وهو يبكي، ولم يخرج لتناول الغذاء مع أبيه وأخيه، لكن الست سامية لم تنسه، إنما ذهبت له بطعامه، وجلست بجانبه تتحدث له وتضحكه وتخبره بأن أباه وأخاه يجانه كثيراً، فقال لها بكلمات بريئة:

- وأنا أيضاً أحبهما كثيراً، لكنني أحبُّ أمي أكثر.

فابتسمت الست سامية وقالت له:

- اعتبرني مثل أمك يا حمزة.. فأنا أحبك كثيراً.. وأنت.. ألا تحبني؟

ولم يرد حمزة على سؤالها، بل راح يسألها:

- ما الذي يجعل كل شيء جميل يموت؟

ضحكت الست سامية، وقالت له:

- دائماً أسئلتك غريبة وكبيرة جداً على سنك.. وأنا لا أعرف إجابتها والله
يا حمزة.

فقال حمزة بغضب:

- إذاً كيف تطلبين مني أن أعتبرك مثل أُمي وأنت لا تعرفين إجابات
أسئلتني؟.. كانت أُمي تعرف كل شيء.. لكنني نسيت أن أسألها عن الموت
قبل أن تموت.

وسكت حمزة ثم عاد يسألها سؤالاً آخر:

- ولماذا نتألم؟.. ولماذا نخاف؟.. ولماذا تنزع أسنان الأطفال طالما أنها
ستعود؟

- آه على هذه السن يا حمزة.. الأطفال في سنك لا يتوقفون عن طرح
الأسئلة ليل نهار.

فنظر حمزة لها نظرة تعجب وسألها:

- وكيف عرفت ذلك وأنت أصلاً ليس عندك أولاد؟
- فابتسمت الست سامية ابتسامة لا تخلو من الأسى وقالت:
- فعلاً أنا ليس عندي أولاد لكني والله راضية بنصيبِي.
- أليست كل امرأة عندها أولاد؟
- لا ليست كل امرأة يا حمزة.
- ولكن كل الأولاد عندهم أم..... إلا أنا.....
- وربتت الست سامية على كتفه وقالت له:
- عندك أب وأخ يجبانك كثيراً يا حمزة.
- فأسرع حمزة يقول:

- لكنهما في كل يوم يصران على تدريبي على البندقية والمسدس.. وأنا لا أريد.. ولا أعرف كيف أجعلهما يكفان عن ذلك.
- هما يريدان لك أن تكون رجلاً شجاعاً جريئاً يا حبيبي.. فحاول أن تفعل ما يريدان.

قالت الست سامية ذلك ثم نهضت وتركته، وظلَّ الطفل بعقله الصغير يفكر كثيراً في حيرة وبراءة كيف يتغلب على خوفه، وكيف يستطيع أن يكون قوياً شجاعاً جريئاً كما يهوى أبوه وأخوه؟

وحدث في الصباح الباكر لأحد الأيام التالية أن خرج الحاج شلبي من البيت ممسكاً ببندقته وبرفقه ابنه ميسرة وهو يُمَسِّكُ بمسدس.. كانا يتباريان مازحين أيهما يستطيع التصويب على رأس كلب ضال كان يمرُّ بالجوار، وخرج خلفهم الصغير حمزة، فلما رأهم هكذا يصوبان على الكلب غضب وبكى، وألحَّ عليهما بالكف عن ذلك، لكنهما لم يسمعا له، وأصاب الاثنان الكلب في وقتٍ واحد، ومات الكلب.

وفي اليوم التالي، هذا اليوم المشؤوم حيث كان ميسرة ورفاقه يلعبون الكرة عصرًا في المكان الواسع أمام البيت كما تعودوا كل يوم، وبالطبع بينهم أسعد ابن المعلم سعيد العدوي صديق ميسرة المقرَّب، وإذا بالطفل حمزة يخرج من البيت وهو يحمل مسدسًا، وكان قد رأى ميسرة في صباح الأمس وهو يضع هذا المسدس تحت وسادته بحجرتيهما معا بعد أن قتل به الكلب الضال مع أبيهما.

راح الطفل حمزة منذ خرج من باب البيت يُشهر المسدس تجاه ميسرة ورفاقه دون خوف، فأصاب الفزع الرفاق وتركوا اللعب، وفوجئ ميسرة بذلك، لكنه فرح كثيرًا أن رأى أخاه الصغير قد بدأ يتجرأ ويُمَسِّكُ بالمسدس دون خوف.. راح ميسرة يردد ضاحكًا لرفاقه الفزعين:

- (هذا مسدسي.. هذا مسدس حقيقي والله)

فتسارعتُ أعين الرفاق تنتقل ما بين ميسرة وحمزة في غرابة وقلق تحسبًا وخوفًا من أن يكون المسدس به طلقاته، فأشار لهم ميسرة غامزًا وهامسًا يخبرهم أنه فارغ، فهدأوا واطمأنوا.

وميسرة لم يكذب في ذلك، فحقًا قد كان المسدس فارغًا عندما وضعه تحت الوسادة بالأمس، ولا يمكن لميسرة أو لأبيه أن يغفلا عن أن يتأكدا من خلو المسدس أو البندقية من الرصاص بعد استخدامهما، وذلك حرصًا على سلامة حمزة كطفل قد يلهو بأي شيء في البيت، لذلك فقد راح ميسرة واثقا يشجع حمزة على الضرب حتى يعلمه الجرأة قائلاً له:

- (أخيرًا صرت جريئًا.. هيا اضرب يا حمزة.. اضغط على الزناد يا بطل..
اقتلنا كلنا يا شجاع)

ودون أن ينبس الطفل حمزة بكلمة راح يوجه المسدس تجاه ميسرة وصديقه أسعد اللذين وقفا أمامه يشجعانه، ثم ضغط على الزناد بكل قوته، فخرجت طلقتان من المسدس لتصيب الأولى قلب أخيه ميسرة الجارحي، وتخترق الثانية رأس صديق أخيه أسعد العدوي.. مات الاثنان.



الفصل الثاني

انتفض المكان وماجت الشوارع والطرق القريبة منه بكل مَنْ فيها وما فيها لهذا الحادث الغريب الأليم.. طفلٌ في السابعة من عمره يقتل أخاه وصديق أخيه في غمضة عين هكذا برصاصتي مسدس، فخدمتُ على الفور قوة ونبض شابين كانا مفعمين بالنشاط والحيوية.. رصاصتان ليستا غريبتين تُنهي حياتي اثنين كانتا مليئتتين بالأحلام والأمان لهما ولذويهما، فتوقفتُ الدنيا ها هنا في تلك اللحظة بينما يسقط إلى الأرض جسدان صديقان كانا ناهضين ينتظران مستقبلاً واعدًا في ظل ثراء أبويهما.

ولقد كان الأمر لجميع مَنْ شهد الحادث بمثابة حلم جماعي مأساوي غاية في الغرابة والألم في آنٍ واحد، ولقد خرستُ كل الألسن الحاضرة بالمكان، وبرقتُ الأعين لثوانٍ، ثم انفجرتُ آهات وصرخات الدهول

والمفاجأة الصادمة من الرفاق الثلاثة الباقين مع تلك الدماء التي تناثرت على الأثواب.. فزع مؤلم خاطف سيطر على الجميع، لكن الفزع الذي أصاب الصغير، كيف يوصف؟

لقد وعى الطفل حمزة بسنواته القليلة أنه قتل اثنين، لذلك لم ينطق بكلمة، بل أسقط المسدس من يده إلى الأرض في استسلام، وانسحب تلقائياً من المكان مع صرخات الذهول والفزع ممن حوله وأثناء انشغال الناجين من الموت بمن لم ينبج، وإن قدميه لتعرف وجهتهما جيداً في ظل توقف عقله الصغير عن التفكير، وأما عن قلبه فهو بلا شك ينفطر من الخوف الذي لا تحتمله قلوب أشجع الرجال، الخوف من كل شيء ومن كل الناس.

والآن ليس أمامه إلا أن يركض ويركض لاهثاً إلى هناك، إلى حافة المصرف المائي حيث يظن الآن أنه يمكن لأمه المتوفاة أن تلقاه هناك بلهفة ورفق وخوف عليه لتخفيه بين جناحي رافتها وتحميه مما ينتظره من عبث الظالمين، بل إنه الآن بفكره الطفولي وبصيرته الساذجة قد صار أقرب إلى تصديق أن أمه لن تتأخر عن أن تأتيه من قبرها إلى هناك لتأخذه معها، لذا عليه ألا يتأخر عنها حتى لا تأتي ثم تمضي عائدة بدونه.

فيا إله العالمين، ألا يوجد في نواميس حكمتك مثل هذا الاستثناء لعودة الموتى إلى الحياة؟ ألا يوجد استثناء في تلك اللحظات الموجهة التي يكون

فيها الأطفال أشد حاجة لأمهاتهم الراحلات مع الموت؟.. ماذا يفعل مَنْ في مثل حالة حمزة الآن؟

عفوا يا ربي، فلتغفر لعبادك مثل هذا التساؤل البريء إن كان لا يليق بجلالك العظيم وسلطانك الأبدي، فلا شك أن رحمتك لا حدود لها، ولا شك أن كل عبادك الصالحين يؤمنون بذلك سرًا وجهرًا، لكن قصور وعينا البشري يجعلنا لا نشعر بكمال تدبيرك الإلهي، لذلك يأخذنا التفكير إلى زوايا شائكة وبعيدة في بعض الأحيان.

أما عن بقية القرية، فكأن خبرًا قد انتشر في أرجائها بأن القيامة قد قامت فيها، وقبل أن تثبت الأخبار المتناقلة على حقيقة واحدة راحت القرية تموج بشتى أنواع الأخبار والتساؤلات مع كثير من الشائعات المصاحبة للحقيقة.

قيل إن الرفاق الخمسة قد ماتوا، وقيل إن شجارًا كبيرًا قد اشتعل بين تلك البلدة الصغيرة وعائلات كبيرة معروفة من مدينة أوسيم قُتل فيه عشرون شخصًا من الناحيتين على أقل تقدير غير المصابين، وقيل إن شبحًا فضائيًا على هيئة طفل ظهر يحمل سلاحًا آليًا كبيرًا قتل به كل أفراد عائلتي الجارحي والعدوي ثم اختفى، وقيل أيضًا إن طفلًا صغيرًا أصابه فجأة شيء من جنونٍ أو صرعٍ هو من تعمّد عمدًا قتل شابين من القرية ثم هرب.

وهكذا هكذا حتى انحسرت الشائعات كلها نحو الحقيقة المؤلمة المؤكدة لما حدث بالفعل، وهي أن الطفل حمزة ابن الحاج شلبي الجارحي قد قتل

وكانت عربات شرطة أوسيم وإسعافها تُسرِع من كل طريق في اتجاه منزله، فتقدم الرجل أكثر وأكثر ذاهلاً مذهولاً بخطواتٍ مرتعدةٍ وسط نظرات وهمهمات الجميع، والمحيطون يُفسحون له طريقه نحو الجسدين الممددين على الأرض، فخطف عينيه أول شيء جسد ابنه الذي لا حراك له، ودماؤه التي صبغت ملابسه باللون الأحمر، وعند ذاك صرخ بأعلى صوت له هزَّ القلوب والأسماع:

- (اینیسپی . میسر)

ثم ارتقى بجواره مغشياً عليه.

وسرعان ما تحلقتْ الناس عشوائياً في حلقتين حول الرجلين المفجوعين: المعلم سعيد العدوي المرتمي على جسد ابنه أسعد، والحاج شلبي الجارحي المرتمي على جسد ابنه ميسرة، ولما يخطر ببال أحد من الحاضرين أن يلحق بالطفل الجاني أو يسأل: (أين القاتل الصغير؟) حتى جاء ضابطٌ ومعه أمناء شرطة وعساكر في اللحظة التي وقع فيها شلبي الجارحي إلى الأرض.

طلب الضابط إفاقة الرجل، وسلّمه أحد الحاضرين المسدس المشؤوم،
فناولوه الضابط لأمين شرطة ليتحفظ عليه، ثم سأل مَنْ حوله:

- أين الولد القاتل؟

فدارت غمغات^{٢٨} في المكان قطعها صوت^{٢٩} من أحد الرفاق الناجين يقول:

- جرى ناحية المصرف.

فصاح الضابط:

- هيا أحضروه لي بسرعة.

وكان كلمته كانت بمثابة صافرة البدء لمعركة شرسة تدور رحاها بين بلدة أو بلدين من ناحية، وطفل ذي سبع سنوات من ناحية أخرى، فاتجهت جموع من الناس بسرعة ناحية المصرف المائي، بينهم بالطبع بعض من الشرطة، وقد سيطر على الجميع بلا استثناء شعورٌ أبهجهم بأنهم ذاهبون للقبض على الطفل القاتل الهارب إلا شخصاً واحداً بينهم، كان هدفه مختلفاً، واحداً فقط، كان ينوي خيراً.

وكانت أول كلمة نطق بها الحاج شلبي الجارحي لمن حوله بعد إفاقته أن قال في صوتٍ منكسر:

- لا تجعلوني أراه.. غيبوا وجهه عني.

فصمتوا جميعاً إلا رجلاً واحداً فقط من بينهم، قال:

- إنه طفل صغير يا حاج.. لم يكن يقصد.

رفع الأب عينيه له وقال في أسى:

- بالنهاية قتل أخاه وحرق قلبي عليه.

فقال الرجل في صوتٍ هادئ:

- يا حاج شلبي استعذ بالله من الشيطان الرجيم.. لا تتحدث في ذلك الآن.

فأعاد الحاج شلبي كلامه متوجعاً:

- لا تجعلوني أراه.. غيبوا وجهه عني.

كان هذا الرجل هو المهندس الزراعي مهدي الراوي زوج أخته وعد، وقد تواجد في المكان مع مَنْ تواجدوا عندما انتشر الخبر، لكن العمة وعد لم تظهر في المكان حتى الآن، لذلك فقد انتقل الحاج شلبي بعينه يبحث عن أخته فلم يرها بين الذين لا يزالون حوله، فظنَّ أنها تعمدت ألا تأتي، وكان قد حدث بينهما قبل الحادث بأيام شبه نزاع لأنها طلبت منه ميراثها فأرجأها قليلاً حتى يحصل على ميراثه وميراث ولديه من خالهما جعفر شعلان.. وسأل عنها زوجها المهندس مهدي:

- أين وعد أختي؟.. ألم تدرِ بعد بما حدث لنا؟

فأجابه المهندس مهدي:

- هي في أوسيم.. ذهبت لحضور زفاف زميلة لها في العمل.

فقال الحاج شلبي في لوعة:

- آه يا وعد آه.

وربت المهندس على كتفه وقال:

- ها أنا بجانبك يا حاج شلبي.

فنظر له وراح يردد:

- ماذا يحدث لي يا ربي؟

وكانت الجموع الزاحفة ناحية المصرف المائي قد وصلت إليه، وإنها في طريقها إلى هناك كأنها كانت تتبارى أيهم يُمسك بتلابيب هذا الطفل المارق، ويسلمه للشرطة فيفوز بشهرةٍ أو لقبٍ أو مال.

لكن ما هذا؟! ما لهم ينساقون هكذا بلا روية أو عقل؟.. وليس من بينهم إلا هذا الرجل الذي ينوي الخير.. كان بين صفوفهم، وكان مثلهم يبحث في كل مكان على حافة المصرف المائي بحثًا عن حمزة، لكن الأعمال بالنيات، فنواياه حسنة، ونواياهم سيئة قاسية.

إنَّ هؤلاء قد ذهبوا إلى هناك واثقين من أنهم لا شك سيجدونه جالسًا حالما يقذف شيئًا بالماء كما أخبرهم أحد الرفاق الناجين بعادته تلك، أو أنهم سيجدونه يبكي ويبكي ويبكي، وبالطبع فهذا شيءٌ لهم غير مهم، أو أنهم سيجدونه منزويًا بجانب كومة زرع جاف مدعورًا مقهورًا، وهذا أيضًا شيءٌ لا يهم، أو سيجدونه قد أصابه مَسٌّ من جان، ولا ضير عندهم في ذلك، وقد يجدونه طريح الأرض هالكًا بسموم أفعى قاتلة مرعبة، وحتى تلك لا يهتم بها أحد منهم إلا هذا الرجل الطيب، ويبقى الأهم للجموع أن يجدوه كقاتلٍ هاربٍ من عدالة الظالمين، وما أدراك ما هي؟!!

فالحمد كل الحمد لله رب العالمين الذي قَيَّضَ للضعفاء والمظلومين قلوبًا
حَنِيَّةً تشعر بهم وسط أمواج الظلم العاتية التي تحتاح الجميع في غمرة الحياة،
فالدنيا كيف تكون إن كانت ظلامًا سرمدًا؟ وإعمار الكون كيف يستقيم إن
كانت الحياة ضروريًا دون خير؟ ولذلك فإنَّ رحمة الله حاضرة في كل وقت مثل
ضياء الشمس الذي يصاحب كل نهار لننهض إلى السعي والعمل، ومثل
نجوم السماء التي تهدي السائرين ليلاً في القفار والبحار، والأرض مليئة
بمثل هؤلاء المقهورين الذين نراهم دومًا رافعي الأيدي بالدعاء والابتهاال،
لكن هل يسمع الظالمون وسط ظلامهم أنين ابتهالات الظلم عليهم أو
يشعرون بها؟

وإنَّ كان الظالمون يسمعون أو كانوا لا يسمعون، فهذا ليس بالشيء
الأهم، فحسبنا أنَّ الله ينصر الضعفاء وأنهم على طريق الهدى يسرون، لكن
مَنْ عساه أن يكون هذا الرجل الطيب صاحب الخير؟

صاح صائحٌ منهم منذ وصلوا إلى المصرف:

- أنا سأجده أولاً.

وصاح ثانٍ سائلاً:

- أليس هناك جائزة لمن يسلمه؟

وسأل ثالثٌ:

- ماذا سيفعلون به عندما نسلمه؟

فأجاب عليه أحدهم:

- سيسجنونه طبعًا.

وقال قائلٌ غيره:

- بل سيضعونه في دار الأحداث.. إنه طفل.

فصاح بهم الرجل الطيب:

- كفوا عن هذا الكلام.. الأهم أن نجده بخير.



الفصل الثالث

يا إلهي!.. لم يجدوا حمزة.. لم يجدوه رغم أنه بلا شك قد جاء إلى هنا بعد الحادث، فأين ذهب من هنا؟.. وماذا حدث له؟.. لم يتركوا مكاناً بشاطيء المصرف أو بحقلهم الممتد الواسع والحقول المجاورة من الناحيتين أو طريقاً بين الحقول إلا وسلكوها.

ولقد وزَّعوا أنفسهم، وتفرَّقوا بحثاً عنه في كل مكان، هناك من بحث على طول الشاطيء وامتداده، وهناك من بحث وسط حقول القطن، وهناك من بحث خلف أشجار الجوافة العتيقة المتناثرة فوق الجسور، وهناك من بحث في جوانب مساقى الماء الصغيرة والكبيرة، وهناك من بحث وسط أكوام القش والزرع الجاف وفوق فروع الأشجار الكثيفة الملتفة وبين أعواد الغاب الكثيرة المتلاصقة، وهناك من بحث يميناً في حقل عائلة غراب، ويساراً بحقل سعيد العدوي وجعفر شعلان، لكنهم لم يجدوه.. لم يجدوه حياً أو ميتاً.

وبالطبع لم يكن الأمر بالنسبة لهم مؤلماً أو محزناً، فإنَّ حمزة لكل منهم ما هو إلا طفلٌ قاتلٌ يبحثون عنه لنيل بعض البطولة والخطوة، إنَّ وجدوه كان بها، وإنَّ هلك بأي شكلٍ فقد نال عاقبة قتله لأخيه وصديق أخيه، إنما كان عدم وجوده هنا غريباً لهم كل الغرابة، فهذا المصرف هو المكان الوحيد الذي يأتيه الطفل تكراراً، وهذا ما ظلَّ أحد الرفاق الناجين يؤكدُه طوال الطريق.. فأين حمزة إذا؟!

ومرَّت ساعة على ذلك حتى لقد سئم كثيرون من البحث، فشرع الجميع يتنادون بمغادرة المكان إلا هذا الرجل الذي يخفي بداخله نيته الحسنة التي جاء بها للاطمئنان على الطفل المسكين، فقد كان قلقاً على الطفل كل القلق، وكان يبحث مخلصاً في كل مكان، ويسرع إلى كل ناحية.. كان هدفه وغايته أن يصل له قبلهم ليحفظه منهم.

أخبرهم أنه لن يغادر المكان حتى يجده، فكرروا له أنه غير موجود، وأنَّ بقاءه لا نفع منه، وأنَّ الجميع قد بحثوا في كل الأماكن، لكنه أصرَّ على أن يبقى وقال لهم:

- لن أغادر .

فتعجبوا لإصراره، وقال أحدهم:

- ربما يكون قد جاء إلى هنا ثم هرب لمكانٍ آخر قبل أن تأتي.

فقال الرجل:

- لن أغادر.

وقال ثانٍ:

- ربما لم يأت هنا من الأساس.

وبينما كان الجميع على حالتهم تلك إذا بشخص يسرع نحوهم يحمل
فردتي حذاء طفل صغير كانتا بجانب من شاطئ المصرف، وما أن رآهما
أحد رفاق الحادث حتى صاح قائلاً:

- إنه حذاء حمزة.

فتعلقت الأعين به، وصاح الرجل الطيب قائلاً:

- هل أنت متأكد؟

فأجاب:

- أظن ذلك.

فقال الرجل الطيب:

- إذاً لا بد أن يكون حمزة قريباً من هنا.. علينا أن نبحث ثانية في كل مكان

وقال شاب من الحاضرين:

- وأنا سأذهب بالحذاء لأبيه لتتأكد إن كان الحذاء له أم لا لنبحث بعدها عن بينة.

فربت الرجل على كتفه وقال له:

- خيراً تفعل.. لكن عُد إلينا سريعاً لنعرف.

وذهب الشاب سريعاً إلى الحاج شلبي حاملاً الحذاء، وكان الحاج شلبي جالساً أمام بيته بين جمعٍ من الناس ينتظر انتهاء التحضيرات لدفن ابنه ميسرة وهو في حالة سيئة جداً كأنه غائب عن الدنيا وما فيها، فلما رأى حذاء طفله الصغير في يد الشاب قال في هدوء مشيراً على الحذاء:

- هذا حذاء حمزة.

فقال الشاب:

- وجدنا الحذاء فقط.

فوضع الحاج شلبي يديه على رأسه، وعاد يسأل كأنها يحدث نفسه:

- أين ذهب؟

فأجاب الشاب:

- ما زلنا نبحث عنه يا حاج.

فقال الحاج شلبي في صوت منكسر يحاول مواراة انكساره:

- اذهبوا وابحثوا عنه جيداً.. فَإِنْ كَانَ حَيًّا أَحْضَرُوهُ لَكِنْ لَا تَجْعَلُونِي أَرَاهُ.. وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْضَرُوا جِثَّتَهُ وَادْفَنُوهُ مَعَ أَخِيهِ دُونَ أَنْ أَرَاهُ أَيُّضًا.

وكان زوج أخته المهندس الزراعي مهدي الراوي بجواره، فقال:

- استبشر خيرا يا حاج شلبی.. إن شاء الله سوف يجدونه بخير.

وانخرط الحاج شلبي في البكاء وهو يردد واضعاً رأسه بين كفيه:

- ميسرة.. حمزة.. لطفك ياااااااااارب.

وعاد الشاب إلى مصرف الماء، فلما عرف الرجل الطيب بأنَّ الحذاء لحمزة طلب من الجميع الاجتهاد في البحث عن حمزة قي كل الأماكن جيداً راجياً أن يعثروا عليه قبل أن يأتي الليل خوفاً على الطفل ورفقاً به من الفزع الذي قد يصيبه إذا رأى ظلام الليل يُغطيه بداخله.

واستمر بحثهم طويلاً، حتى أَنَّ هناك البعض منهم قد نزلوا إلى المصرف بعصواتٍ وفروعٍ يحركونها بالمياه، فلربما غرق فيه.

وانقضى النهار على ذلك ليأتي الغروب بظلمته، فأشعلوا المشاعل لتضيء لهم ظلام الليل الدامس في هذا المكان المخيف، ولكن دون جدوى، فلا وجود ولا أثر لحمزة على الإطلاق غير حذائه، وكان هذا الأمر غريبًا حقًا حتى لقد جلس الرجل الطيب جانبًا والحزن والإرهاق قد دمّراه.

فمن هذا الرجل؟ إنه السيد المتولي جار الحاج شلبي الجارحي وصديقه، فقد جاء هنا بين الجموع الزاحفة بحثاً عنه، وهو الرجل الذي كان يرافق الحاج شلبي في أوسيم، لكن هل جاء إلى هنا برغبة خالصة منه بدافع حق الجوار والصداقة وحبه للخير فقط؟.. بالطبع لا، إنما جاء إلى هنا بتكليف من الحاج شلبي نفسه، فقد كلفه الحاج شلبي بتلك المهمة وسط كل همومه، ولا غرابة في ذلك.

إنَّ الحاج شلبي الجارحي حين علم بخبر الحادث خَمَّن ما قد يحدث لطفله حمزة من فرع ورعب واعتداء من بعض الناس أو من أحد أتباع المعلم سعيد العدوي، لذلك فقد أسرع فطلب من جاره وصديقه هذا أن يرافق مَنْ يبحثون عن الطفل لحمايته، ليس هذا فقط، بل لقد طلب منه أن يجد وسيلة ما ويهرب بالطفل من الزيدية إلى أوسيم ويخفيه بمكانٍ فيها لا يعلمه إلا كلاهما إلى حين تهدأ الأمور وتندمل الجراح.

وبنفس الوقت فقد استمرَّ الأب المكلوم أمام المحيطين به يتظاهر بأنه لا يريد أن يرى طفله القاتل، وذلك حتى يهدىء من روعهم مع أن قلبه ينفطر بداخله من القلق واللوعة عليه.

أجل إنَّ الحاج شلبي قد فجع بابنه الكبير ميسرة وقرة عينه بيد ابنه الصغير حمزة هذا، ولكنها عاطفة الأبوة التي تغلب كل حقد وانتقام، ولا تستطيع إلا أن تصفح الصفح الجميل.

لكن السيد المتولي هذا لم يجد حمزة، ولم ينجح في المهمة التي كلفه بها صديقه الحاج شلبي، لذلك فقد جلس حزيناً متعباً قلقاً على الطفل وخجلاً بسبب عدم عثوره عليه وحمايته، فماذا إذاً سيقول للحاج شلبي إذا سأله عن طفله الصغير؟

وقد عادت الجموع كلها إلى بيت الحاج شلبي لتخبره بأنهم لم يجدوا حمزة في أي مكان، فسمع منهم الخبر فلم يجيبهم بشيء، بل ظل صامتاً يتطلع حوله لعله يرى صديقه السيد فلم يره، ففهم أنه نجح في مهمته وهرب بحمزة إلى أوسيم، وراح يردد:

- الحمد لله.. الحمد لله.

وتطلعت إليه الأنظار تستغرب حالته تلك، وقال له المهندس مهدي الراوي:

- الحمد لله على كل شيء.. لكن أين ذهب الطفل يا حاج؟

فنظر له الحاج شلبي ولا يزال يردد:

- الحمد لله.. كله خير إن شاء الله.

وكان الحاج شلبي في هذا الوقت جالساً أمام بيته مع بعض الناس بعد أن انتهى من دفن ابنه ميسرة في الجانب الآخر من القرية، وقد قرر أن يُقام العزاء في عصر الغد ليتيح لنفسه الاطمئنان على ابنه حمزة، وكان سعيد العدوي هو

الآخر قد انتهى من دفن ابنه أسعد في مدافنهم في أوسيم لكنه ذهب لتلقي العزاء في مضيقة أحد المساجد الكبيرة في المدينة.

أما عن الشرطة، فكان أمناء الشرطة جميعهم قد عادوا سريعاً من المصرف أثناء انشغال الحاج شلبي بالدفن فأخبروه أنهم لم يجدوا الطفل، ثم انصرفوا تاركين له رقم هاتف أحدهم وأمرأ صارماً بأن يخبرهم بأي جديد عن أخبار طفله القتال.

وانصرف الجميع إلا المهندس مهدي الذي ظلّ مع الحاج، واتصل الحاج بالسيد المتولي ليطمئن منه على حمزة، وكان الرجل هو مَنْ ظلّ وحده عند المصرف يفكر فيما يقوله للحاج شلبي ولا يعرف ما الذي يفعله، فلما جاءه رقم الحاج شلبي على هاتفه المحمول شرع يرد عليه بعد تردد ليخبره في أسى وخجل أنّ حمزة ليس معه، فطار صواب الرجل، وأغلق الهاتف بعد أن قال له:

- (انتظري عندك أنا قادم)

ولم يتركه زوج أخته المهندس مهدي يذهب وحده، فرافقه، وحكى له الحاج شلبي بالطريق ما يحدث، فشرع المهندس يطمئنه بأنهم سيجدونه، ويذكر احتمالات كثيرة لأماكن قد يكون بها، وفي الطريق تذكر الحاج شلبي أنه لم يرَ أخته وعد بعد، وفكر في أن يكون حمزة عندها في البيت، فقال للمهندس مهدي:

- كيف نسينا ذلك؟ .. من الممكن أن يكون قد ذهب لمحمود ابنك.

- للأسف يا حاج لم يذهب إلى البيت عندنا.. أنا كلمت وعد وسألتها عنه.. قالت إنها لم تره.

فقال بحسرة:

- إذن إلى أين ذهب؟

- لا تقلق.. سنجده إن شاء الله.

والتفت الحاج لزوج أخته وقال له:

- ومتى عادت وعد من زفاف زميلتها؟

- منذ ساعة.

- فلماذا لم أرها حتى الآن؟

- ربما هناك شيء أخرها يا حاج.. ستأتي إن شاء الله.

- وحتى سامية لم أرها.. ماذا يحدث؟!

قالها الحاج شلبي، وكان قد وصلا إلى المصرف وسط الظلام الدامس والأجواء الغامضة المرعبة، لا يريان بسهولة ما حولهما إلا بالإضاءة البسيطة الصادرة من هاتفيهما، وقابلهما السيد المتولي وهو يشعر بحرجٍ وحزنٍ، فسأله الحاج شلبي بصوتٍ مخنوق:

- كيف لم تجدوا ابني حمزة يا سيد؟!

- والله أنا مثلك يا حاج.. أنا مستغرب جداً.. كأن الأرض انشقت وبلغته.

وتقدّم الحاج شلبي حتى شاطئ المصرف وراح ينظر إلى مياهه لفترة، ثم راح ينظر حوله إلى الأشجار الكثيفة وأعواد الغاب المتلاصقة المخيفة وسط الأجواء المظلمة، ثم انخرط في البكاء قائلاً:

- ميسرة وحمزة.. ياااااارب.. أولادي ياااااارب.

فاقترب منه السيد المتولي وقال له:

- اطمئن يا حاج سنجده إن شاء الله.. لكن أريدك أن تفكر في الأماكن التي يجبُ حمزة الذهاب إليها غير هذا المكان.

- والله لا أعرف.. عقلي طار مني.

وتدخل المهندس مهدي قائلاً:

- الحاج السيد معه حق يا حاج.. ماذا عساه يكون قد ذهب غير بيت

عمته و غیر ہنا؟

فعاد الحاج شلبي إلى بكائه وهو يقول:

- هناك شيء يقلقني جداً.. وهو أنَّ ضياع حذائه هنا ليس له إلا معنى

واحد.

فسأله المهندس سريعاً:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنه غرق بالمصرف .

فأسرع السيد المتولي يقول:

- نحن بحثنا في مياه المصرف جيداً يا حاج.. فاطمئن.. أكيد هو حي

بإذن الله.. وعلينا أن نبحث عنه في أماكن أخرى بالقريّة.

وهنا خطر ببال الحاج شلبي شيء فأسرع يقول صائحاً:

- هي.. هي وحدها.

فأسرع المهندس مهدي يسأله:

- هي من؟

فقال الحاج شلبي:

- المرحومة أمه.. أكيد ذهب إليها.

فقال السيد المتولي:

- قد كنتم في المقابر منذ قليل.. لو كان هناك لوجدتموه.

قال المهندس مهدي:

- لم نبحث عنه هناك.. كنا مشغولين بالدفن.

فأسرع الحاج شلبي يقول:

- هيا بنا إلى هناك بسرعة.

وأسرع الثلاثة إلى مقابر الزيدية ينهبون الطريق نهبا والأمل يحدوهم في أن يجدوا حمزة هناك، فلما وصلوا في أولها كان هناك من يسرع بالخروج منها، استوقفهم الحاج شلبي، وكانوا أربعة من شباب أهل القرية انتظروا بعد دفن ميسرة لإنهاء عملية غلق المقبرة عليه جيدا.. سألهم الحاج شلبي:

- ألم تروا ابني حمزة؟

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال أحدهم:

- ماذا تقولون؟!.. أو لم تجدوه حتى الآن؟

وفهم الحاج شلبي أنهم لم يروه، فتركهم دون رد داخلا إلى وسط المقابر وخلفه صاحبه يسلكان من طريق لطريق ومن ممر لممر حتى وصلوا إلى قبر مكتوب عليه (قبر المغفور لها المرحومة تيسير شعلان)، فبحثوا أمامه وخلفه وجانبه وبعيدا وقريبا في المقابر كلها، فلم يجدوا حمزة، وعاد الحاج شلبي يتأكد من انغلاق القبر من الخارج جيدا من كل جوانبه، فربما دخله حمزة من أية فتحة فيه ثم غلبه النعاس بداخله، لكن القبر كان مغلقا تماما.

وبعد هذا البحث الطويل لم يجدوا أثرا للطفل حمزة في المقابر كلها، وراحوا يفكرون: أين هو؟.. هل لا يزال حيا؟ أم أنه مات؟ ولكن كيف

مات؟.. هل عثر عليه رجال سعيد العدوي فقتلوه وألقوه بأي مكان؟ أم هل غرق في ماء المصرف؟ أين حمزة إذاً إن لم يكن هذا ما حدث؟

وفكر الثلاثة في احتمالات أخرى، فربما نام من الإعياء والفرع بأي حقل بعيد عن الأبصار، وربما عاد إلى بيتهم ودخل حجرته وأغلقها عليه، أو ربما اختبأ بأي مكان آخر بالبيت على حين غفلة من الجميع، أو ربما أخفته الست سامية خوفاً عليه؟.. نعم الست سامية.. أين هي؟!.. كيف ينساها الجميع؟ أسرع الحاج شلبي ومن معه إلى بيته منذ أن اهتموا إلى هذه التخمينات، وقد صار لدى الأب أمل كبير في أن يجده مختبئاً تحت سريره أو داخل أحد الدواليب، أو أن الست سامية قد أخفته حماية له، وما أن وصل إلى البيت حتى قابلته الست سامية خارجه بالمكان الواسع وبجانبتها أخت لها شابة اسمها هيام وأخته وعد وهن يرتدين السواد، فسأل الحاج شلبي الست سامية على الفور منذ رآها:

- أين حمزة يا ست سامية؟

فأجابته وهي تصكُّ صدرها قائلة:

- هل تسألني أنا؟.. ألم تجدوه حتى الآن؟

فتركها وأسرع إلى الداخل مع الرجلين يبحثان في حجرته وتحت سريره وداخل دولا به وكل دواليب المنزل وفي كل الحجرات الأخرى وأعلى البيت، لكن لا أثر له، فعاد للنساء يسأل مرددا:

- أين ابني؟

فبكت الست سامية وقالت:

- والله لا أعرف.. حبيبي يا حمزة.

فبكى الحاج شلبي، وراح يستعطفها:

- من فضلك قولي إن حمزة معك.. قولي إنك أخفيتني عني لحمايته مني.

فاستمرت الست سامية في بكائها وهي تقول:

- أنا لا أعرف أين هو يا حاج.. ليتني كنت رأيت.. كنت خبأته بعيوني.

فنظر الحاج شلبي لأخته وعد وهو يبكي:

- وعد يا أختي أين حمزة؟.. أين ميسرة؟.. أين هما؟.....

فقاطعته وعد قائلة:

- اهدأ يا حاج اهدأ.. إن شاء الله ستجد حمزة.. ليس أماننا الآن إلا

الرضا بقضاء ربنا.. اهدأ واصبر.. إن الله مع الصابرين.

- كيف أهدأ؟.. وكيف أصبر؟.. فجأة صرْتُ وحيداً بلا أولاد..

ساعتان اثنتان أغيب فيهما عن بيتي يحدث ما يحدث.. ياارب لطفك بي..

الرحمة بعبادك ياارب.

قالها ثم عاد وغرق في البكاء والنحيب، ثم سقط إلى الأرض مغشياً

عليه، فصرخت الست سامية، وأسرع السيد المتولي والمهندس مهدي نحوه،

والست سامية تردد:

- ماذا جرى لك يا حاج شلبي؟.. ماذا جرى لبيتك؟.. عين من أصابت

بيتك يا حاج؟

وراحت وعد تقول:

- الحقوه يا جماعة.. أخي عنده السكر.

وأسرعتْ هيام فأخرجتْ من حقيبة يدها عطرًا، فالتقطه السيد المتولي، وراح ينثره على وجهه وأنفه وثيابه، وظلَّ الجميع في ذلك يحاولون إفاقة حتى استفاق ووعى ما هو فيه، فطلب من الرجلين استئجار سيارات بميكروفونات للبحث عن حمزة في كل مكان بالقرية دون انقطاع حتى يجذوه حيًّا أو ميتًا.

وظلت الميكروفونات طوال الليل تنادي وتصرخ:

- (يا أولاد الحلال.. حمزة ابن الحاج شلبي الجارحي تائه.. هل من أحد رآه؟.. من يعرف مكانه أو أي خبر عنه فليذهب به إلى بيتهم أو يتصل بوالده على هذا الرقم.....).

ولم يُجب أحد بجواب ينبيء بشيء عن الطفل، إنما كانت النتيجة ما بين كلماتٍ من التأثر، أو كلماتٍ من الشماتة مع بعض اللامبالاة من البعض والاهتمام والمشاركة في البحث من آخرين قليلين.

وفي الصباح اتسع نطاق البحث، وعادت الشرطة تبحث معهم، وعادوا إلى شاطئء المصرف ومياهه يبحثون على امتداده حتى المصب، فربما جرفته المياه مع تيارها غارقًا فيه، وزحفت السيارات بميكروفوناتا خارج الزيدية

إلى كل القرى والبلاد المجاورة كالأبعدية وبرطس والكوم الأحمر وسقيل
وشنباري وأوسيم وكفر طهرمس.

كانت الميكروفونات تنادي في هذه المرة:

- (طفل ضائع يا أولاد الحلال.. اسمه حمزة شلبي الجارحي من الزيدية..
يلبس بنطلون أسود وقميص سماوي مشجر.. شعره مائل إلى البني طويل
ناعم وعينه ملونة.. عنده سبع سنين).

ووصل الأمر بوالده الحاج شلبي إلى أن أعلن أن من يعثر على الطفل، أو
يأتي بمعلومة تؤدي إليه، فله مكافأة فورية قدرها مائة ألف جنيه.

وفي ذلك الحين صار الرجل بعد ذلك أقرب إلى تصديق بعض الذين
بدأوا يُخَمِّنون أن حمزة ربما يكون قد أُخِطِفَ لدرجة أنه بات ينتظر أن يتصل
به خاطفوه ليطلبوا مالا مقابل إرجاعه، وقد أعدَّ نفسه لدفع كل ما يُطلب
منه مقابل حمزة ولو باع أرضه كلها من أجل أن يعود.

واستمر البحث على ذلك لأسبوع كامل دون أثر لحمزة، وبالطبع تناقلت
هذه الأخبار في القرية كلها، ومن القرية انتقلت إلى أسماع المعلم سعيد
العدوي الذي نشر رجاله في كل مكان هو أيضا للبحث عن الطفل من أجل
الانتقام منه، ووصل الأمر بعد البحث الطويل إلى أن صار الحاج شلبي يظنُّ
ظنا آخر هو أن سعيد العدوي قد قتل ابنه أو أنه يخفيه لديه، وفي نفس الوقت

راح سعيد العدوي يظنُّ هو أيضًا ظنَّ السوء أنَّ الحاج شلبي يخفي ابنه في مكان ما بعيد عنه ليُفْلته من انتقامه، وما سيارات البحث تلك إلا طريقة ذكية من طرق التمويه لخداعه ليتسنى له إبعاده خارج الناحية كلها حتى تمر الأيام والشهور والسنون وتهدأ الأمور، ويُنسى الأمر.

لذلك أرسل المعلم سعيد العدوي للحاج شلبي الجارحي رجلًا من أتباعه مع عماد ابنه الكبير أخي أسعد.. قال عماد بنبرة تهديد:

- أبي يقول لك إن كنت تخفي ابنك عنا.. فاعلم أننا سنصل له ولن يفلت من عقابنا.

فغضب الحاج شلبي كثيرًا، لكنه تمالك نفسه وسأله:

- ماذا قد تفعلون بطفل لا يدري ماذا فعل؟

فأجاب الرجل الآخر:

- إن كان هو لا يدري.. فأين كان دورك لتعلمه كيف يدري؟

فما كان من الحاج شلبي إلا أن قال لهما بحزمٍ غاضبًا ومهددًا:

- اعلموا شيئًا.. أنا لا أعرف مكان ابني.. واحذرا أن أرى أحدًا منكما يأتيني بمثل هذا الكلام مرة ثانية.. واحذرا أيضًا أن يكون الولد عندكم وما جيئكما هنا إلا مجرد تمثيلية لخداعي.

فقال عماد غاضبًا وساخرًا:

- ماذا تقول؟.. يبدو أنك جُننت.. وأنا سأريك كيف سأنتقم لأخي أسعد.

قال الحاج شلبي بنفس الغضب:

- اعلم يا ابن العدوي أنه لم يبق لي ولد الآن أبكي عليه.. لذلك عليك أن تراعي ما تقول.. وإلا هدمت بيوتكم فوقكم وحرقت أراضيكم وأحرقتمكم بداخلها ولا أبالي.

وانصرف عماد، ونقل كل شيء وكل كلمة لأبيه سعيد العدوي، فاستشاط هو الآخر غضبًا، ومكث يفكر قائلاً لنفسه:

- (ما هذا؟.. رجلٌ يجب أن ينجل ويعتذر فإذا به يرد عليَّ مهددًا لي).

وكان الحاج شلبي هو الآخر لا يكف عن التفكير في ابنه متسائلًا في لوعة:

- (أين حمزة الآن حيًّا أو ميتًا؟.. إن كان ميتًا فأين؟.. وإن كان حيًّا فأين؟.. أين ينام؟.. وماذا يأكل ويشرب؟.. أين الحقيقة؟

الحقيقة هي أنَّ الطفل حمزة حي يُرزق في مكان ما، وقد زال عنه الفرع، وقرَّر قراره بعدما عاش لساعاتٍ رعبًا لا يُحتمل عند شاطيء المصرف يوم هروبه من مكان الحادث، حيث وقع فريسة وأداة لتخطيط شيطاني قصد من البداية أن يختطفه ثم يُنهي حياته بعد أن أنهى حياة أخيه وصديق أخيه أسعد العدوي لغرض ما خاص بالجنح البشري الذي لا يقف عند حد، لكن الطفل نجا بفضل شخص أنقذه.. فمن تعمد قتله؟.. ومن أنقذه؟

الفصل الرابع

مع شروق الشمس ..

كان الأستاذ حسن غراب يجلس في بيته بعد صلاة الفجر، جاءه على هاتفه رقم يعرف صاحبه جيداً باسم الكاتب عُمر الدالي، وإنَّ عمر يعرف جيداً أنَّ الأستاذ حسن يحبُّ دائماً أنْ يبدأ يومه مبكراً.. أجاب الأستاذ حسن:

- السلام عليكم يا حبيب.

- وعليكم السلام أستاذنا الغالي.. لعلك تكون بخير.

- الحمد لله.. وأنتَ يا عمر.. ما أخبارك وأخبار آخر كتاباتك؟

- نشكر الله.. وسامحني فأنا أتصل بحضرتك الآن لأمر آخر بعيد عن

الكتب والروايات.

- خيراً يا حبيب.

- هل سمعتَ عن الحادث الأخير في الزيدية يا أستاذ حسن؟
- هل تقصد الطفل الذي قتل أخاه وصاحبه؟
- نعم هو.
- حادث غريب.. لقد حزنتُ كثيرًا والله.. هم جيران لنا في الحقل.
- أنا أعلم ذلك.. لذلك كلمتُ حضرتك لأنني لا أستطيع التصرف وحدي.
- تحت أمرك حبيبي.. خيرًا.
- المعلم سعيد العدوي.. بالطبع حضرتك تعرفه.
- نعم أعرفه.
- هو والد أسعد صديق ميسرة الذي قُتل معه.
- نعم نعم أعرف ذلك.. وكنتُ في العزاء.
- سمعتُ أنه مصمم على الانتقام من الطفل حمزة.. ورأيتُ أنه يجب السعي من أجل عقد جلسة صلح عرفية بينه وبين الحاج شلبي الجارحي.
- طبعًا هذا واجب علينا.. لكن وصلني أن الولد لا يزال مفقودًا حتى الآن.. وهناك مَنْ يقول إنه غرق في المصرف.. وهناك مَنْ يقول إنَّ أحدًا خطفه.. حتى أن هناك مَنْ يقولون إنَّ المعلم سعيد العدوي نفسه هو مَنْ عثر عليه قبل أهله ويخفيه.....

وقاطعه عمر قائلاً له:

- الحقيقة غير ذلك تماماً يا أستاذنا الحبيب.

- ما الحقيقة؟

- الحقيقة أنَّ حمزة في مكان آمن الآن مع شخص ما.

- كيف عرفت ذلك يا عمر؟

- لأنني أعرف هذا الشخص جيداً.

فأسرع الأستاذ حسن غراب يقول:

- عموماً الحمد لله أنَّ الطفل بخير.. هل أخبرت أهله بذلك؟

فأسرع عمر يجيب:

- لا طبعاً.. أنا لم أخبر غير سيادتك.

- هل تخاف أنَّ يؤذيه أبوه؟

- أبوه لن يؤذيه.

- قد فهمتك.. أنت خائف من أنَّ يصل خبر العثور على الطفل إلى

سعيد العدوي فيتصرف بغضب وتهور ويؤذيه.. لذلك تريد أن نعقد جلسة
التصالح أولاً.

- طبعًا جلسة التصالح مهمة.. وهي أول ما يجب أن نسعى إليه.. لكنني لا أخاف على الطفل من والده ولا من سعيد العدوي يا أستاذ.. إنني أخاف عليه من الآخرين.

- حيرتني معك يا عمر.

- لا أقصد ذلك والله.. ولكن الأمر يتطلب شرح طويل.. ولا أستطيع أن أحكيه بالتليفون.. لكن يكفي الآن أن أخبر حضرتك بشيء أنا متأكد منه

- ما هو؟

- هناك من كان يريد قتل هذا الطفل.

- معقولة؟.. هل تقصد أنه موضوع ثأر؟

- لا ليس ثأرًا.

- هل هو محاولة خطف؟

- ليس خطفاً فقط.. إنما هو موضوع معقد وخطير جدًا يا أستاذ حسن لا يمكنني تفسيره وحدي.. تأكدت من ذلك مما حكاه الطفل.. ولذلك أريدك أن تساعدني في هذا الأمر لحمايته.. حضرتك رجل الخير والحكمة كلها.

- إذا سأنتظرك بمكتبي في مدينة نصر بالقاهرة مساء اليوم.. تعال لتخبرني بكل شيء لنرى ماذا سنفعل.

- حاضر.. سأكون عند حضرتك بعد المغرب.. شكرًا لك.

- في حفظ الرحمن.

وكان عُمر الدالي في عصر يوم حادث القتل قد توقف بسيارته الصغيرة المتواضعة خلف سيارة مرسيدس فخمة لفتاةٍ اتفق معها عمر أن يتقابلا هناك على الطريق الأسفلتي في الناحية الأخرى من المصرف، وقد كان هذا الجانب أكثر أمانًا من هذا الجانب التراي المواجه الذي تعود أن يجلس فيه الطفل حمزة.

خرج عمر من سيارته قاصدًا السيارة المرسيدس، لكنه فوجيء بأن فتاته لا توجد بسيارتها، ولم تكن هذه المرة الأولى التي تلتقيه في هذا المكان، ورغم ذلك فقد شعر بقلقٍ شديدٍ عليها، خاصة أنه لاحظ وجود سيارة أخرى حمراء اللون كانت تقف على البعد، لذا راح يبحث وينظر في كل مكان بقلقٍ، فلم يجدها، فقرر على الفور أن يتصل بها، وبينما كان يرفع هاتفه ليتصل، فإذا به يسمع صراخًا عاليًا.

كان الصراخ صراخ طفلٍ أعقبه صراخٌ أثوي، فراح عمر يتبين مصدر الصراخ الذي جاءه متواصلًا، حتى عرف أنه آتٍ من الجانب الآخر للمصرف، فجرى ناحية الجسر الخرساني القريب الواصل بين الجانبين على بعد مائتي متر، فقد أراد أن يعبر لمصدر الصراخ، وهو بالطبع يعرف مكان هذا الجسر جيدًا لسبيين: الأول أن أصوله من الزيدية رغم أنه صار يعيش

بالقاهرة، والثاني لأنَّ حقل والد تلك الفتاة يقع بعد الجسر بقليل، وقد عبراه
سويا في اللقاء السابق عندما ذهبا إلى هناك.

وَحَنَّ عمر في الحال بينما كان يركض سريعا حيث مصدر الصوت أنَّ
صراخ الطفل الذي سمعه قد يكون له علاقة بهذا الطفل الصغير الذي
يتعجبان منه كلما ذهبا إلى هناك، وذلك لأنهما يريانه جالسا وحده دائما يلقي
بأشياء في مياه المصرف، وبالفعل فما أنَّ وصل إلى المكان مع توقف الصراخ
حتى وجد فتاته تبكي وهي تحتضن طفلاً تهديء من روعه، وقد كان الطفل
يبكي كثيرا ويرتعد بشدة، وكان بالطبع هو، الطفل حمزة.. فماذا حدث ليؤدي
بالطفل حمزة إلى هذا المآل؟

ما حدث هو أنَّ حمزة قد أسرع بعد الحادث إلى شاطئ المصرف خائفاً
يترقب أنَّ يتعقبه أحد فيؤذيه قبل أنَّ يصل إلى هناك حيث الموعد والمكان
المحدد للقاء أمه تيسير شعلان بعد أداء مهمته.. أجل أمه المرحومة العائدة
من الموت لتكلفه بمهمة إنَّ أداها بنجاح أخذته معها إلى الجنة.. فهكذا خُذع،
وهكذا تمَّ إيهامه بذلك ليكون اليد المنفذة لأبشع وأبرع جريمة.

ففي عصر اليوم الذي تبارى فيه كل من الحاج شلبي وميسرة لقتل
الكلب أمام البيت ورآهم حمزة وبكى، حدث أنَّ ذهب الطفل ليجلس في
مكانه المعهود عند المصرف، وكان قد أخذ معه في هذه المرة هاتف والدته،
فطلَّ ينظر إلى صورهما معاً كعادته كلما أصابه الحزن والشوق لها.

وراق له أن يلتقط صورًا للمصرف وللأشجار ولكل شيء حوله في المكان، وبينما انخرط منشغلًا في ذلك فإذا بصوتٍ من خلفه يناديه باسمه من بعيد، فأسرع الطفل بحركة لا إرادية ملقيًا الهاتف من يده داخل أعواد الغاب الكثيفة بجانبه بشاطئ المصرف، والتفت مع ذلك مذعورًا، فإذا به يرى امرأة تقف خلفه وتغطي وجهها بقناع ويديها بقفازين، والغريب في هذا الأمر كل الغرابة أنها كانت ترتدي ثياب أمه المرحومة التي يعرفها حمزة ولا ينسأه، وهذا ما جعل الطفل ينطق صارخًا في ذهول:

- أمي!!

ولم تنتبه المرأة المقنعة للهاتف الذي كان معه ورماءه، وأراد الطفل أن يسرع ناحيتها، فأشارت له المرأة أن يقف مكانه قائلة:

- لا تقترب مني أكثر من ذلك.

فسألها متعجبًا ومذهولًا:

- أنتِ تلبسين ثياب أمي؟.. هل أنتِ هي؟

- نعم أنا أملك.

- لكنني أشعر أن صوتك ليس صوت أمي.

- أنا أملك تيسير يا حمزة.

- إذا لماذا تخفين وجهك عني؟
- يا حمزة أنا أملك.. ألا تصدقني؟
- بلى أصدقك.
- ألم أقل لك في منامك أني سأتي إليك؟
- بلى قلت.
- وها أنا قد أتيتُ.
- لكن.. لكنك ميتة.. وأبي قال لي إنَّ الأموات لا يعودون.. نحن فقط نذهب إليهم في الجنة.
- أحياناً يعودون يا حمزة.. هل نسيتَ أني أخبرتك أني سأعود لأحميك؟
- إذا هيا خذيني معك إلى الجنة.
- بالطبع سأخذك معي.. فقد جئتُ لأخذك.. لكن لا بد أن يرضى عنك أبوك أولاً.. فالجنة لا يدخلها إلا مَنْ كان أبوه وأمه راضيين عنه.
- ألسنتِ راضية عني؟
- طبعاً أنا راضية.. لكن أبأك غير راضٍ عنك يا حمزة.. لأنك لست شجاعاً جريئاً كما يريدك.
- فعلاً معك حق.. لكنني لم أعد أعرف بالضبط ما يريدُه لأكون شجاعاً جريئاً.

- أنا سأخبرك بما تفعله لتكون كذلك.
- وهل سيرضى عني أبي بعد ذلك؟
- نعم سيرضى عنك.
- وهل أستحق بعدها أن آتي معك إلى الجنة؟
- نعم تستحق الجنة بالطبع.. لكن كما قلت لك.. عليك أن تكون شجاعاً جريئاً.
- إذاً هيا أخبريني الآن بسرعة ماذا أفعل؟
- أنت طبعا تعرف مكان المسدس الذي يدربك عليه أبوك.
- نعم أعرف مكانه.
- حسنا.. أخبرني أين هو لأصدق أنك تعرف مكانه.
- تحت وسادة ميسرة.. إنه يخفيه مني كل يوم في نفس المكان ويظنني لا أعرف.
- إذا سأكلفك بمهمة سرية.
- ما هي؟
- أن تذهب وتأخذ هذا المسدس وتوجهه تجاه ميسرة وصديقه أسعد.. ثم تضغط على الزناد كثيراً بقوة كأنك ستقتلها.

- لكنني أخاف من حمل هذا المسدس.
- لا تخف يا حمزة.
- لا إني أخاف.
- قلت لك لا تخف.. أنا أمك التي تأمرُكَ بذلك.
- لا أستطيع فعل ذلك.
- حبيبي.. ألا تحبني؟
- أحبك طبعاً
- ألا تريد أن تأتي معي إلى الجنة؟
- أريد طبعاً.
- إذا نفذ كلامي.
- لكنني أخاف أن يحدث لميسرة وصاحبه ما حدث للكلب.. أخاف أن يموتا.
- لا تقلق يا حبيبي.. فلن يموتا.
- كيف؟
- سأسألك سؤالاً يا حمزة.

- ما هو؟

- هل يترك ميسرة رصاصات المسدس به؟

- لا .

- إذاً كيف يموتان بمسدس ليس به رصاص؟.. الرصاص هو الذي يقتل.

وسكت حمزة قليلاً يفكر ثم سألها:

- ولماذا أفعل ذلك؟

- هل نسيتَ يا حمزة؟.. لو فعلتَ ذلك سيعرف أبوك أنك شجاع لا

تخاف من حمل المسدس.. وسيرضى عنك ويحبك كثيراً كما أحبك أنا.

- أبي يحبني .

- هو يحبك لكنه غاضب منك لأنك تخاف من المسدس.. ولأنك لستَ

شجاعاً مثل ميسرة.

- وماذا يحدث بعد أن أكون شجاعاً؟

- سوف تستحق أن تدخل الجنة معي.. وسأعود لأخذك.

وراح يفكر في أمرٍ آخر فسألها:

- ولماذا أصوب على ميسرة وأسعد؟.. لماذا لا أفعل ذلك مع بقية

أصحابهم؟

- لأنَّ ميسرة وأسعد هما أكثر مَنْ يخيفانك منهم.. وأنتَ عندما تصوب
المسدس عليهما ستثبت لأبيك أنك لا تترك ثأرك.. وأنتَ تنتقم ممن يؤذونك
- معكِ حق.

قالها الطفل مبتسمًا، وظهر على وجهه البشر، كما ظهر أنه اقتنع تمامًا بكلام
المرأة المُقنَّعة ذات القفازين التي يظنها أمه، وعاد فطلب منها أن تزيل قناعها
ليرى وجهها فقالت له مستغلة سذاجته كطفل:

- لا يحق لمن دخل الجنة أن يكشف عن وجهه إذا عاد إلى الأرض ليأخذ
أحدًا.

- لم؟

- حتى لا يتلوث وجهه بذنوب أهل الأرض بعد أن تطهَّر في الجنة.

- معكِ حق يا أمي.. ولذلك أنا أحب الجنة وأكره الأرض.

- لا تقلق سأخذكِ إليها.

- لكنني رغم ذلك أريد أن أرى وجهكِ أولاً.

- قلتُ لا يحق لك ذلك.

- لكن كيف أتأكد أنكِ أمي؟

- وما الذي يجعلكِ غير متأكد أني أمكِ؟

- بصراحة صوتك غريب.
- ألا ترى الثياب التي ألبسها؟ .. هل نسيّت ثياب أمك يا حبيبي؟
- هي ثياب أُمي فعلاً.. لكن صوتك ليس صوتها.
- وسكتت المرأة المُقنَّعة قليلاً تفكر ثم قالت:
- لأنني أحبك وأريدك أن تأتي معي إلى اللجنة سأريك وجهي.
- ففرح الطفل وقال:
- إذاً هيا أريني وجهك.
- لا.. ليس الآن.
- متى؟
- عندما تنفذ مهمتك وتعود لي إلى هنا.
- ومتى أنفذ مهمتي؟
- غداً في العصر عندما يلعب الشباب الكرة أمام البيت.. ولا تتأخر عني.
- حاضر سأنفذ كل ما تطلبينه.
- وهناك طلب آخر يا حمزة أهم من كل ذلك.

- ما هو؟

- لا تخبر أحداً عني.. وإلا فلن تستحق دخول اللجنة معي ولن تراني أبداً
فأسرع الطفل يقول:

- لن أخبر أحداً أبداً أبداً.

وفي عصر اليوم التالي أخذ حمزة المسدس من تحت وسادة ميسرة، وخرج به ناحية الرفاق أمام البيت وقتل به ميسرة وصديقه أسعد العدوي.

وعند المصرف كانت المرأة المُقنَّعة في انتظاره.. وصلها الطفل بعد أداء مهمته وهو في غاية الإنهاك والفرع، فقد قطع الطريق ركضاً خائفاً يترقب أن يكون هناك مَنْ يتعقبه.. وما أن وقف أمام المُقنَّعة حتى سألته باهتمام ولهفة:

- ما الأخبار؟.. هل نفذت ما أمرتك به؟

فسقط الطفل أمامها على الأرض من الإعياء وهو يردد مذعوراً:

- نعم نفذت كل شيء.. لكن هناك شيئاً غريباً حدث.

- ما هو؟

- وقع ميسرة وصاحبه على الأرض كأنهما ماتا.. وسمعتُ مَنْ يقول إني قتلتهما.

فقالَت المرأة بارتياح:

- لا تقلق

فرّفع الطفل عينيّه لها وهو مُلقى على الأرض يسألها بخوف وقد انخرط
في البكاء:

- أنا خائف.. رأيت دماءً في كل مكان.. هل أنا بذلك قتلتُ أخي ميسرة
وصاحبه؟

ولم ترد عليه، إنما راحت تلتفتُ حولها وتسأله:

- هل رآكَ أحد وأنتَ قادم إلى هنا؟

- لا أعرف.

قالها حمزة وسكت لحظة، ثم قال لها يشير على زجاجة ماء بيدها:

- أمي أنا عطشان.

فاقتربت منه وقالت:

- ستشرب.. لكن اصبر.

- أمي أنا عطشان.. أريد أن أشرب الآن.

فقال بغضبٍ وصوتٍ عالٍ:

- ستشرب عندما نصل إلى الجنة.. هيا لنغادر هذا المكان سريعًا.

فقال الطفل لها:

- أنتِ قلتِ إنكِ ستريّنيني وجهكِ.. هيا أزيلِ الغطاء.

فانحنّت عليه لتوقفه من الأرض وهي تقول له:

- سترى وجهي عندما نختفي من هنا.. هيا بنا بسرعة.

- لقد وعدتني ولن آتي معكِ إلا عندما أرى وجهكِ.

- هيا نعبّر الجسر هناك إلى الجانب الآخر وسأريك وجهي.

- لن آتي معكِ.. أنا خائف.

- قلتِ هيا من هنا.. قم وامشي فأنا لا أستطيع حملكِ.

فقال الطفل لها:

- أنا خائف منك.. أنتِ لستِ أُمي.

فقالت بسخرية:

- إذاً هيا لتغرق في المصرف طالما لا تريد أن تأتي معي.

وبرقت عين الطفل ذهولاً وفزعاً وقال:

- ماذا تقولين؟!

- إنَّ حياتكِ خطر عليّ.

وبالفعل راحت المرأة تجذبه من إحدى يديه ناحية شاطئ المصرف

لترمي به إليه، والطفل حمزة يُثبّت قدميه بالأرض ويحاول أن يُمسك بأعواد

الغاب بجانبه، فانخلعتُ فردتا حذاءه من قدمه، وبينما كان يحاول أن يُفلتَ يديه من يديها نزع إحدى قفازيها، وظلَّ ممسكًا به في يده، وقد امتدَّ صراخه عاليًا متتابعًا وهو يردد:

- (الحقوني.. الحقوني).

وفي نفس الوقت كان هناك فتاة قادمة عن بعد متجهة ناحية حقل أبيها، فأسرعتُ تركض ناحية الصوت حتى رأْتُ تلك المرأة المُقنَّعة تحاول إلقاء الطفل في مياه المصرف فصرختُ هي الأخرى بأعلى صوتٍ لها، فخافت المُقنَّعة وتركتُ الطفل وركضتُ سريعة دون أن تلتفت ناحية الصراخ القادم، واختفتُ داخل حقول الذرة في الوقت الذي وصل فيه الكاتب عمر الدالي إلى المكان راكضًا فوق جسر المصرف ليرى فتاته تحتضن الطفل حمزة ويبيكان. ووضع الطفل بحركة طفوليةٍ غير واعيةٍ فردة القفاز التي بيده في جيب بنطلونه، ثم أخذاه مسرعين يغادران هذا المكان الموحش المخيف.



الفصل الخامس

لم ينتبه المنقذان أنَّ الطفل حمزة وضع فردة القفاز في جيبه.. فمتى انتبها لذلك؟.. وأين ذهباً به؟

أخذ الاثنان الطفل حمزة إلى أوسيم من طرق بعيدة عن الزيدية، وهناك أخفياه بشقة في عمارة لوالد الفتاة، وأتيا له بطعام وحذاء وثياب جديدة، وهنا انتبهت الفتاة واستغربت لوجود فردة قفاز حريمي في جيب بنطلون الطفل الصغير، فسألته عنها، فحكى لها ولعمر كل شيء.

وظلَّ الاثنان معه يعتنيان به بالمناوبة ويهيئان له كل الأسباب التي تعوضه عن ذلك اليوم العصيب بأحداثه المشؤومة تلك، ولم تترك الفتاة وسيلة إلا توسلت بها لإضحاك الطفل وتهديته.. فمن تلك الفتاة الطيبة؟

هي فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، رقيقة ممشوقة القوام، من ذلك النوع من الفتيات اللاتي يعشقهن القلب مع العين في آنٍ واحدٍ، وهي مثقفة

ذكية جدًا، والمرأة المثقفة الذكية تميل لها قلوب الرجال الناضجين المتميزين أكثر بكثير من الجميلة الحسناء، ومع ذلك فهي جميلة حسناء حقًا، أنيقة في ثيابها، أنيقة في كلماتها، أنيقة في نظراتها، أنيقة في صمتها، وهي مع كل ذلك ثرية، ومع ثرائها فهي متواضعة في كل سلوك لها.. قد تجدها قد لجأت بسيارتها المرسيدس الفارهة إلى جانب طريق في حي شعبي فأوقفتها، ثم ترجلت منها لتقف بجوار عامل نظافة أو رجل بسيط على عربة فول لتأكل كما يأكلان وتشرب كما يشربان وسط عوام الناس.

وقد حدث في أول مرة فعلت فيها ذلك أن راحت كل أنظار المحيطين تتعلق بها وتراقب أفعالها، وعلى وجوههم علامات تعجب وتساؤلات كثيرة أن رأوا فتاة جميلة تنزل من مرسيدس باهظة الثمن لتتناول فطورها على عربة فول بالشارع.. أجابت الفتاة تساؤلاتهم بابتسامة رقيقة صافية قائلة لهم:

- (إنسانة جائعة مثلكم جاءت لتأكل.. ما الغريب في ذلك؟).

فانخرط الجميع يضحكون ويرحبون بها وهم معجبون بتواضعها، وراح أحد صبيان صاحب عربة الفول يسألها باهتمام عما تريد أن تأكل فأخبرته، فأسرع يغسل أطباقها جيدًا قبل تقديم الأكل لها فيها، ثم أسرع صاحب العربة نفسه يهيم لها جانبًا تحت ظل شجرة، ويضع به منضدة صغيرة وكرسيًا، ويرص لها الأطباق رصًا مميزًا، ويضع لها أحسن الخبز، ثم قال لها:

- (تفضلي يا أنسة).

فابتسمت له وقالت:

- (شكرًا لحضرتك.. ولكنني في المرة القادمة أريد أن أكل وأنا واقفة بين الناس).

وحدث ذات صباح بعد ذلك أن نزلت تلك الفتاة من سيارتها، ووقفت لتأكل على نفس عربة الفول تلك، فتصادف أن وقفت بجوار شاب يكبرها بأربع سنوات، وراحت الأعين كلها تتطلع إليها كالعادة، فإذا بالشاب يقول لهم غاضبًا:

- (ما لكم؟.. علام تنظرون؟)

فضحك الناس، والتفتت الفتاة تنظر لمن يتحدث، فلما رآته صاحت في اندهاش:

- معقولة!!.. حضرتك أستاذ عُمر الدالي؟!

فابتسم وراح يصلح من ياقة قميصه، ثم أجابها بثقةٍ واتزان:

- نعم أنا عُمر الدالي.

فقال له ولا تزال عيون الناس تتابعهم:

- أنا سعيدة جدًا أن رأيتك.. أنا معجبة بكتاباتك.. قرأت كل رواياتك.. كلها رائعة.

- شكرًا شكرًا

ومن هنا بدأت علاقة الكاتب عُمر الدالي بتلك الفتاة الرائعة، فمن هي؟
إنها ريم ابنة رجل الأعمال الثري جعفر شعلان، أجل إنه هو، خال الطفل حمزة.

قضت ريم ابنة خال حمزة معظم حياتها في كندا قبل أن تأتي إلى مصر،
وصارت وعمر يتواعدان في هذا المكان عند المصرف تكررًا من وقت لآخر
منذ التقيا لأول مرة عند عربة الفول تلك، وقد راق لها منذ جاءت مع أسرتها
ألا تعود لكندا وأن تستقر بمصر لتكون مديرة لإحدى شركات والدها
الخاصة بالتصدير والاستيراد بالمهندسين.

ولم تمض أيام قلائل على حياتها في مصر حتى جذبتها حياة الريف بكل
ما فيها من حقول وزروع وأشجار وبساطة ونقاء، وذلك لأن الفتاة تعشق
كل ما في الطبيعة كما هو بدون تدخل البشر بالتشويه أو حتى بالتزيين، وهي
بالطبع تعرف مكان حقلهم المجاور لحقول عائلة غراب والحاج شلبي
الجارحي زوج عمته، فهي لم تكن مقطوعة قطعًا كاملاً عن أوسيم والزيدية،
إنما كانت تأتي كثيرًا إلى حقلهم هذا منذ سنوات عديدة عندما كانت طفلة.

إنها فتاة متميزة حقًا، وأكثر ما يميزها أنها رغم جمالها البائن وسحرها
الأخاذ وثقافتها الواسعة ليست مثل كثيرات من الفتيات التي تجذبن أضواء

المدن الحديثة والحياة المتحررة بكل شيء فيها، وهناك شيء آخر يميزها، ويعد أجمل ما فيها، وهو أنها تحب الأدب حباً جماً، تحبه بكل فنونه نثراً وشعراً ونحتاً ورسماً، وهذا بالطبع ما جعلها تعشق كاتباً أدبياً كعمر الدالي.

وهي بالطبع تتذكر عمتها المرحومة تيسير التي كانت تزورها كثيراً وهي طفلة كبيرة، وتعرف جيداً ابنتها ميسرة الذي كان يصغرها ببضع سنوات، وعرفت وهي بخارج مصر أن عمتها قد ولدت ولداً اسمه حمزة، ورأت صوراً له وهو طفل صغير، لكنها لم تر حمزة أبداً في الواقع إلا في مساء يوم هذا الحادث المشؤوم، وهي من أنقذته دون أن تنبه أنه ابن عمتها.

لكن متى عرفت تلك الفتاة ريم أن الطفل الذي أنقذته من مخالب تلك المرأة الشيطانية المُقنَّعة هو حمزة ابن عمتها تيسير؟..

عرفت ذلك عندما ذهبوا بالطفل إلى أوسيم، حيث بدأت الأخبار تتطاير لعمر الدالي من خلال اتصالاتٍ تمت بينه وأصدقاء له في الزيدية عن حقيقة الطفل القاتل وأهله وحادث قتله لأخيه وصديق أخيه، فبكت كثيراً وشكرت أقدار الله أن جعلتها سبباً في إنقاذ حياة هذا الطفل كطفلٍ وحيد خائف مذعور، وكابنٍ صغيرٍ لعمتها المتوفاة.

ولم يكن الطفل يعرف أن الفتاة التي أنقذته هي ابنة خاله الوحيد جعفر الذي لم يره في حياته إلا بضع مرات سريعة، فلم يرها قبل ذلك أبداً، لكنه عرف عندما سألته ريم:

- هل تعرف من أنا؟

فابتسم الطفل وقال لها:

- أنتِ ريم.. سمعتُ الأستاذ عمر يقول لكِ يا ريم.

فابتسمت وقالت:

- هل لكِ أقارب في أوسيم؟

- نعم.. خالي جعفر.

- هل تحب خالك جعفر؟

- نعم أحبه؟

- وهل لخالك جعفر أولاد؟

- نعم له.

- وهل تحبهم؟

- طبعًا.. إنهم أولاد خالي.

- هل تعرف أسماءهم؟

- لا أتذكرها الآن.. وحتى لا أتذكر شكل أيٍّ منهم.

- وهل تتذكر شكل خالك جعفر؟

- نعم أتذكره.. كانت أمه تريني صورته كثيرًا.. وهو أكثر مَنْ أحبه فيهم

- ولماذا تحب خالك جعفر كثيراً؟
- لأنَّ أُمِّي كانت تحبه كثيراً
- وسكت قليلاً ثم أسرع يقول:
- وطبعاً أقصد أُمِّي التي ماتت.. لا التي حاولتُ أن ترميني في المصرف.
- وابتسمت ريم ابتسامة حزينة، ومسحت على شعره الناعم، وقالت له:
- لا تُحزن نفسك.. سوف نعرف مَنْ هي تلك الشيطانة؟
- فسألها حمزة وقد بدأ يبكي:
- لماذا أرادت تلك المرأة أن تقتلني؟.. ماذا فعلتُ لها؟
- للأسف يا حمزة.. صارت الدنيا التي نعيشها ما هي إلا قابيل وهاييل
- مَنْ قابيل وهاييل؟
- سأخبركَ عنهما فيما بعد.
- وسكت الطفل قليلاً ثم سأل ريم:
- ولماذا قالت تلك المرأة إنها أُمِّي؟
- فضحكت ريم ضحكة حزينة ومسحت دموعه وقالت:
- لا تفكر في ذلك الآن يا حبيبي.. فقط تهدأ الأمور وسنعرف كل شيء.

ونظر لها حمزة وسألها:

- وأخي ميسرة.. هل سأراه ثانية؟.. لقد اشتقتُ إليه.

قالها وغرق في البكاء فاحتضنته ريم، وراحت تبكي هي الأخرى وتقول:

- لا تبكِ يا حبيبي.. لا تبكِ.. يبدو أنَّ هناك أسرارًا كثيرة وراء هذا الموضوع.

ونظر لها حمزة وهو يحاول أن يمنع نفسه عن البكاء وقال لها ببراءة:

- أنتِ طيبة جدًا يا أبله.. أنتِ مثل أمي التي ماتت.. كانت تشبهك.

وابتسمت ريم وقالت:

- طبعًا أشبهها.. فهل تعرف أيها الذكي لماذا أشبهها؟

- لماذا؟

- لأنها عمتي أخت أبي.

- ماذا تقصدين؟!

- أنا ريم بنت خالك جعفر يا حمزة.

وبرقت عينا الطفل بفرحة غامرة، وابتسم قائلاً:

- بجد.. أنتِ بنت خالي؟!.. أمي كانت تحكي لي عن أنَّ لخالي بنت كبيرة

جميلة.. لكنها قالت لي إنكِ تعيشين في بلد جميلة كلها ثلج وبعيدة جدًا جدًا
بيننا وبينها بحار وبحار.

فضحكت ريم وقالت:

- وها أنا ذا تركتُ بلاد الثلج الجميلة البعيدة جدًا جدًا وعبرتُ البحار
من أجل أن أراك يا حبيبي.

وسكت حمزة لحظة، ثم نظر لها وسألها متوجسًا:

- هل أنتِ صادقة؟

- نعم صادقة.. ولماذا أكذب؟!

فراجع حمزة للوراء قليلًا وقال في حذر:

- بصراحة أنا خائف من أن تكوني تكذابين عليّ.. خائف أن تكوني لستِ
ابنة خالي.. فقد كذبتِ المرأة المجرمة عليّ وقالت إنها أُمي.

فأسرعت ريم تُقسِم له أنها لا تكذب، وأخرجتْ هاتفيها وأرته صورًا لها
مع أبيها خاله جعفر، فاطمأنَّ الطفل وابتسم وضحك ووثق بها.

وكان الكاتب عمر الدالي قد ذهب حسب الموعد المحدد ليلتقي الأستاذ
حسن غراب بمكتبه بالقاهرة ومعه فردة القفاز.. أعطاهما عمر للأستاذ، وحكى
له كل ما حكاه الطفل حمزة له وريم، فأصابه الدهول وقال له على الفور:

- إن كان الولد صادقًا فيما حكاه لكما.. فتلك جريمة كاملة يا عمر..
يبدو أن الولد الصغير كان أداة في يد أحد ما لتنفيذ جريمة غامضة مأكرة.

- هذا والله ما فكرتُ فيه أنا أيضًا.

وأخذ الأستاذ حسن نفسًا عميقًا ثم قال في حزن:

- إنَّ الإهمال في تربية الأولاد وتركهم وحدهم يؤدي غالبًا إلى استغلالهم أسوأ استغلال في أفعال ومصائب وجرائم كثيرة.

- كلامك صحيح يا أستاذنا.

- وحسب ما ذكره الطفل لكما.. فإنَّ تلك المرأة المُقنَّعة عند المصرف كانت تريد خطفه في البداية.. ثم اضطرت لمحاولة قتله بإغراقه في المصرف حتى لا تنكشف.

- فعلاً.. لكن الحمد لله أنها لم تنجح في ذلك.

- الحمد لله يا عمر.

- لكن هناك شيء غامض يا أستاذ حسن.

- ما هو؟

- المسدس يا أستاذنا.

- أعرف قصدك.. أنت تقصد كيف كان المسدس فارغًا بلا طلقات، ومع ذلك عندما صوبه حمزة على أخيه وصاحبه قتلها.

- نعم هذا شيء محير.. فمن أين جاءت تلك الطلقات؟

- مؤكّد أنّ هناك مَنْ وضع الطلقات في المسدس متعمداً.

- وكيف دخل هذا البيت؟

- غالباً مَنْ فعل ذلك هو شخصٌ مِنْ داخل البيت أو العائلة.. أو هو مألوف لمن في البيت.. أو تربطه علاقة قوية بتلك المرأة المُقنَّعة المجرمة عند المصرف.

- وربما تكون المرأة المُقنَّعة هي نفسها التي وضعت الطلقات.

- ممكن جداً يا عمر.

- يبقى السؤال المهم يا أستاذ حسن.. ما الدافع لفعل هذه الجريمة؟

وسكت الأستاذ حسن للحظة، ثم ابتسم ابتسامة ذكية وقال مازحاً:

- ألا تعرف هذا الدافع بعد يا أستاذ يا روائي؟

- وهل قصدتك مِنْ فراغ؟.. فلستُ أملك نفس خبرة رجل مثلك قرأ تقريباً كل روايات الجرائم الغامضة وكل الروايات البوليسية.. فأخبرني سريعاً أيها الخبير.

فضحك الأستاذ حسن وقال:

- أولاً يجب أن نؤكد أنّ تلك جريمة غاية في الذكاء والدهاء.. لا يفكر بها مِنْ البشر إلا مَنْ يكون ألعن وأدهى مِنْ الشياطين أنفسهم.

- ثم ماذا؟.. أخبرني بكل شيء أرجوك.

- سأخبرك بشيء واحد فقط الآن أنا على يقين منه.. وهو دافع الجريمة الذي سألت عنه.. ولو فكرت في الدافع فسوف تفهم منه كل شيء.

- ما هو؟

- الدافع هو المال أو الميراث.. وهذه المرأة المُقنَّعة غالبًا ليست وحدها في ذلك.

- يا إلهي!.. هذا موضوع خطير فعلاً

- لذلك فهناك شيء مهم يا عمر يجب أن نفعله سريعاً

- خمنتُ ما هو يا أستاذنا؟

- ما هو؟

- أن نبليغ الشرطة .

فضحك الأستاذ حسن وقال له:

- بالطبع يجب أن نبليغ الشرطة وسيحدث قريباً.. لكن قبل هذا لا بد من التمهيد لذلك.. ولا بد من ضمان الحماية للطفل حمزة وتوفير الأمان له.

- معك حق جداً

- ولأنَّ معي حق جداً فإنه يجب عليك أن تفعل شيئاً مهماً.

- أنا تحت أمرك.

- عليك أن تجمع معلومات أكثر لكي نفيد بها الشرطة.. وأنا بالطبع سأساعدك.

- لكن جمع المعلومات من اختصاص الشرطة يا أستاذي.

- ونحن كمواطنين.. ألا يجب علينا أن نساعد الشرطة ما استطعنا؟

- بلى يجب.

- اعلم أن الإنسان السليبي يأتي إلى الحياة ويذهب كأنه لم يأت.. يأتي صفرًا ويذهب صفرًا.. فلنصنع بحياتنا ما استطعنا شيئًا ينشر الخير والمودة.

- لكن هذا الأمر سيستغرق جهدًا ووقتًا ووقت حضرتك ثمين.

- هذا واجبٌ علينا يا عمر وليس تفضلاً.. ولهذا لا بد أن آخذ من وقتي لمثل ذلك.. فكلما سعى بعضنا لعون الآخرين.. كلما أصبح كل منا لغيره استثناءً رائعًا.

- ما أروعك والله!.. حقا إن كل يوم جديد لي معك يجعلني أتعلم منك درسًا جديدًا ثمينًا.

- دعك من هذا الكلام يا حبيب واسمع تعليماتي التالية....

- تحت أمرك.. تفضل أسمعك.

- أولاً: أريدك أن تحصر لي أسماء كل النساء القريبات من عائلة الحاج شلبي الجارحي.. كلهن يا عمر.. فهذه الجريمة كما قلنا هدفها المال والميراث.. لذلك فهي لم تبعد عن الأقارب.

- لا تقلق.. سأتي حضرتك بالأسماء وكافة المعلومات.

- وثانياً: حمزة يظل مختبئاً مع ريم ابنة خاله.

- وثالثاً؟

- عليك أن تؤكد على ريم ألا تخبر أحداً عن إخفائها للولد.

- ورابعاً؟

- أن تعلم أنت وتعلم ريم أنه قد يكون وراء هذا الحادث جريمة ليست عادية.. ويساعدها مجرمون يعلمون أن الولد حي.. وأنه لا شك سيتحدث بعد أن تم إنقاذه بما يعرفه لمن أنقذه.. وقد تكون تلك المرأة قد انتبعت لريم أو تعرفها.. لذلك فإن حياة الطفل وحياة من أنقذه ويخفيه تشكل خطورة بالنسبة لهم.. ولذلك ربما يعقب هذه الجريمة سعي وبحث لإكمال الجريمة خوفاً من انكشاف الأمر.. إذاً أنت وريم في خطر يا عمر.. فكونا حذرين.

- وخامساً يا أستاذنا؟

- لا بد أن نبدأ في الترتيب لعقد جلسة الصلح العرفية بين أسعد العدوي والحاج شلبي الجارحي.

- وسادساً؟

- سادساً: أعود لأؤكد عليك أن تجمع المعلومات بسرية وسرعة لنعقد الصلح سريعاً بعد ذلك.

- إن شاء الله

- وهناك أمر مهم يبقى أن نفعله أيضاً يا عمر.

- ما هو؟

- سنعلن في آخر جلسة الصلح أن الطفل حي.

وانتابت عمر عند ذاك حالة من القلق وقال:

- أتمنى ألا يكون هناك خطرٌ علينا بعد إعلاننا عن ذلك.

- هل تظنُّ أنني لم أفكر في هذا الأمر؟

- أنا قلقٌ فقط على ريم.. هي من رأتها المرأة المجرمة.

- لا تقلق.

- حسناً.. لكن ماذا ستفعل يا أستاذنا؟

- سأكون قد أخبرت الشرطة بكل شيء لتبدأ عملها في سرية.. وسيبدو

الأمر كما لو أنها كانت محاولة خطف لا أكثر كما ظنَّ الطفل وحكى وانتهى الأمر.

- الآن اطمأن قلبي.

فابتسم الأستاذ حسن وقال له:

- إذاً هيا اذهب الآن ونفذ أول خطوة وجّهّ لي حصراً بالنساء.. أما عني فسوف أسعى للوصول للمعلم سعيد العدوي وللحاج شلبي.

- أوامرك يا أستاذي.

- ولنتقابل قريباً في أوسيم.. لذلك انتظر مني اتصالاً.. أريد أن أتحدث مع الطفل حمزة ومع ريم لترتب بعض الأشياء قبل عودة الطفل.

وبينما وقف عمر الدالي لينصرف ووقف الأستاذ حسن ليودعه، نظر الأستاذ في عينيه وقال بنبرة تأكيد:

- ما قلناه هنا يا عمر يجب أن يبقى هنا سرّاً بيني وبينك فقط.. لا تخبر ريم بشيء منه الآن.

واستغرب عمر لهذه الجملة الأخيرة، فأسرع يسأل:

- ماذا يدور في ذهن حضرتك؟

فضحك الأستاذ حسن وقال:

- الفتيات يثرثرن لبعضهن كثيراً.

- هل تقصد أنها قد تحكي لصديقات لها؟

- ربما.

- معك حق ولا تقلق.

- اذهب والله المستعان يا عمر.

وانصرف عمر الدالي، فأمسك الأستاذ حسن بهاتفه، واتصل بصديق له على علاقة قوية بالمعلم سعيد العدوي، ثم اتصل بأحد معارفه من الزيدية ليأتيه برقم هاتف الحاج شلبي الجارحي، وبالفعل تحدث إلى الرجلين ساعياً بينهما جلسة الصلح، وبعد امتناع في البداية من سعيد العدوي اتفق الجميع على أن تكون الجلسة بعد خمسة أيام ببيت المعلم سعيد العدوي في أوسيم.

أما عن عمر، فقد شرع يستقصي ويبحث في سرية تامة ليحصر جميع النساء اللاتي لهن علاقة ببيت الحاج شلبي وولديه المرحوم ميسرة والطفل حمزة، فإنَّ تلك العلاقة لا شك هي التي ساعدت المُنْعَنَة في نسج شباكها حول الطفل من خلال معرفة أسرار البيت وتفاصيل كل شيء يحدث به، كقصة المسدس وطريقة الحاج شلبي وميسرة في تربية الطفل على الجرأة وعدم الخوف، وقصة الأحلام التي رأى فيها حمزة أمه في المنام أكثر من مرة.

وجاءت بالطبع العمة وعد في أول القائمة، ثم جاءت بعدها خادمة المنزل الست سامية، ثم أختها هيام التي كانت تتردد على المنزل من وقت

لآخر لتراها وتساعدتها في الأيام التي يكون فيها طبخ كثير لإعداد طعام العاملين في الحقل، ثم ريهام هانم زوجة جعفر شعلان أخي المرحومة تيسير، ثم ابتتها الفتاة ريم، ولكن عمر بالطبع كان يسبق ريهام هانم لأنها بثرائها ومكانتها لا بد أن تكون فوق شبهات كهذه، وبالطبع فهو بلا أدنى شك يسبقه حبيبته ريم.



الفصل السادس

وكان قد مرَّ أسبوع بعد يوم الحادث، لم يترك رجال الشرطة يوماً منه إلا وذهبوا لبيت الحاج شلبي بتوجيهٍ من ضابطٍ مباحث شرطة أوسيم هشام عطية، وفي كل مرة يُقسم لهم الرجل وهو يبكي أنه لم يعثر بعد على ابنه حمزة، ولم يعرف له أثراً، وأنه لا يكفُّ عن أن يرسل من يبحث عنه في كل مكان.

وقد ساءت حالة هذا الأب المكلوم واعتصرته الهموم مع المرض، وأشرف على حافةٍ من الهلاك، فلا يكاد يفيق من غيبوبة سكر إلا انتابته أخرى، ولم يتركه صاحبه وجاره السيد المتولي يوماً، فهو يرافقه في كل مكان، ويدبر معه أمر البحث عن الطفل، ويتابع أعمال حقله وعماله العاملين به، ويحاول التخفيف عنه ويدعوه إلى الصبر الجميل على ما هو فيه ذاكراً له أنَّ كل شيء في الدنيا بقدر، وكل ما يصيب الإنسان من ابتلاءات إنما هي بحكمةٍ من الله، ولعل بعد هذا العسر يكون هناك يسراً يملأ دنيا هذا البيت الكئيب الموحجوع بهجة ونعياً حين يعود حمزة آمناً سالماً له فتستقيم الحياة.

ويبدو أنَّ المهندس مهدي الراوي زوج العمّة وعد كان قد انشغل بعض الشيء في هذه الأيام، فلم يتسنَّ له الذهاب لمنزل الحاج شلبي كثيرًا في أيامه وحالته تلك، حيث كان هو متولي إدارة الأراضي الزراعية التي يمتلكها رجل الأعمال جعفر شعلان في غيابه وسفره، ولما عاد رجل الأعمال طلب منه أعمالاً أخرى منها كل التفاصيل عن إيرادات أراضيه، فانشغل مهدي في ذلك، وقدَّر الحاج شلبي هذا الأمر.

وكان قد ذهب الخال جعفر شعلان إلى بيت أخته المرحومة تيسير لتعزية الحاج شلبي، وقد تألَّم كثيرًا لما أصاب ولديها، وامتنعت زوجته ريهام هانم عن الذهاب معه رغم إلحاحه عليها لكي ترافقه إلى هناك، فأغضبه ذلك منها وأثار عجبه، وصار بداخله عتابٌ ولو لمْ كثير عليها، لكنها لم تهتم لذلك أو تتأثر، وكذلك فقد كان يتتاب الخال جعفر عتابٌ شديدٌ أيضًا على الحاج شلبي أنَّ أهمل ولدي أخته ليؤول المآل إلى تلك المأساة، ولكنه بالطبع رجلٌ طيبٌ حكيمٌ، لذلك فقد حرص على ألا يظهر له ذلك في حالته تلك، إنما راح يخفف عنه قائلًا له:

- لا تقلق يا حاج شلبي.. إن شاء الله سنعثر على حمزة.

فبكى الحاج شلبي كثيرًا، فقال له جعفر:

- ما لك يا حاج؟!.. ليس أماننا إلا التسليم بقضاء الله.

- ونعم بالله.

قالها الحاج شلبي وأحنى رأسه، فربت جعفر على كتفه وقال له برفق:

- لا تهمل أنت نفسك وصحتك يا حاج.

- وهل هناك صحة لأب لم تعد عيناه ترى أولاده ينثرون ضحكاتهم

حوله في البيت؟

- كل شيء في الدنيا بقدر.. وإن شاء الله سيعود حمزة ويملاً البيت سعادة

- وميسرة.. هل سيعود؟

- ليكون إيمانك كبيراً يا حاج شلبي.. وهل الجنة بلا ثمن؟

- الثمن غالٍ جداً يا جعفر.

- أعرف ذلك.. ربنا يكون في عونك.

- أنا في نار والله.. الأحباب رحلوا وتركوني.. لكنني السبب.. نعم أنا

السبب.. أنا ضيعتُ أولادي.. الله يرحمك يا تيسير.. ضيعتُ أولادك يا أم

ميسرة.

قالها ثم راح يرفع يديه وينزلهما على رأسه متحسراً، فقال له جعفر شعلان:

- اهدأ يا حاج.. وإن شاء الله سوف أتحدث إلى أصدقاء لي في مركز قسم

أوسيم للاهتمام أكثر بالبحث عن الولد في كل مكان وضمان سلامته.

وتنفس الحاج شلبي نفسًا طويلاً وقال بصوتٍ منكسرٍ:

- أشكرك يا أستاذ جعفر.. شغلتك معي

- كيف تقول ذلك؟.. أليس حمزة ابن أختي الوحيدة رحمة الله عليها؟

وأسند الحاج شلبي ظهره لمقعده في حزنٍ، وقال:

- الأستاذ حسن غراب.. هل تعرفه؟

- طبعاً أعرفه وأذكره.. كان زميلي في المدرسة الإعدادية وصديقي.

- اتصل بي الأستاذ حسن لنجلس مع سعيد العدوي.

فابتسم جعفر قائلاً بنفسٍ منشرة:

- بارك الله فيه.. دائماً عائلة غراب سبّاقة إلى أفعال الخير.

وكان قد ذهب الأستاذ حسن مع الكاتب عُمَر الدالي لرؤية الطفل حمزة والفتاة ريم ابنة الخال جعفر شعلان.. طلب من ريم وعمر أن يتركاها قليلاً مع حمزة وحدهما، فقد أراد أن يسمع من الطفل ما حكاه لعمَر وريم مرة ثانية، ليس عن عدم تصديق منه لما قالاه، إنما أراد أن يتيقن من صحة كلام الطفل نفسه، ويسمع منه ما قاله لهما مرة ثانية، ليطابق روايتي الطفل ببعضهما في المراتين.

وحكى له حمزة كل شيء كما حكاه لريم وعمر، وكان كلما أتى ذكر أخيه ميسرة يبكي بكاء شديداً بالدموع، فقال له الأستاذ حسن:

- لا تبك يا حمزة.. يا حبيبي أنت لم تقصد ما حدث.

فقال الطفل بنفس بكائه:

- لكنني لن أرى أخي ميسرة مرة ثانية.. إن عدتُ للبيت مَنْ سيمزح معي؟.. وإن ذهبتُ للمصرف مَنْ سيأتي ويخيفني؟.. وَمَنْ سيضرب الأولاد الذين يضربونني؟

فربت الأستاذ حسن على رأس الطفل وقال له في تأثر:

- لا تحزن يا حبيبي.. الله أراد ذلك ويجب أن نرضى بقضاء الله.. ألا تحب الله؟

- أحبه طبعًا.

- إذاً ارضَ بقضائه.. فليس على العبد إلا أن يُسَلِّمَ بقضاء الله.

- ولماذا يكتب الله لي أن أقتل أخي وصاحبه؟

- في كل شيء من الله حكمة معينة يا حمزة.. وهذه الحكمة قد تخفى على البشر.

- ولم تخفى على البشر؟

- لأنَّ عقول البشر قاصرة لن تستطيع استيعابها في وقتها.

- لكن ماذا قد تكون الحكمة في أن يجعل الله الناس تقتل بعضها؟.. أريد أن أعرفها.

- هناك أمور ستعرفها بنفسك عندما تكبر بدون أن يخبرك أحد بها.

- وماذا يفعل الإنسان حتى لا يحدث له أي شر؟

فابتسم الأستاذ حسن وقال:

- أسئلتك كثيرة يا حمزة.. أنت ولد ذكي ما شاء الله.. أتوقع لك عندما

تكبر أن تكون ذا شأن كبير إذا اتبعت طريق الملاك بداخلك ولم تجعل للشيطان عليك سيلاً.

فصمت حمزة قليلاً يفكر في كلامه ثم قال:

- صحيح أريد أن أعرف.. كيف أمنع أي شر قبل أن يحدث لي؟

- بالدعاء.

- الدعاء!!.. هذا فقط؟!

- وهناك شيء آخر.

- ما هو؟

- سأسألك عن شيء أحاول به أن أجيبك.

- تفضل.

- هل تعرف السهام؟

- نعم.. رأيتها في التلفزيون في المسلسلات الدينية.
- لو قلنا إنَّ القدر الذي يكتبه الله عبارة عن سهام.. فمن يرمي هذه السهام؟
- فكَّر حمزة قليلاً ثم قال:
- الله.
- فابتسم الأستاذ حسن وقال:
- إذاً كن دائماً بجوار الرامي.. وبذلك تنجو من سهامه.
- فابتسم حمزة قائلاً:
- فهمتكَ يا أستاذ.
- ولكن اعلم أنَّ الله قد يصيب عبده الصالح ليختبر صبره.
- حتى وإن كان صغيراً؟!!
- أجل.. حتى وإن كان صغيراً
- لكنني لا أعرف كيف أصبر؟.. ولا أستطيع أن أنسى ما فعلته بأخي....
- وبيدي.
- الأيام ستمضي يا حمزة وستنسى كل هذه المعاناة.. وسيبقى كل ذلك في ميزان حسناتك يوم القيامة.. فتدخل الجنة وتلتقي بكل أحبابك.

وزيّنت وجه حمزة فرحة غامرة، وقال يسأل:

- هل سأرى ميسرة وأمي في الجنة؟

- إن شاء الله.. لكن أريدك الآن أن تستعدّ يا بطل لشيء آخر.

- أنا مستعد لأي شيء.

- ستعود إلى البيت قريباً.. فإنّ أباك يتشوق لرؤيتك.. إنه يبحث عنك

كل يوم.. فهو يحبك كثيراً.. ولا يستطيع أن ينام كل يوم دون أن يراك.

فابتسم الطفل، وأسرع يقول:

- والله لقد اشتقتُ لأبي كثيراً.

وابتسم الأستاذ حسن وقال:

- حفظك الله يا بني .

- ومتى سأعود للبيت؟

- قريباً.. لكن اسمعني يا حمزة جيداً.. ولا تنسَ ما سأقوله لك.

- حاضر تفضل أنا أسمعك.

- أنتَ طفلٌ ذكي.. لذلك أريدك ألا تحكي لأي أحد شيئاً غير أنّ هناك

امرأة كانت تريد خطفك ولم تستطع.. وهذه المرأة أنت لا تعرفها.

- حاضر يا أستاذ.

- ولا تخبر أحداً بأي شيء عن ريم.. مَنْ يسألك أين كنتَ قل له كنتُ مع الضابط هشام عطية.

- حاضر يا أستاذ.

- هذا فقط ما ستقوله يا حمزة.

- حاضر يا أستاذ.

- ولن تذهب إلى المصرف بعد ذلك دون أن تُخبر أباك.

- حاضر يا أستاذ.

وتحدث الأستاذ حسن بعد ذلك لابنة خاله ريم، وأكّد عليها ألا تخبر أحداً بأنّ حمزة كان معها أو حكى لها شيئاً ولو أقرب الأقربين، وكل ذلك من باب الحرص عليها وعلى الطفل، وحذراً من أن يصل ذلك بأي سبيل إلى المرأة المُقنَّعة ذات القفازين أو المجرمين أياً كانوا.

وجاء يوم جلسة الصلح العرفية بمنزل المعلم سعيد العدوي في أوسيم.. جلس المعلم سعيد وبجواره ابنه عماد ورجال آخرون تابعون له، وجلس الحاج شلبي الجارحي وبجواره صديقه وجاره السيد المتولي، وبجوارهما رجل الأعمال جعفر شعلان، وكان زوج أخته المهندس مهدي قد ترك أشغاله ليحضر، كما كان من بين الحضور ضابط المباحث هشام عطية، وهو

مِنْ أَصْدِقَاءِ كَلَّا مِنْ الْخَالِ جَعْفَرٍ وَالْأَسْتَاذِ حَسَنِ غَرَابٍ.. بَدَأَ الْأَسْتَاذُ حَسَنَ الْكَلَامِ:

- (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. الْبَقَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ يَا جَمَاعَةُ.. لَقَدْ حَدَثَ مَا نَعْرِفُهُ جَمِيعًا وَأَصَابَنَا جَمِيعًا الْحُزَنُ عَلَى فِرَاقِ ابْنَيْنَا أَسْعَدَ وَمِيسِرَةَ رَحْمَهُمَا اللَّهُ.. وَالْكَلُّ يَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.. وَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَرْضَى بِهِ وَنَتَّخِذَ مِنْهُ الْعِبْرَةَ وَالْعِظَةَ.. وَقَدْ جِئْنَا الْيَوْمَ فِي جُلُوسَةٍ خَيْرٍ لِنُغْلِقَ أَيَّ مَنْفَذٍ قَدْ يَنْشُرُ الشَّيْطَانُ بَيْنَنَا الضَّغِينَةَ وَالْكَرَاهِيَةَ مِنْ خِلَالِهِ.. وَطَبَعًا كُلَّنَا مِتَّاءُكَوْنٍ أَنَّ مَا حَدَثَ مِنَ الطِّفْلِ حِمْزَةٌ حَدَثَ بِدُونِ قِصْدٍ.. وَقَدْ أَسْقَطَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ الْقَلَمُ وَالْحِسَابُ عَنِ الْأَطْفَالِ حَتَّى يَبْلُغُوا.. فَكَيْفَ نَحَاسِبُهُمْ وَقَدْ أَعْفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ؟.. وَنَحْنُ نَعْلَمُ يَا مُعَلِّمُ سَعِيدٌ أَنَّ فِرَاقَ ابْنِكَ أَسْعَدَ لَكُمْ أَلِيمٍ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ فِرَاقَ مِيسِرَةَ لَكَ يَا حَاجَ شَلْبِي أَلِيمٌ.. وَأَلَيْكُمْ هُوَ أَلَمُنَا وَاللَّهُ يَا جَمَاعَةُ.. فَنَحْنُ جَمِيعًا أَخُوَّةٌ وَمَعَارِفٌ وَجِيرَانٌ.. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَحَافِظَ عَلَى عِلَاقَةِ الْمُوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَرْبِطُنَا.. وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ حَقُوقٌ شَرْعِيَّةٌ أَوْ عَرَفِيَّةٌ فَيَجِبُ أَنْ تُؤَدَّى لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا بِكُلِّ عَدْلٍ وَتَوَافُقٍ وَرِضَا.. لَكِنْ نَأْمَلُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ نَتَسَامَحَ وَنَصْفَحَ مَا اسْتَطَعْنَا.. فَهَذَا هُوَ الْبَاقِي لَنَا.. وَخَيْرِكُمْ مَنْ إِذَا قَدَّرَ عَفَا)

قال الأستاذ حسن كلمته تلك، ثم نظر للحاج شلبي الجارحي وقال له:

- ما الذي تريد قوله يا حاج شلبي؟

فقال الحاج شلبي بصوتٍ منكسرٍ حزين:

- (الحمد لله رب العالمين على كل شيء.. فهذا ابني ميسرة وقرة عيني قد دفنته منذ أسبوع.. وقد دفن المعلم سعيد ابنه وقرة عينه أسعد.. رحمهما الله.. ويعلم الله وحده كمّ الألم الذي أشعر به على فقد ابني.. هذا إلى جانب الألم الذي أشعر به بسبب ما يشعر به المعلم سعيد على فقد ابنه أسعد.. أنا أقدر ما هو فيه والله رغم أنه قد أغضبني ما جاء ليقوله ابننا عماد أخو المرحوم أسعد وأنا في حالتي تلك.. أدعو الله أن يُنزل علينا جميعاً صبراً جميلاً وسكينة.. وأن يُلبسنا ثياب الرضا بقضائه ليكون ذلك طريقنا إلى الجنة.. وطبعاً الأكثر ألماً وحرقة لي أنّ مَنْ فعل ذلك هو حمزة ابني الصغير الذي لا أعرف عنه شيئاً منذ الحادث حتى الآن.. ولا أخفي عنكم أمراً وهو أنني أشعر بأني على وشك الجنون.. أنا إنسان صرْتُ مُحطَّماً أشعر أني أموت في اليوم ألف مرة.. حفظكم الله وأبعدكم عما أنا فيه.. وأنا في كل دقيقة أتساءل في عجب وحيرة: كيف لحمزة فجأة هكذا أن يتجرأ ويحمل المسدس ليفعل ما فعل؟!.. وكيف يقتل المسدس ولم يكن به طلاقات؟!.. فأنا وابني المرحوم ميسرة كنا حريصين جداً على تفریغه دائماً من رصاصاته خوفاً على حمزة أن يلعب به.. وجميع مَنْ كانوا في المكان وقت الواقعة ذكروا أن ميسرة كان يُشجّع حمزة على أن يضغط الزناد ويضرب.. هذا يعني أن ميسرة كان واثقاً أن المسدس فارغ.. فمن أين جاءت الطلاقات؟!.. والآن سأخبركم بشيء آخر غريب ملأني بالشك والحيرة.. وهو أن رصاصات المسدس كلها موجودة.. وجدتها في مكانها بعد

الحادث بينما كنتُ أبحث عن شيء.. كلها والله موجودة.. وكنتُ أنا وحدي مَنْ يحفظها في هذا المكان.. ومن أجل الأمان لم أكن أخبر ميسرة عن مكان حفظي لها.. فمن أين جاءت تلك الرصاصات للمسدس؟!.. أقول هذا الكلام لسبيين.. الأول لأؤكد لكم أنني لستُ مهملاً كما يدار عني بالبلد الآن.. والثاني ليكون كلامي في وجود حضرة الضابط كبلاغ مني بأنَّ هذا الحادث ورائه لغز كبير.. أنا أشعر بذلك وشعوري لا يخيب أبداً.. ولذلك كله أطلب منك يا معلم سعيد أن تسامحني.. وإن كان هناك دية للقتل الخطأ فأنا مستعد أن أدفع لك ما تطلبه أو ما يحكم به السادة الأفاضل.. وذلك حتى تصفح وتسامح).

ونظر الأستاذ حسن غراب للمعلم سعيد العدوي وقال له:

- وحضرتك يا معلم سعيد.. ماذا تريد أن تقول؟

فوضع المعلم سعيد على المنضدة سبحة كانت بيده، ثم قال:

- (الحمد لله في الضراء كما في السراء.. ماذا أقول يا أستاذ حسن بعد

كلامكم الطيب هذا؟.. لقد جئتم لي إلى هنا والله يعلم ما كان بي من غضب وكراهية لكل شيء وعلى كل الناس منذ رحل ابني أسعد لربه.. لكن الكلمة الطيبة كما أنها صدقة لكل الناس فإنها بلسم لمثل جروحنا تلك.. لا أحد طبعاً يعلم مكانة أسعد في قلبي إلا الله.. كان حبيبي في الدنيا.. وكان نور عيني التي أرى بها.. وقلبي الذي ينبض بالحياة.. وعصاي التي أتوكأ

عليها.. ولساني الذي ينطق بكل كلمة جميلة صادقة.. أسعد كان أطيب ابن لأكثر أب في الدنيا يحتاج لكلمة حب وتقدير من أولاده.. كان دائماً ينطق بالكلمة التي أريد سماعها لتطيب نفسي.. كان يشعر بي ويتألم لألم مرضي اللعين كأنما الألم به وليس بي.. أسعد كان يجلس بجواري في جلسة الكيماوي يبكي بدموع وهو يراني أتألم.. أسعد ابني كان صديقي الوحيد في الدنيا.. ولم يكن له صديقان إلا أنا وميسرة.. والله كنت أغار على أسعد من ميسرة من كثرة حبه له واعتزازه به.. كان أسعد وميسرة قلباً واحداً في جسدين.. منذ اليوم الأول الذي تصاحبا فيه لم يفارق ميسرة يوماً واحداً إلا عندما يصحبني للطبيب.. حبيبي كان قد جاء لي والسعادة تكلل وجهه الجميل وقال: أخيراً لقد وجدتُ صديق حياتي.. سألته: مَنْ؟ قال: ميسرة الجارحي.. سألته: أهو ابن الحاج شلبي جارنا في الأرض؟ قال: نعم هو وأشكرك يا حبيبي.. وكان دائماً يناديني بقوله يا حبيبي.. سألته: لم تشكرني؟ قال: أنت لم تشتر لنا أرضاً جديدة بالزيدية وفقط.. بل اشتريت لي صديقاً بالدنيا وما فيها.. ابتسمتُ ودعوتُ لميسرة وأسعد بأن يظلا صديقين للأبد وألا يفترقا في الدنيا والآخرة.. ويبدو أنَّ دعوتي تلك كانت هي الدعوة التي نذرها الله لي ليحققنها إن دعوتُ.. فكان دعائي بها فاستجاب.. فقد عاش ميسرة وأسعد سوياً وماتا سوياً.. وكان يأتي ابني أسعد ويحكي لي دائماً كل شيء عن حمزة أخي ميسرة.. كان يحبه كثيراً.. وكان يلوم نفسه دائماً على أنه يذهب ويخيفه عند المصرف.. وكان يعود مسرعاً له بالحلوى والهدايا ليصالحه.. فمن يصدق

أَنَّ حمزة هذا صاحب السبع سنوات هو مَنْ قتل الاثنين ميسرة وأسعد؟.. أنا لا أصدق وأظنُّ أَنَّ وراء ذلك جريمة كبيرة غامضة معقدة.. فأين هذا العبقري الذي يستطيع حلّها؟.. رحمك الله يا أسعد يا حبيبي ورحم حبيبك ميسرة.. واحفظ يارب ابننا حمزة وردّه سالمًا لأبيه.. واسقِ يارب قلب كل أب الصبر عند فراق أولاده.. وألحقني بأسعد على خير).

وسيطر البكاء على المعلم سعيد رغماً عنه فتوقف عن الكلام، وبكى الحاج شلبي، وبكى أغلب الموجودين وقال الأستاذ حسن غراب:

- ربنا يحفظك يا معلم سعيد.. والآن قل لنا ماذا تطلب مقابل القتل الخطأ؟

فابتسم المعلم سعيد وقال:

- سأمحكم الله يا أحبابي.. كيف تنتظرون مني أَنْ أطلب مالاً مقابل أسعد؟!.. وهل هناك مال يساويه؟.. فما رأيكم في عرضي هذا؟.. مَنْ منكم يُرجع لي أسعد وأعطيه كل مالي؟.. ثم من أطلب؟.. مِنْ رجل مصاب بمثل ما أصابني وأكثر.. هل هذا كلام؟!.. أنا ليس لي إلا مطلب واحد من الحاج شلبي.. هو أَنْ يسامحني على ما قلته يوم الحادث.. ويسامح عماد على ما قاله يوم ذهب له في بيته.

ونفض الحاج شلبي مسرعاً ناحية المعلم سعيد وهو يبكي، فقبّل رأسه، وكذلك فعل المعلم سعيد وهو يردد:

- (أستغفر الله.. أستغفر الله)

ووقف الرجال جميعاً متأثرين يربتون على كتفي الرجلين ويرددون:

- (ما زالت الدنيا بخير والله.. بارك الله فيكما).

فعلوا ذلك جميعاً إلا شخصاً واحداً، كان الغضب يملكه، وكانت السخرية من الجميع ترتسم على وجهه عندما رأهم قد تأثروا كثيراً بما سمعوا، وكان أكثر ما لحظه الجميع عليه هي نظرات الاستغراب وعدم الرضا التي نطقت ملامحه بها وهو ينظر للمعلم سعيد العدوي بينما كان يتحدث عن أسعد.. كان هذا الشخص بالطبع هو عماد ابن المعلم سعيد، هذا الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه، فأسرع قائلاً:

- اعلموا أنني لا أوافق على كل ما قيل هنا.. فالحاج شلبي يجب أن يتحمل خطأه وخطأ ابنه الصغير ويدفع ثمن ذلك.

فأسرعت له أعين الجميع تستغرب كلامه وتستهجنه، وأولهم أبوه الذي قال له:

- ما هذا يا عماد يا ابني؟.. هل تقول كلاماً فوق كلامي؟

- نعم أقول إذا رأيتك تفرط في دم أخي.

وأحنى المعلم سعيد رأسه، ثم رفعها ملتفتاً إلى الرجال وقال:

- أرجوكم لا تؤاخذوني بما يقوله.

ونفض عماد واقفًا وقال غاضبًا متعجبًا:

- وأنا لن أجلس في هذا المجلس الظالم.. تحاولون تبرئة الطفل بأية طريقة.. كان يحمل المسدس أمام الجميع.. وهو من أطلق الرصاص وقتلها
أمام الجميع.. فما هذا؟!

فنظر له أبوه المعلم سعيد، وقال بنبرة حزم وغضب:

- اجلس.. عيبٌ ما تفعله.. لا تصغرنى أمام الرجال.

وجلس الابن عماد دون كلام، ونظر الجميع لبعضهم البعض، وعاد المعلم سعيد يعتذر لكل الحاضرين وفي مقدمتهم الحاج شلبي الجارحي، وهنا أشار الأستاذ حسن غراب على عماد وابتسم قائلاً:

- نحن نقدر بالطبع موقف عماد ابنك يا معلم سعيد بسبب فقدته لأخيه الأصغر وألمه لفراقه.. ونشكر لك يا معلم موقفك الرجولي والإنساني الذي لا يُنسَى.. لكن في النهاية نريد منك كلمة أخيرة أمام كل الحاضرين بأنك عفوتَ وسامحتَ.

فأسرع المعلم سعيد يقول بعد نظرة خاطفة عاتبة على عماد:

- طبعاً عفوتَ وسامحتُ.. لكن ادعوا الله لي جميعاً بالصبر على فراق أسعد.. وبالشفاء من مرضي.. وأن يعينني الله على ما تبقى لي من الدنيا.

وتدخل رجل الأعمال جعفر شعلان قائلاً:

- كنت أسمع عنك يا معلم سعيد ولكنني للمرة الأولى أتشرف بأن أراك.. ورأيتك والله نعم الرجل العاقل الرحيم.. شفاك الله وعافاك وألهمك والحاج شلبي الصبر الجميل.

وراح الجميع يرددون:

- (اللهم آمين).

ثم تحدث الضابط هشام عطية قائلاً:

- أكثر الله من أمثالكم.. فأنتم نعم الرجال.. والآن يجب أن تعلموا شيئاً.. وهو أنكم بذلك حافظتم على الولد حتى لا يُسجن بدار الأحداث.. وهنا جاء دوري لأن أنهي هذا الملف.. لكن يا حاج شلبي هناك شيء سيطلب منك وهو تعهد على نفسك بأنك مسؤول ألا يكرر الولد الصغير ذلك.....

وهنا تدخل الحاج شلبي قائلاً بحزن:

- أنا طبعاً موافق وتحت أمر سيادتك في أي شيء.. لكن أين الولد يا حضرة الضابط؟.. أنا بدأت أفقد الأمل في رجوعه.

ونظر الضابط للأستاذ حسن ثم ابتسم وقال للحاج شلبي:

- أبشر يا حاج.. فعندي خبر سار لك.

وسارع الجميع يتطلعون ناحية الضابط هشام، فقال مبتسماً:

- حمزة بخير.

ووقف الحاج شلبي فرحاً يقول:

- بجد.. أين هو؟

فقال الضابط:

- هو بخير تماماً يا حاج شلبي.. هناك مَنْ سلَّمه لي بعد الحادث بيوم.. وقال إنه أنقذه من امرأة كانت تريد خطفه.. وأنا مَنْ أخفيته عندي حتى تهدأ الأمور.

وهنا أسرع عماد يسأل:

- وماذا قال لك غير ذلك يا حضرة الضابط؟

ونظر الضابط له يسأله:

- ماذا تقصد بسؤالك؟

فقال عماد:

- أقصد ماذا قال لك عن قتله لأخيه وأخي؟.. ألم تسأله حضرتك لماذا

حرمني من أخي؟

- لم يقل أكثر من أن هناك امرأة كانت تريد خطفه بعد الحادث وأنقذته

فتاة.

فقال الخال جعفر شعلان:

- ربنا يبارك فيها ويحفظها لأهلها كما حفظت لنا ابنتنا.

وسأل المهندس مهدي:

- ومن هذه الفتاة؟

فأجاب الضابط متعمداً ألا يذكر شيئاً عن الفتاة قد يعرضها لخطر:

- لا أعرفها.. لكنها أخبرتني أنها من خارج الناحية كلها.

وسأله عماد:

- وماذا كانت تفعل في الزيدية؟

قال الضابط هشام:

- كانت مارة بسيارتها على الطريق الأسفلتي للمصرف.

وبدا على وجه الأستاذ حسن كثير من التساؤلات بسبب مثل تلك الأسئلة من الاثنين عماد ابن المعلم العدوي والمهندس مهدي الراوي، فراح ينقل عينيه بينهما مستغرباً، ثم راح الضابط هشام يبتسم للأستاذ حسن ابتسامة خاطفة أن نفذ ما اتفقا عليه، فأمنّا بذلك الطفل حمزة والفتاة ريم.

ولم ينس الأستاذ بعد ذلك أن ينقل للضابط هشام استغرابه من كثرة أسئلة عماد ومهدي عن الطفل حمزة، فضحك الضابط وقال له:

- إنها أسئلة عادية لا أرى فيها شيئاً.

الفصل السابع

كَلَّفَ الضابط هشام عطية رجالاً يراقبون من بعيد ثلاث نساء يشكُّ بهن، العمة وعد، والعاملة الست سامية، وأختها هيام، لكنهم عادوا وأكَّدوا له تكراراً أنه لم يظهر على أية واحدة منهن أي شيء غريب يدعو للاشتباه والشك.

فهذه العمة وعد تقضي حياتها ما بين عملها في المدرسة وبيتها، والست سامية تقضي حياتها ما بين عملها في بيت الحاج شلبي وعودتها في المساء لبيت أهلها في قرية سقيل التابعة لأوسيم، وهذه أختها هيام تكون صباحاً بعملها الجديد الذي استلمته جديداً في مستشفى قصر العيني، وفي المساء تذهب أحياناً لمساعدة أختها سامية في أعمال بيت الحاج شلبي.

واتسع نطاق شك الضابط هشام ليشمل الاثنتين الأخريين ريهام هانم زوجة الخال جعفر شعلان، وريم ابنتها، ولكن هاتين الاثنتين أيضاً لم يظهر

على أية واحدة منهما أي شيء يدعو للشك بهما من قريب أو بعيد، حتى أنه استبعدهما تمامًا من دائرة شكوكه كما استبعدهما الكاتب عمر الدالي من قبل عندما كان يحصر النساء القريبات من عائلة الحاج شلبي الجارحي، فقد رأى الجميع أن مثلهما لا يمكن أن يلجأ لمثل ذلك خاصة الفتاة ريم التي أنقذت الطفل.

إذاً فقد سارت حياة النسوة الخمسة المشكوك بهن سيراً طبعياً جداً، ولم تقم أية واحدة منهن بأية مقابلة أو لقاء أو سلوك خارج حدود الحياة الطبيعية لساكني هذه البلاد، وهنا بدأ الضابط هشام يظن شيئاً فشيئاً أن أصل القضية ما هو إلا مجرد محاولة خطف لحمزة، وأن بقية القصة ما هي إلا بعض من أوهام الطفل الصغير المرتبك المذعور بسبب قتله لأخيه وصاحبه.

وتلا ذلك أن عاد الضابط هشام يستعيد كلام الأب الحاج شلبي يوم جلسة التصالح، ويفكر في الجزء الخاص من شكوكه حول المسدس أداة القتل، فقد أكد الرجل حرصه على تفريغ رصاصات المسدس منه وإخفاء الرصاصات بعيداً عن حمزة وميسرة، لذا فقد شرع الضابط هشام يتساءل نفس تساؤل الأب:

- (من أين جاءت الرصاصات القاتلة للمسدس؟.. ومن وضعها؟)

ولكنه عاد يجيب نفسه أنه ربما وضعها ميسرة نفسه بالمسدس ونساها، أو ربما نساها الحاج شلبي نفسه، أما عن الرصاصات التي وجدها الحاج شلبي

بعد الحادث كما هي في مكانها، فربما اختلط الأمر أيضًا في نفس الأب المرتبك المودع فلم يستطع تمييز الكثير.

وبذلك توصل الضابط هشام إلى أنه ليس هناك أية جريمة، وأغلق ملف هذه القضية، واتصل بالأستاذ حسن يخبره بذلك، فقال له الأستاذ:

- طبعًا الحكومة أدرى.. وأتعبناك معنا يا هشام بك.. نشكر سيادتكم كثيرًا.

- لا شكر على واجب حبيبي.. والحمد لله أن الموضوع كله في النهاية اتضح أنه مجرد محاولة خطف.. ولكن لي طلب منك يا أستاذ حسن.

- تفضل أنا تحت أمرك

- طبعًا الحاج شلبي والمعلم سعيد لا يعرفان أننا كنا مثلها نشك في أن الحادث وراؤه جريمة.. فأرجو أن يظلا على ذلك خاصة الحاج شلبي حتى لا يشعر بالقلق على ابنه.. يكفي ما هو فيه.

- طبعًا طبعًا.. لن يخبره أحد طالما أن الأمر لا يستدعي ذلك.

- وهناك شيء آخر يا أستاذنا.

- تفضل أسمعك يا هشام بك.

- أريد من حضرتك أن تتصل بالحاج شلبي وتخبره بأن يراعي ابنه أكثر من ذلك ولا يهمله ولا يجعله يذهب وحده إلى مكان بعيد عنه كهذا المصرف.

- معك حق والله.. سأذهب وأتحدث معه.

- اعذرني يا أستاذ حسن.. فحضرتك لك مكانة كبيرة عند هؤلاء الناس.. لذلك أطلب منك ذلك.

- أنا تحت أمرك يا هشام بك.

- شكرًا حبيبي.

وكان الطفل حمزة قد عاد بعد جلسة الصلح إلى بيته وحجرتة ورفاقه واللعب، وذبح الحاج شلبي الجارحي ثلاث بقرات، ووزع لحومها على فقراء الزيدية وقرى أوسيم، وأقام وليمة كبرى، وكلُّ ذلك فرحا بعودة الصغير.

وليس ذلك فقط، بل أخذ الحاج ابنه بسيارة خاصة في نزهاء إلى القاهرة والجيزة والإسكندرية، زار خلالها كل الأماكن التي أحبَّ حمزة أن يزورها، والطفل حمزة مسرورٌ بكل ذلك، وأبوه قد عاودته الحياة ببهجتها، وعادت لصحته العافية والشفاء، وتزيّنت دنياهما، ونسيا هذا الحادث الأليم.

وذهب الأستاذ حسن وعمر الدالي إلى بيت الحاج شلبي ليخبره الأستاذ بما طلبه منه الضابط هشام عطية، فقابلهما حمزة بفرحة غامرة، ورَحَّبَ بهما الحاج شلبي كثيرًا، فهو يحفظ لهما سعيهما ووساطتهما لإتمام التصالح العرفي بينه وبين سعيد العدوي، فكان ذلك سببًا في أن جرت الأمور من حينها جريًا طبعيًا كما يهواه الجميع.

وجاء الحاج السيد المتولي إلى بيت الحاج شلبي لأمرٍ يتعلق بأعمال الأرض والعمال، فاستأذن الرجل خارجاً من حجرة الضيوف له، وبقي حمزة مع الضيفين، فقال الأستاذ حسن لحمزة:

- هل ما زلتَ تذهب وحدك عند المصرف يا حمزة؟

- لا والله.. أنا سمعت كلامك يا عمو ولم أعد أذهب إلى هناك.

- أحسنتَ يا حمزة.. أنتَ ولد ذكي ومطيع.

واقترَب حمزة من الضيفين وقال بصوتٍ هامسٍ:

- اطمئنا.. أنا لم أخبر أبي عن أنَّ المرأة المُقنَّعة كانت تكذب عليَّ وتقول إنها أُمي.. وأنها هي مَنْ جعلتني أحمل المسدس وأقتل أخي وصاحبه.

فنظر عمر الدالي للأستاذ حسن وابتسما، وكان الاثنان قد انتابهما بعد أن قرر الضابط هشام عطية غلق القضية بعض الشك في أن يكون كل ما حدث كان مجرد حلم رآه الطفل فظنه حقيقة، ولأنه طفل لم يستطع التمييز، لذلك فقد سأل الأستاذ حسن حمزة:

- حمزة يا حبيبي.. هل تستطيع أن تحكي لي مرة أخرى ما حدث من تلك المرأة بالضبط؟.. قد يكون هناك بعض التفاصيل نسيتَ أن تخبرني بها.

فعاد حمزة يحكي بالضبط كل ما حكاه من قبل دون زيادة أو نقصان، فسأله عمر الدالي:

- يا حمزة.. هل أنت متأكد أنّ ذلك حدث من المرأة؟.. أم أنه حلم؟

فراح حمزة يُقسّم أنه حدث، فقال له الأستاذ حسن:

- أنت أخبرتنا أنّ والدتك الله يرحمها قد أخبرتك في الحلم أنها ستأتي لك وتحملك.. فربما يا حمزة كان كل شيء حدث لك بعد ذلك وحكيته لنا كان حلمًا مثل ذلك.

فعاد حمزة يُقسّم أنه ليس حلمًا، ثم قال لهم:

- اسألوا أبله ريم بنت خالي.. لقد رأت المرأة وأنقذتني منها.

فقال الأستاذ حسن:

- ربما يكون الجزء الخاص بالمرأة هو الواقع فقط، والباقي كان حلمًا.. وأنّ تلك المرأة مجرد امرأة تخطف الأطفال الذين يذهبون لأماكن بعيدة عن أهلهم.

فقال حمزة بإصرار:

- والله أنا لا أكذب.. والله كل شيء حدث.

فابتسم الضيفان ابتسامة ترضيه، وقال الأستاذ حسن:

- نحن نصدقك يا حمزة.. ومن أجل ذلك نؤكد عليك ألا تذهب وحدك إلى المصرف.

فابتسم الطفل قائلاً:

- حاضر.. وأبي نفسه لم يعد يتركني أذهب إلى أي مكان وحدي.

وانصرف الضيفان من بيت الحاج شلبي وهما أقرب إلى تصديق الطفل، وصارا غير مقتنعين بما انتهى إليه الضابط هشام من أنَّ الموضوع مجرد محاولة خطف لطفل، لكن ماذا يمكنهما فعله؟.. لا شيء.

وبدأت الدراسة، وراحت خطوات الطفل حمزة تعرف طريقها كل صباح فوق عتبات الصف الثاني الابتدائي، لكنه فوجيء بشيء صار يحدث معه يومياً آله كثيراً وآذاه، فلقد صار مدرسه يتعاملون معه بطريقة غير ذي رحمة، وصارت أغلب المدرسات يتغافلن وجوده ويتجنبنه، ويحذرن منه، وقد كنَّ قبل الحادث يحنون عليه كثيراً.

وزملاؤه في المدرسة أيضاً لم يكونوا أقل تغيراً من هؤلاء، هم لم ينسوا بعد هذا الحادث المشؤوم، فإذا بهم جميعاً يتجنبون الاقتراب منه، أو الحديث معه بتوجيه من آبائهم وأمهاتهم بالطبع، ولم يسلم حمزة من أحد منهم، حتى محمود ابن عمته وعد، لم يكن مختلفاً عنهم في ذلك، ولم يكن كما كان معه قبل الحادث، واستغرب حمزة بسبب ذلك كثيراً، وعادته ذكريات هذا اليوم الكئيب، وسأل حمزة محمود يوماً بينما كانا في فناء المدرسة وقت الفسحة:

- لماذا صرت هكذا معي يا محمود؟

وتركه محمود دون أن يجيبه صاعدًا إلى فصله، فلاحق به حمزة وأمسك بيده قائلاً:

- لماذا لا ترد عليّ؟

فصاح محمود به:

- اترك يدي.

- كلمني يا محمود.

- لن أكلمك.

- لماذا؟.. ماذا فعلتُ لك؟

- لم تفعل شيئاً.. لكن بابا وماما طلبا مني ألا أكلمك أبداً.

- لم؟

- يخافان أن تقتلني كما قتلت أخوك.

فترك حمزة يد ابن عمته مصدوماً، وانزوى بعيداً عن زملائه يبكي، ورآه بعضُ من المعلمين والمعلمات فذهبوا إلى عمته وعد الأخصائية الاجتماعية بنفس المدرسة، وكانت جالسة في حجرةٍ مع زميلاتها.. أخبروها أن حمزة ابن أخيها يبكي فقالت لهم:

- وماذا أفعل له؟.. لماذا لم يسأله أحدكم عن سبب بكائه؟

- قال لها معلم:

- أَلَسْتُ عَمَتِهِ؟

- هنا في المدرسة لَسْتُ عَمَتِهِ.

- دَعِكِ مِنْ هَذَا.. أَلَسْتُ الْأَخْصَائِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْمَسْئُولَةُ عَنْ حَلِّ مَشَاكِلِ التَّلَامِذَةِ؟

- وَمَاذَا أَفْعَلُ أَنَا لَهُ؟

وَوَقَفْتُ مُعَلِّمَةً الرَّسْمِ فِي الْمَدْرَسَةِ، فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ اسْمُهَا مَرْوَةٌ، وَهِيَ ابْنَةُ السَّيِّدِ الْمُتَوَلِّي جَارٍ وَصَدِيقِ الْحَاجِّ شَلْبِي.. قَالَتْ مَرْوَةٌ لِلْعَمَةِ وَعَدَ بِكُلِّ جَرَاءَةٍ:

- إِنَّ كَانَتْ الْبَلَدُ كُلُّهَا ظَالِمَةً لِهَذَا الطِّفْلِ.. فَأَنْتِ عَمَتِهِ وَأَقْرَبُ النَّاسِ لَهُ.. حَرَامٌ عَلَيْكَ وَاللَّهِ.

فَغَضِبْتُ وَعَدْتُ وَقَالَتْ لَهَا:

- وَأَنْتِ مَا دَخَلِكِ بِذَلِكَ؟

- دَخَلِي أَنِّي إِنْسَانَةٌ.

- إِذَا أَحْتَرَمِي نَفْسَكَ يَا إِنْسَانَةَ.. وَاحْتَفْظِي بِإِنْسَانِيَّتِكَ لِنَفْسِكَ وَلَا تَتَدَخَّلِي فِي شَأْنِ غَيْرِكَ.

- أَنَا مُحْتَرِمَةٌ نَفْسِي يَا أَسْتَاذَةَ وَعَد.. فَقَطُّ أَرَدْتُ أَنْ أَذْكُرَكَ بِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونِي لَهُ بِمِثَابَةِ أُمِّهِ اللَّهِ يَرْحَمُهَا.. وَاللَّهُ وَلَدَ مَسْكِينٍ.

وشعرتُ وعد بسوء موقفها أمام الزميلات، وأنه يتحتم عليها كعمة للولد الصغير أن ترفق به، فإن لم يكن هذا إحساسًا صادرًا من أعماقها فلتظاهر على الأقل بذلك، فاتجهت ناحية الولد، وقبل أن تصل له نادته باسمه فرفع عينيه لها، ولم يجيبها، وتركها وذهب.

وفي البيت روتُ مروة لأبيها ما حدث، فروى بدوره أبوها لصديقه الحاج شلبي ما روته ابنته، فغضب الحاج شلبي واتصل بأخته وعنفها قائلاً:

- إن كنتِ عمته وتعاملينه هكذا.. فماذا تركتِ للأغراب؟

فقالت له أخته:

- ذهبتُ له وناديتُ عليه ولم يرد عليَّ.. فماذا أفعل غير ذلك؟

- لن أخبركِ بما يجب عليكِ أن تفعلينه.. لأنه كان يجب أن تعرفي بنفسك.

قال ذلك وأغلق الاتصال دون كلمة أخرى، وبعدها يومين اتصلتُ به لتخبره أنها تريده في أمر ضروري، فسألها:

- ماذا تريدين؟

فقالت بنبرة حادة جادة:

- أريد نصيبي من الميراث.

سكت الحاج شلبي قليلاً ثم قال:

- هذا حقكِ طبعًا.. ولكن هل هذا وقته؟

- إذا متى وقته؟

- اسألني نفسك.

- أنا أرى أن وقته فات منذ زمن.. والآن أريدك أن تعطيني موعداً.

- عندما أستفيق من موت ابني.

- أرجو ألا يتأخر ذلك.. وتذكر أنني طلبته قبل موته بفترة وأنت أجلتته.

فأخذ الحاج شلبي نفساً عميقاً حزيناً وقال لأخته وعد:

- تغيرت كثيراً يا أختي.

- أنا لم أنغير.. أم أنك تراني تغيرت لأنني أطالب بحقي وميراثي؟

- هذا حقك.. وقرىبا ستأخذينه.

ومرّ ثلاثة أشهر بعد ذلك، ولما يعطِ الحاج شلبي أخته حقها في الميراث بعد، فاتصل زوجها المهندس مهدي بالأستاذ حسن غراب يطلب منه الوساطة لدى الحاج شلبي لتحصل زوجته وعد على حقها، فذهب الأستاذ حسن للحاج شلبي وحدثه في الأمر، وتلا بآخر كلامه الآية القرآنية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

فقال له الحاج مبتسماً:

- ونعم بالله.. أنا لا أمانع والله يا أستاذ.. ولكن فقط أنتظر للصيف بعد جني الزرع حتى يسهل لنا تقسيم الأرض.

- أكرمك الله يا حاج شلبي.. قد عدلت وأحسنّت.

- أنا والله لم أقصد أن أمنعها من حقها أبداً.. لكنها لحوحة ولا أعرف ما حدث لها أخيراً.. وعد تغيرت تماماً.. لقد كانت أقرب صديقة للمرحومة.. لكن سامحها الله إنها أختي بالنهاية.

- ماذا تريد أن تقول يا حاج؟

وتردد الحاج شلبي قليلاً ثم قال:

- صرتُ والله أشعر أنها تتمنى لي الموت أنا وحمزة حتى ترثنا.

- لا تقل ذلك.. هي فقط غاضبة لأنها تظنك تتهرب منها دائماً كلما طالبتك بحقها.

فوقع هذا الكلام على الحاج شلبي موضعاً أغضبه من أخته وقال:

- يا أستاذ حسن هي طلبته مرتين.. الأولى قبل موت ميسرة بفترة ولم أكن مستعداً وقتها لذلك بسبب المحصول والزرع فأجلتها.. والثانية بعد موته.. وحضرتك تعرف حالتي وقتها.. والآن أطلب فقط أن تصبر حتي أجنبي المحصول بالصيف.

- كل كلامك جميل ومنطقي يا حاج.. أنا سأخبرها بذلك.. والصيف ليس ببعيد عنا.

- شكرًا يا أستاذ.

وعلى الجانب الآخر فقد تشجّع الحاج شلبي، وقال للأستاذ حسن:

- وأنا أيضًا يا أستاذ حسن أنتهز هذه الفرصة وأطلب وساطتك عند الأستاذ جعفر شعلان من أجل ميراث أخته أم ميسرة عنده.

فضحك الأستاذ حسن وقال:

- أنا تحت أمرك.. سأحدثه في ذلك ولا تقلق.

واتصل الأستاذ حسن بجعفر شعلان، فأخبره جعفر أنه سيهاتفه في المساء ردًا على طلبه، وذهب جعفر وتحدث مع زوجته ريهام هانم فغضبت كثيرًا أن طلب الحاج شلبي ذلك، فعاد جعفر للأستاذ يخبره بأنه سيعطي الحق لأصحابه في الصيف، فعاد الأستاذ وأبلغ الحاج شلبي بذلك، فشكر للرجل مسعاه.

ومرّت شهور أخرى حتى كانت الأيام الأخيرة لحمزة بالمدرسة قبل قدوم الإجازة الصيفية.. كان حمزة قد أسرع خارجًا من فصله للفسحة وسط زملائه، وبينما كان يهبط السلم من الدور الثالث إلى الفناء بأسفل فإذا بزميل له ينظر له بسخرية وازدراء قائلاً:

- ألم أقل لك من قبل: لا تمش بجواري؟

- أنا لم أقصد أن أمشي بجوارك.. ثم إني حر أمشي في أي مكان.

فقال زميله غاضبًا:

- أنت قتلت أخاك وصاحبه.. ولذلك فإن كل الأولاد يخافون منك.

فغضب حمزة وقال له:

- ربنا يسامحك.

وكان زملاء كثيرون لهما قد تجمعوا حولهم يضحكون ضحكات ساخرة من حمزة وسط غمغات معتادة منهم تجاهه، فقال لهم حمزة:

- ربنا يسامحكم كلكم.

فجاء ولدٌ من الخلف ودفع حمزة من ظهره على السلم فتدحرج بجسده ساقطًا على درجات السلم سقطات خطيرة انتهت بارتطام رأسه بجدار سور السلم، فسالت الدماء منه مع بعض الخدوش والكدمات.

وجاء الحاج شلبي مسرعًا باتصال من معلمة الرسم مروة، وأخذ ابنه مسرعًا إلى المستشفى، فاطمأن على أنه لم يُصَبْ بنزيف داخلي، ثم ذهب في اليوم التالي إلى المدرسة فحكى له بعض الأولاد ما حدث، وأراد مدير المدرسة معاقبة كل مشرفي ومشرفات هذا اليوم الدراسي المسؤولين عن

أمان التلاميذ، لكن الرجل طلب منه ألا يعاقب أحداً، وأنه قد سامح الجميع.

وفي البيت راح حمزة يبكي كثيراً بسبب هذه المعاملة القاسية من زملائه له، وكعاداته في مثل حالته تلك أراد أن يرى صور أمه معه على هاتفها المحمول، وكان قد مرَّ وقتٌ طويلٌ لم يفعل فيه ذلك، فقد كانت آخر مرة أمسك بهاتف والدته عند المصرف يوم جاءت المرأة المُقنَّعة ذات القفازين، وطلبتُ منه أن يفعل ما فعل.

ذهب الطفل إلى المكان المعتاد بحجرته الذي كان يضع به الهاتف فلم يجده، فخرج للست سامية ليسألها عنه، فأخبرته أنها لا تعرف مكانه، ثم جاء أبوه فسأله عن الهاتف فأخبره أنه لا يعرف مكانه، وجلس الطفل بحجرته يتذكر ويتساءل: (أين هاتف أمي؟)، وفجأة تذكر أنه كان قد رماه وسط الغاب على شاطئ المصرف عندما كان يصور نفسه مع الزرع خلفه ثم جاءت المُقنَّعة فارتبك ورماه، ثم نساها هناك مع قسوة ما مرَّ به.

وعاد فذهب مسرعاً إلى أبيه وأخبره بما تذكره، فذهب أبوه بصحبته إلى شاطئ المصرف، وبحثا، ووجداه بالفعل، وكان بالقطع مغلقاً، فقد نفذت بطارية الشحن.

وفي البيت أعاد الطفل شحنه، وفتح له ليرى صورته مع أمه التي اشتاق لها، وكان أبوه الحاج شلبي يجلس بجانبه، فأراد أن يرى صور زوجته المتوفاة،

وهنا انتبه الرجل لشيء غريب، فلقد رأى آخر ثلاث صور بالهاتف ليست
لزوجته، لقد كانت لامرأة ترتدي نفس ثياب زوجته، لكنها تغطي وجهها
بقناع، وفي يديها قفازان، وتلبس في قدميها حذاء غريباً مختلفاً لم يرَ زوجته في
حياتها تلبسه أبداً.

فسأل طفله مستغرباً بأسئلة كثيرة متتابعة:

- يا حمزة.. آخر ثلاث صور هذه ليست لأمك.. صور من تلك؟..
وما الذي أتى بها إلى هنا؟.. ولماذا تخفي وجهها؟.. وأين تمّ تصوير تلك
الصور؟.. أليس هذا المكان عند المصرف؟

ونظر حمزة إلى الصور وصاح صيحة عالية مفاجئة:

- هي هي.. تلك هي المرأة المجرمة عند المصرف.

فانزعج أبوه وقال يسأله باستغراب:

- أهى التي حاولت خطفك؟

- نعم هي.

- وكيف جاءت صورها تلك إلى هنا؟

- كان التليفون معي فصورتها دون أن أقصد ثم رميته وسط الغاب.

وأسرع الحاج شلبي فاتصل على الفور بالأستاذ حسن، وأخبره بأمر
الهاتف والصور وثياب المرحومة، فاتصل الأستاذ حسن بعمر الدالي، واتجهها

على الفور إلى بيت الحاج شلبي في الزيدية، ورأيا صور المرأة المُقنَّعة ذات القفازين، فتأكد الاثنان من صدق كلام الطفل، وأنَّ الأمر لم يكن حلماً كما ظنَّا أخيراً، كما أنه لم يكن مجرد خطف كما يعرف أبو حمزة، وراحا يسألان الأب إن كان يعرف تلك المرأة صاحبة الصور الثلاثة في الهاتف فقال لهم:

- وكيف أعرفها؟.. إنها تغطي وجهها ويديها.

فأسرع الأستاذ حسن سائلاً:

- والثياب التي ترتديها والقفازان والحذاء بقدميها.. هل هي للمرحومة زوجتك؟

فقال الحاج مسرعاً:

- الثياب فعلاً ثياب زوجتي المرحومة.. أنا أتذكرها جيداً.. فقد أهداها لها أخوها جعفر.. وكان لزوجته ريهام هانم ثياب تشبهها تماماً.

فنظر الأستاذ حسن وعمر الدالي لبعضهما، وسأل عمر:

- والقفازان.. هل هما للمرحومة؟

- القفازان غير واضحين.. والحذاء ليس حذاءها.

- وهل ثياب المرحومة كلها موجودة هنا بالبيت؟

- بعض الثياب أخذتها وعد أختي.. وبعضها هنا في البيت.

فقال الأستاذ حسن:

- وتحديدًا.. هذه الثياب التي ترتديها المرأة.. أين هي؟
- لا أعرف.. لكن يمكنني أن أسأل وعد إن كانت عندها أم لا.

فأسرع الأستاذ حسن يقول:

- لا طبعًا.. لا تسألها.

وهنا سأل الحاج شلبي في حيرة:

- فيم تشكان؟.. أشعر أنكما تخفيان شيئًا عني.

وأعاد الأستاذ حسن وعمر النظر لبعضهما، وكان الأستاذ حسن قد أتى معه بإحدى فردتي القفاز التي كانت بجيب حمزة، والتي كان يحتفظ بها.. أخرجها من جيبه وأعطائها للحاج شلبي في حين قال عمر:

- هذا أكبر دليل على أن ابنك حمزة صادق يا حاج شلبي.. ففردة القفاز هذه تطابق جدا القفازين بيد المرأة في الصورة.

فقال الحاج شلبي متعجبًا:

- أنا لا أفهم شيئًا

فقال الأستاذ حسن في ثقة:

- نحن نشكُّ في أن هناك امرأة لبست ثياب المرحومة.. وهي من كانت تحاول خطف حمزة وقتله.. وغالبًا هي نفسها التي وضعت الرصاصات بالمسدس.. أو أن واحدة من نساء البيت ساعدتها.

وأَسْرَعَ الحاج شلبي يقول منفعلًا في تأثّرٍ واضحٍ:

- مِنَ البداية وأنا والله أشعر أنّ الموضوع وراؤه جريمة.

قال الأستاذ حسن:

- أخبرنا حمزة أنه بدون أن يقصد نزع فردة القفاز هذه مِنْ يدها.

وأَسْرَعَ عمر الدالي يقول:

وهذا معناه أنّ الفردة الثانية مع الجريمة.. آه لو نجدها.

فقال الحاج شلبي في لوعة:

- يا حبيبي يا حمزة.. يا حبيبي يا ميسرة.. مَنْ فعل بكما كل هذا؟.. ولماذا؟

وعاد الأستاذ حسن ينظر إلى حذاء المرأة في الصور، ثم قال:

- لكنني أرى أنّ هذا الحذاء هو أكثر شيء قد يقودنا إلى المرأة المجرمة.

وراح الحاج شلبي يردد في حسرة:

- ياااارب أنت المعين.. ياااارب أنت المعين

فقال له الأستاذ حسن:

- الصبر جميل يا حاج.. ربنا عادل وحكيم لا تضيع عنده الحقوق.

وأَسْرَعَ عمر يسأل:

- وهل سنخبر الضابط هشام عطية بذلك؟

فأجابه الأستاذ:

- ليس الآن.. فلنصبر قليلاً على ذلك.

ونظر الأستاذ حسن للحاج شلبي وقال له:

- عليك يا حاج شلبي أن تحفظ شكل هذا الحذاء جيداً.. وإن رأيت امرأة تلبسه فلتخبرنا فوراً.

فقال الحاج شلبي مازحاً وسط غضبه:

- هذا شيء بسيط.. والله لو طلبت مني يا أستاذ أن أجمع لك كل أحذية نساء الزيدية لفعلت.

وضحك الجميع، وقال الأستاذ حسن:

- بل يكفي ثلاثة فقط.

- من الثلاثة؟

- أختك وعد والست سامية وأختها هيام.. لكن لا بد أن يتم ذلك في سرية تامة.

قلها الأستاذ حسن، فقال الحاج شلبي:

- لا تقلق.

فقال الأستاذ مؤكداً عليه:

- وأريدك أن تبحث في ثياب المرحومة لتعرف إن كانت تلك الثياب الموجودة في الصور عندك أم أنها عند أختك وعد.

- حاضر يا أستاذ حسن.. لا تقلق.. هذا أول ما سأفعله.. ولكن ماذا لو كانت الثياب موجودة في مكانها عندي؟

فقال الأستاذ حسن بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

- سيكون هناك احتمالات كثيرة ليس هناك داعٍ لذكرها الآن.

واستأذنهم الحاج شلبي خارجاً إلى الصالة الكبيرة ليتعجل الشاي لهم، ففوجيء بالست سامية خلف الباب تحمل الشاي للرجال، وتقف منصتة لما يقولون، فنظر لها ولم يتكلم، إنما أخذ منها الشاي وأغلق الباب خلفه ثم قال يحدث نفسه:

- هل يُعقل أن تكون سامية تلك هي المجرمة؟!.. ماذا يحدث في الدنيا يا ناس؟

وسأله عمر:

- مَنْ يبيت معك يا حاج شلبي بالبيت غير حمزة؟

- أنا وحمزة فقط.. الست سامية تأتي من طلعة الشمس وتنصرف مع المغرب.. وأحياناً تأتي أختها لتساعدنا عندما يكون عندي عمال في الأرض.. فيبيتون هنا لتجهيز الأكل.. أما أختي وعد فهذا بيتها.. ولذلك فهي تأتيه في أي وقت ليل أو نهار.

فابتسم الأستاذ حسن قائلاً:

- إن شاء الله ستظهر الحقيقة قريباً يا حاج.

- معقولة!.. وهل يمكننا معرفة الحقيقة وسط كل هذه الظلمة؟!

- يا حاج لا تقلق.. فالحقيقة مثل القمر المنير.. وإن غطته الغيوم لفترة

فإنه يعود ويسطع.

قال ذلك الأستاذ حسن ثم وقف فوق عمر، وانصرفا منتظرين اتصالاً من الحاج شلبي في أي وقت ليخبرهما بأي جديد عما طلباه منه، وبالفعل في عصر اليوم التالي جاء الاتصال المنتظر من الحاج شلبي للأستاذ حسن.. قال وهو في حالة غريبة أثارت قلق الأستاذ حسن عليه:

- أستاذ حسن.. لقد اقتربت من الجريمة.

- كيف؟

- فقط شيء بسيط سأعرفه الليلة وبذلك أكون متأكدا أنها هي.

- إذا أشركني معك.. ماذا ستفعل؟.. ومن هي؟

- دعني فقط أتأكد من شيء يا أستاذ.. وهي غالباً واحدة منهم.. الدليل

معي وسأخبرك غداً بها.

فأسرع الأستاذ حسن يسأله:

- إذا أخبرني بما ستفعله؟.. أنا قلق عليك.

- لا تقلق.. سأغلق الآن.

- كما تريد يا حاج.

- أريدك فقط أن تأتيني مع أول طلوع للشمس لو سمحت يا أستاذ.

- حاضر.. ولكن كنت أتمنى أن تشركني معك.. أريد أن أطمئن عليك يا حاج شلبي.

- اطمئن.. لكن لا تنس.. مع طلوع الشمس سأنتظرك.. سلام الآن.

وفي منتصف الليل كان الحاج شلبي قد عرف من تكون المرأة المجرمة المُنقّعة، وإذا به يسرع لطفله حمزة في حجرته وهو يحمل في يده كيسًا بلاستيكيًا لونه أزرق، وبدخله أشياء، فحاول أن يوقظه ليخبره بما وصل إليه، لكن حمزة كان مستغرقا في النوم، فتركه نائمًا وجلس على سرير ابنه المرحوم ميسرة يفكر فيما يجب أن يفعله.

وظلّ على ذلك إلى أن اهتدى إلى أن يتصل سريعًا بالأستاذ حسن ليخبره بما وصل إليه، وأسرع فاتصل لكن هاتف الأستاذ كان مغلقًا، فذهب وأتى بورقة وقلماً وكتب شيئًا، ثم أسرع ناحية الدولاب الخاص بميسرة وأخفى الكيس الأزرق فيه بين طيات ملابسه وبه الورقة، ثم خرج مسرعًا عائدًا إلى حجرته وهو يتلفت حوله بكل مكان بالبيت، ويتربّخ خائفًا لأول مرة في بيته.

الفصل الثامن

قبل شروق للشمس..

استيقظت الزيدية على أصوات صراخ صادرةٍ من ناحية بيت الحاج شلبي، فأسرعتُ جموعٌ غفيرةٌ من أهل البلدة ناحية البيت، وأولهم الجار والصديق السيد المتولي الذي وصل فوجد أخته وعد والست سامية وأختها هيام وامرأة رابعة تقفن بالمكان الواسع أمام البيت.. جميعهن كنَّ يصرخن حول جثة رجلٍ كان غارقاً في دمائه.. كان الحاج شلبي الجارحي.

وانكبَّ السيد المتولي على جاره وصديقه باكِياً فرعاً مذهولاً، فوجده قد فارق الحياة، فراح يصرخ ويتحب على صديقه كما تتحب النساء، ثم توجه إلى المرأة الرابعة التي يبدو أنه يعرفها جيداً، فسألها:

- مَنْ فعل ذلك يا ست شيرين؟

فأجابت الست شيرين قائلة بهدوء:

- ومن غيره؟

فعاد الرجل يسأل:

- من تقصدين؟

فلم تُجب الست شيرين، إنما أجابت وعد وهي تبكي:

- حمزة.

وقعت الكلمة على أذن السيد المتولي موقعًا صادمًا، وأسرع على الفور
يسأل:

- كيف حدث ذلك؟

- هذا ما حدث.

- وأين حمزة؟

فقالت هيام أخت الست سامية:

- لا نعرف.. إنه اختفى فجأة.

فسأل الرجل في غرابة:

- وكيف قتله؟

فأجابت الست سامية:

- ببندقية الحاج.

فراح الرجل يردد في ذهول شديد:

- كيف؟.. كيف؟

ولم تجب أية واحدة منهم، فراح يسأل:

- وأين البندقية؟

فأجابت الست شيرين:

- لا أعرف.. كانت هنا.

وهنا قالت وعد:

- البندقية معي.. أخذتها من يده، وأسرعْتُ ووضعتها بحجرة الحاج

وأخذتُ همهمات الناس تملأ المكان وهم يصبون كل الغضب على الطفل حمزة، ويستعيدون الحادث السابق يوم قتل أخاه وصاحبه أسعد، ويستعيدون بالله منه كما لو كان شيطانا رجيمًا، ويتساءلون:

- (أين هو؟)

وأراد بعضهم الدخول إلى البيت، فلعله أسرع واختبأ بحجرتة، ولا بد من كسر باب الحجرة عليه وتسليمه إلى الشرطة، فمنعهم الجار السيد المتولي، وأدخل النسوة وأمرهن بغلق باب البيت عليهن وعدم السماح لأحد بالدخول،

ثم جاءت ابنته مروة، وهمست في أذنه أنَّ حمزة عندهم بالبيت، وقد خبأته بحجرتها عندما أسرع لها خائفاً من أن يتعرض لخطرٍ داهمٍ من هؤلاء الذين أسرعوا مع تردد الصراخ لإلحاق الأذى به.

وكان الأستاذ حسن وعمر الدالي قد وصلا بسيارة الأستاذ إلى الزيدية، فلفت نظريهما حركة غير طبيعية للناس فيها، فأوقفا السيارة جانباً، وأطلَّ عمر من نافذتها يسأل الناس عن هذا الأمر الغريب، فجاءهما الجواب على الفور أنَّ هناك حادثَ قتل بالبلدة، وأنَّ القتل هو الحاج شلبي الجارحي، والقاتل هو نفس القاتل السابق منذ تسعة أشهر تقريباً، إنه الطفل حمزة.

وكاد عقلا الزائرين عند سماع ذلك يُصابان بالجنون من هول ما سمعا، وأسرعَا إلى بيت الحاج شلبي، فوجدا الجموع عند البيت تردد نفس الكلام عن حمزة، فاتجها ناحية جثة الحاج شلبي في الوقت الذي كانت أصوات سيارة الإسعاف تقترب شيئاً فشيئاً من البيت، واقترب الجار السيد المتولي منهما والحزن يكتنفه، فسأله الأستاذ حسن وهو ينظر إلى الجثة:

- ماذا حدث؟

- كما ترى يا أستاذ.

فراح الأستاذ يهمس له:

- لماذا يؤكد الناس في القرية أنَّ حمزة هو القاتل؟

فأجابه السيد المتولي:

- هذا ما قالت النساء.

فسأل عمر:

- وأين حمزة؟

فاقترب السيد المتولي وهمس بجانب الاثنين:

- إنه مختبئ في بيتي.. ولم أخبر عنه أحدًا هنا.

فقال الأستاذ حسن:

- خيرًا فعلت.

وأراد الأستاذ حسن أن يتحدث إلى حمزة سريعًا قبل قدوم الشرطة، فرافقه السيد المتولي على حين غفلة من الجموع الحاشدة، وأدخله إلى الطفل ومعه الكاتب عمر الدالي.

دخل الأستاذ حسن حجرة مروة، فوجد الطفل جالسًا على الأرض منزويًا حزينًا باكيًا خائفًا من أن تصله الناس حتى نجبأه هذا، لكنه ما إن رأى الأستاذ حسن حتى أجهش في بكائه وأخذ يردد بلوعة وحسرة:

- (أبي مات.. أبي مات.. قتلوه.. قتلوه)

فجلس الاثنان بجواره على الأرض والحزن على الطفل يملكهما، وراح الأستاذ حسن يربت على كتفه ويمسح على شعره ووجهه ويقول له:

- من الذين قتلوه يا حمزة؟.. إن كنت تعرف شيئًا فاحك لنا سريعًا ما

تعرفه.

فانخرط حمزة يخبرهما والدموع تنهمر من عينيه بأنه كان نائماً عندما سمع صوت طلقة البندقية قادماً من خارج البيت، فقام مفزوعاً إلى الخارج، فوجد أباه طريح الأرض غارقاً في دمائه والبندقية بجواره، فارتقى عليه يبكي ثم أمسك بالبندقية غائباً عما حوله في نفس الوقت الذي استدار فيه، فوجد خلفه عمته وعد والست سامية وأختها هيام والست شيرين، وجميعهن تصرخن وترددن دون توقف:

- (قتلت أباك يا حمزة كما قتلت أخاك.. أنت لست طفلاً طبيعياً.. أنت شيطان.. أنت شيطان).

وسأله الأستاذ حسن:

- ومن الست شيرين تلك؟

فتردد الولد قليلاً ثم قال:

- هي زوجة أبي وأم أسامة.. كان أبي قد طلب مني ألا أخبر أحداً عنها.

وسيطرت حالة من الذهول على الرجلين، ثم سأل عمر:

- وهل أسامة هذا أخوك؟

فأجاب حمزة:

- نعم هو أخي من أبي فقط.

- هل تعرف كم عمره؟
- هو طفل صغير يزحف.. لم يمش بعد.
- وسأله الأستاذ حسن:
- وهل تسكن الست شيرين هنا ببيتكم؟
- هي تعيش في شقة لنا في أوسيم.. وأبي يزورها هناك.
- ولكن هل من عاداتها أن تأتي لبيتكم في الصباح الباكر هكذا؟
- كان عندنا اليوم أنفاز في الحقل.. فأتين جميعهن لتجهيز الطعام.
- واستدار الأستاذ حسن لعمر وسأله:
- كيف ظهرت لنا تلك المرأة هكذا فجأة؟!
- عندما سألت أصدقائي عن النساء في البيت.. لم يخبرني أحد عنها أبدًا..
- مؤكد أنه زواج في السر.
- لكن من المؤكد أن السيد المتولي صديق الحاج يعرف كل شيء عن هذا الزواج.
- الموضوع تعقد جدًا يا أستاذنا.. وكم يحزنني ما يحدث لهذا الولد!
- مسكين والله حمزة.. لكننا بعون الله سنعرف كل شيء وسنكشف هؤلاء المجرمين آجلًا أو عاجلاً.

- الطمع داء قاتل يجعل صاحبه يرتكب كل الجرائم ولا يبالي.
- معك حق.. لكن هو عهدٌ عليّ يا عمر ألا أترك حق هذا المسكين يضيع.. أنا معه للنهائية.

- وأنا معك في كل خطوة يا أستاذنا.

وكانت سيارات الشرطة قد سُمع صوتها بالخارج تقترب شيئاً فشيئاً، فقال الأستاذ حسن هامساً لعمر الدالي حتى لا يسمعه حمزة:

- الشرطة جاءت.. ومن مصلحة حمزة أن تأخذه الشرطة لنبعده عن هذا البيت الملعون ثم نفكر فيما يجب أن نفعله من أجله.

وبالفعل فقد خرج الأستاذ حسن وعمر وذهبا إلى رجال الشرطة، وأخبراهما أن حمزة موجود ببيت الجار، وطلب الأستاذ حسن منهم أن يترفقوا بالطفل، فوعده بذلك، وذهبوا وأخذوا الطفل الذي راح يبكي ويتشبث بثياب الأستاذ راجياً منه ألا يتركه لهم، وينظر له نظراتٍ تطلب منه الرحمة والعطف والنصرة، لكن لم يكن أمام الأستاذ إلا الصمت، فوقف والدموع تخلط نظراته الخزينة الرفيقة بالصغير، بينما أخذه رجال الشرطة، وذهبوا به وسط نظرات الجموع الغفيرة، وكلها بالطبع كانت ساخطة على الطفل القاتل كما يرونه.

واتصل الأستاذ حسن فور مغادرتهم المكان بالخال جعفر شعلان ليخبره بما حدث، فأصاب الثاني الذهول، ولم يصدق في البداية، ثم أتى ومعه

زوجته ريهام هانم وابنتهما ريم، وجلس الجميع يتحدثون في ذهول وحيرة عما حدث لهذا البيت فحطم أركانه وخرَّب الحياة فيه خلال عشرة أشهر تقريباً، ثم قطعوا حيرتهم تلك وتساؤلاتهم واستداروا يتحدثون عن طقوس الجنازة والدفن والعزاء.

وبعد الانتهاء من تلك الطقوس المحزنة المؤلمة اتصل الأستاذ حسن بالضابط هشام عطية، وكان في إجازة، فذكر له عبر الهاتف اختصاراً لما حدث، وطلب مقابله على وجه السرعة إن أمكنه ذلك، فكان اللقاء ببيت الخال جعفر شعلان في أوسيم.. قال الضابط بعد أن سمع الجميع:

- ساحموني يا جماعة لأنني مضطر أن أقول لكم: إن طبيعة عملي عودتني ألا أترك أحداً أو شيئاً خارج حدود شكّي.. لذلك فربما كان حمزة هو القاتل فعلاً في المرتين.. ودون قصد.

فقال الخال جعفر شعلان:

- معقولة؟! -

وأسرع الأستاذ حسن يقول:

- لا طبعاً.. أنا أثق في أن حمزة مظلوم في المرتين.

فقال الضابط بنبرة أسف وحزن:

- يحزنني أن أخبركم أن الولد سيوضع في الأحداث.

فقال الخال مسرعًا:

- ولماذا الأحداث؟.. أنا سأخذه عندي هنا بالبيت.

فقال الضابط بنفس نبرة الأسف:

- الموضوع صعب.. صعب جدًا.. فهناك شهود رأوا الطفل ممسكًا بالبندقية.. والكل سيتعامل معه على أنه القاتل.. وسواء بعمد أو غير عمد لا بد أن يوضع في الأحداث.. الأمر في هذه المرة خارج حدود استطاعتي.

فالتفت الخال جعفر إلى الحاج السيد المتولي وسأله:

- وهل هناك أحد رأى حمزة يصوب البندقية على أبيه ويقتله يا حاج سيد؟

أجاب الرجل في حزن:

- ما أعرفه أن النساء أجمعن على رؤيتهن للولد ممسكًا بالبندقية بعد سماع صوت الطلقات.

فأسرع الكاتب عمر الدالي يقول بغضب:

- شيء محير ومضلل جدًا عندما يكون المشتبه به هو نفسه الشاهد.. بالطبع ستضع النساء الولد بها من أجل إبعاد التهم عنهن.

فقال الأستاذ حسن مشيرًا لعمر:

- اصبر يا عمر.. وكل شيء سيظهر.

وبينما همّ الضابط هشام يريد الانصراف، فإذا بالأستاذ حسن يطلب منه الانتحاء به جانبًا ليقول له:

- هناك أمر مهم يجب أن تعلمه يا هشام بك.

- ما هو يا أستاذنا؟

- الحاج شلبي اتصل عصر اليوم السابق ليوم قتله وأخبرني أنه على وشك أن يعرف مَنْ هي المرأة المُقنَّعة عند المصرف.

فأسرع الضابط يسأل:

- ماذا قال أيضًا؟

- ألححتُ عليه كي يخبرني بكل شيء.. ولكن للأسف لم يخبرني.. وطلب مني أن آتيه في الصباح الباكر.. ولما وصلتُ هنا وجدته مقتولاً

فقال الضابط مستغربًا:

- هذا أمر غريب جدًا.. لماذا لم يخبر حضرتك في التليفون بما يعرفه؟

- لا أعرف غير أنه كان متوترًا جدًا.

- ما هذه الحيرة؟!

- فعلا حيرة.. لكن ماذا سنفعل الآن يا هشام بك؟

- لنصبر الآن قليلاً يا أستاذنا.. وكل شيء سيظهر.

فسكت الأستاذ حسن ثم قال بعد تردد:

- هناك اشتباه جديد في امرأة أخرى.

- هل تقصد الست شيرين زوجته في السر؟

- نعم هي يا هشام بك.

- معك كل الحق.. لا يريحني وجود هذه المرأة فجأة هكذا.

- كل شيء يصير أكثر غموضاً.. ويبقى أن حمزة هو الخاسر الوحيد.

وتمَّ إيداع حمزة في دار رعاية الأحداث بالمرج بالقاهرة، حيث لم تفلح أية محاولات لمنع ذلك، وجاءت الست شيرين بابنها أسامة إلى البيت الواسع، فخرجت بذلك من السر إلى العلن، ومن الظلمة إلى النور، ومن الشقة الضيقة الصغيرة في أوسيم إلى البيت الواسع والحقول الكثيرة والثروة والميراث الوفير في الزيدية.

وبالطبع فقد أظهرت وثيقة زواجها الشرعي بالحاج شلبي لكل من أراد أن يراها أو بدأ يشكك في حقيقة زواجها من المرحوم، كما أظهرت شهادة ميلاد طفلها أسامة شلبي أحمد الجارحي لكل هؤلاء المشككين والمشككات، وأولهم أخته وعد التي اشتعل قلبها بغضاً وكرهية لهذه الزوجة السرية.

وبالطبع كان الشاهد الأول على هذا الزواج هو الجار والصدیق السید المتولی، وكان هو أول مَنْ ذهب إلیهم المهندس مهدي زوج الأخت وعد لیتقن من حقيقة هذا الزواج، فأكد له الجار أنها زوجته بالفعل، وأنَّ الطفل أسامة هو ابنه ووراث ملكه كحمزة تمامًا.

وكانت وعد قد انتقلتُ بابنها وابنتها إلى البيت الكبير دون تردد، فهو بیت أبيها وأمها كما هو بیتٌ للحاج شلبي، ولها حقوق به وبالحقول الواسعة الكثيرة التي لم تأخذها، وهذا جعلها لا تتوانى في فعل ذلك.. فعلته منذ اليوم الرابع بعد دفن جثة الرجل، بل إنها كانت قد احتلتُ أفضلَ غرفٍ بالبيت قبل أن تنتقل شیرین بابنها إلیه.

لكن الجار السید المتولی أراد أن يحفظ حق الطفل حمزة الملقى بدار الأحداث ، فاتصل سريعًا بالخال جعفر شعلان وبالأستاذ حسن غراب، فأتيا على الفور ليحددوا كلَّ شيءٍ ويحفظا حقوق الغائب، ومنها أن فرضا على المرأتين الأخت والزوجة ألا تدخلتا حمزة وأخيه المرحوم ميسرة، بل وأغلق الرجال الحجرة على أغراضها وأثاثها بقفل لا يمكن فتحه إلا بمعرفة الشرطة وحمزة عندما يخرج من الأحداث، وبذلك أغلقتُ الحجرة على حل كل هذه الألغاز التي توجد بداخل الكيس البلاستيكي أزرق اللون، تلك الحجرة التي تحوي داخلها اسم تلك المرأة المجرمة المُقنَّعة ذات القفازين بحذائها وبصورها الثلاثة التي التقطها الهاتف دون قصد، وتحوي أيضًا أدلة أخرى.

وبالطبع فقد دبَّت الخلافات اليومية بين الوريثتين، ولكن بالطبع فإنَّ الكفة الغالبة كانت في جانب الزوجة الشرعية الست شيرين أم الرضيع أسامة، والتي ظهرت هكذا فجأة من خلف كل تلك المصائب والأحداث لتسكن البيت وترث الثروة، ولكَ الله يا حمزة.

وكان أكثر الناس حيرة وعجبًا وإحساسًا بمأساة حمزة هو الأستاذ حسن غراب.. قضى أياما طويلاً يفكر فيما حدث، ويفكر فيما أخبره به الحاج شلبي قبل قتله بساعاتٍ بأنه على وشك أن يعرف المرأة المُقنَّعة المجرمة بالدليل.. ظلَّ يتساءل كثيرًا:

- (هل كان الحاج شلبي صادقًا فيما ذكره في اتصاله بأنه على وشك الوصول للمجرمة؟.. وهل استطاع أن يعرف المرأة المجرمة قبل أن يُقتل؟.. هل توصل إلى دليل؟ أم لم يكن صادقًا في كل ذلك؟.. يا إله العالمين!.. كيف آل الأمر بهذا البيت إلى هذا المآل الحزين المحير العجيب؟)

لكن ماذا عن سامية وأختها هيام؟.. بالطبع لقد تركت الست سامية الخدمة بهذا البيت إلى بيتٍ آخر بغير رجعة، ونتج عن ذلك بالطبع أن انقطعت خطوات أختها إلى هناك، ومع ذلك فلم يبعدها خارج دائرة الاشتباه ليبقى أربع نسوة داخل تلك الدائرة: الأخت وعد، والزوجة السرية الست شيرين، والست سامية، وأختها هيام.

فهل تكون إحداهن هي المرأة المُقنَّعة أم أنَّ هناك أخرى هي التي فعلتْ فعلتهما في المرتين ومع ذلك ظلَّت بعيدة خفية في ظل أمان صنَّعته لنفسها بكل ذكاء؟.. لكن كيف لا تكون المُقنَّعة واحدةٍ من الأربعة وقد حرصن جميعاً على أن يُظهرن حمزة كما لو كان هو القاتل؟.. يا إلهي!.. هل واحدة منهن هي مَنْ حملتْ البندقية وصوبتها تجاه الحاج شلبي وقتلته ثم ألصقتْ الأمر بحمزة؟.. لكن هل تستطيع امرأة بمفردها أن تُخطِّط لكل ذلك وتفعله وحدها؟.. ربما كانت وحدها.. وربما هناك من الرجال مَنْ حرصها أو عاونها.. ربما.. وربما هناك أخرى خامسة.. ربما.



الفصل التاسع

وصل الطفل حمزة إلى المؤسَّسة العقابية بالمرج، ولم تفارق الدموع عينيه البريئين خلال الطريق الطويل داخل عربة الترحيلات، ولم يترك الحزن قلبه الطاهر أو يكف عن أن يفكر في المرحومة أمه وفي أخيه وأبيه الراحلين فجأة في غموض فاقت الحسرات المصاحبة له كل مآسي الدنيا وأوجاعها.. إنه لم يعتمد قتل أخيه أبدًا بهذا المسدس الذي تمَّ التلاعب به، ولم يحمل هذه البندقية إطلاقًا في وجه أبيه ليطلق عليه رصاصها فيقتله كما قيل.

وصار الطفل اليتيم حدثًا ضمن دار الأحداث تلك ونزيلاً بها دون أب أو أخ أو أم يعلم أنهم سيزورونه تكرارًا ليخففوا عنه وحشة وغربة المكان، جاء هنا لكي تُقَيَّد حريته وتُبتَر أحلامه الجميلة وهو الذي كان حرًا طليقًا تغرد نفسه البريئة بكل الأمان العذاب، ويحمل قلبه مشاعر الحب والتسامح لكل الناس.

ترك الطفل حمزة مرغماً رحابة الدنيا الشاسعة إلى ضيق القيد والأسر لطفولته وصباه بمكانٍ تحوطه تسعةٌ من أبراج المراقبة موزعة على امتداد السور الذي يأسره بداخله، ويصلُّ ارتفاعه إلى خمسة أمتار، ويوجد له بوابتان، بوابة عمومية، ويتمُّ من خلالها دخول الزيارات وعربات الضباط، وتوجد غرفة للأمن على يمين هذه البوابة، بها شاويش واثنان من المجندين للحراسة، وبوابة أخرى يدخل منها الداخلون الجدد للعقاب، ومنها يخرجون.

وقف الطفل الحدث صامتاً أمام أحد الأخصائيين الذي راح لدقائق يتفحصه بحذر وتخوف رغم هذا البون الجسيم البائن بين جسده الضخم المترهل وجسد حمزة الصغير، ثم نطق الرجل متوجساً بلسانٍ لا يرحم، وعينين تنطقان بالقلق من طفل:

- أنت الذي قتلت أباك وأخاك وصاحبه؟

فنطق حمزة بكل حزن وبراءة وهدوء:

- نعم قتلتُ أخي وصاحبه دون أن أقصد... أما أبي فلم أقتله.

فنظر إليه كل من في المكان متعجبين من هدوئه واتزانه رغم حزنه الذي يكتنفه، وحذرين منه كحذر الأخصائي الضخم، ثم جاء اثنان من الموظفين وأخذاه من يديه دون كلام ودون رفقٍ إلى أحد العنابر.

وعدد العنابر في هذه المؤسسة العقابية أحد عشر عنبراً، تسعةٌ منها لإقامة النُّزلاء المحكوم عليهم بعقوبة مقيدة للحرية، والعنبر العاشر مخصص

للمودعين في المؤسّسة على ذمة التحقيق في القضايا التي تمّ اتهامهم بها، كما يضمُّ النّزلاء الجدد المحكوم عليهم فعلاً، فيقضون به أسبوعاً، ثم يُعاد توزيعهم على العنابر الأخرى، وهذا ما حدث مع القادم الجديد الطفل حمزة شلبي أحمد الجارحي، أما العنبر الحادي عشر فهو عبارة عن مطبخ لتناول الطعام، هذا بالإضافة إلى مبنى منفصل عبارة عن دورين للإدارة، وورش لإصلاح العربات الخاصة بالضباط، ومبنى للزيارة، وغرفة للتأديب، وملاعب للتريض لا تُستخدم إلا نادراً خاصة عند زيارات المسؤولين.

والعنبر عبارة عن مستطيل طوله خمسون متراً، وعرضه ستة أمتار، وارتفاعه يقترب من ستة أمتار أيضاً، ويوجد بابٌ رئيسي للعنبر يُغلق في تمام الساعة الخامسة بعد التيقن من تواجد كل النّزلاء، وفي أحيان كثيرة لا يُسمح للنّزلاء بالخروج من العنبر طوال اليوم.

وبكل عنبر ستّة وثلاثون سريراً مقسّمةً على مجموعتين، كل منها ثمانية عشر، بينهما باب مشترك، وكل عنبر مجهز لكي يستوعب ستة وثلاثين نزيلاً، وفي حالة الزيادة عن العدد المحدّد يتمّ وضع نزيلين على سرير واحد عند النوم كما حدث مع حمزة في أول شهر قضاؤه في هذا المكان الجديد.

وكل مجموعة أسرة يوجد على امتدادها ثماني نوافذ، وكل نافذة امتدادها الرأسي متر والأفقي متران، ولا يوجد بها شيش أو زجاج مطلقاً، وبالطبع يعرضهم ذلك للبرد القارص في الشتاء ولكافة أنواع الحشرات والذباب

وغيرها في الصيف، فلا شيء بالنوافذ غير أعواد حديد مفتولة تمنع سقوط أحدهم عند الشجار.

وبالطبع فإنَّ الشجار في هذا المكان هو حادثٌ يومي، لكن حمزة بحسن أخلاقه واستقامته وهدوئه منذ قَدِمَ إلى هذا المكان كان يجبر زملاءه على احترامه.. فقد حدث ذات يوم أن قال له زميله عامر المصري الذي يكبره بخمس سنوات عندما كانا يستلِّمان طعامهما:

- اترك لي طعامك.

فابتسم حمزة وقال له:

- تفضل خذه.

فأخذ عامر الطعام وسط ضحكات المحيطين وسخريتهم من حمزة قائلاً له:

- الجبن سيد الأخلاق.

فقال له حمزة باسمًا:

- ليس جبنًا والله.. فأنا أعطيه لك وأنا مسامح.. ربما أنت جائع أكثر مني

فتعجب عامر من كلامه وصبره وهدوئه وقال يسأله:

- وأنت أيها الصغير؟.. ماذا ستأكل؟

- كُلْ أَنْتَ وَكَأْنِي أَكَلْتُ.

فراح عامر يعيد في ذهنه قول حمزة الأخير: (كل أنت وكأني أكلت) فما كان منه إلا أن أرجع له الطعام، وصارا صديقين شيئاً فشيئاً مع الوقت منذ ذلك اليوم، يدفع عنه عامر كل أذى، ويقدم له حمزة كل النصائح الحسنة المفيدة بطريقة مهذبة حتى لقد بكى عامر يوم خروجه من الأحداث، فقط لأنه سيترك حمزة خلفه بها.

أجل بكى عامر، ووعد حمزة بأن يسلك في حياته بعد خروجه الطريق القويم، فهل يُعقل هذا؟.. عامر المصري هذا الذي ظَلَّتْ قلوب الأحداث بكل العنابر ترتعد عند سماع اسمه طيلة فترة بقائه بتلك المؤسسة العقابية يهتدي على يد حدثٍ صغيرٍ مسكينٍ كحمزة.. ما هذا؟!.

ويخرج عامر ويأتي غيره، ثم يخرج ويأتي غيره، وهكذا في سلسلةٍ متصلةٍ من شغب الأحداث وتهالكهم على الشجار وفرض السيطرة والسطوة والإضرار ببعضهم، وبالطبع فإنَّ هذا شيءٌ مُؤسِّفٌ، لكن يظلُّ الشيء الأكثر أسفاً بهذه الدار العقابية هو تخاذل الموظفين عند حدوث شجار وتعارك بين النزلاء، فمنهم مَنْ يتحاشى التدخل خوفاً من الإصابة، ومنهم مَنْ يتعامى، ومنهم مَنْ يسهو، وبالنهاية لا ينتج عن كل ذلك إلا أن يكون هناك خسائر وإصابات شديدة وعاهات مستديمة، وذلك لأنَّ الكلَّ هناك يتعاملون مع الأحداث كوظيفة روتينية تأتيهم بأجر يقتاتون عليه.

هذا يحدث مع أنَّ لكل عنبر رئيسًا ووكيلًا، ورئيسًا للسَّهرية، وثمانية أعضاء متطوعين، ومن المفترض أنه يتحتم على رئيس السَّهرية كأهم شيء بوظيفته الاستيقاظ ليلاً حتى الثالثة صباحاً خوفاً من وقوع الاعتداء الجنسي من النَّزلاء على البعض الآخر، ومع ذلك فهناك إهمال وتقاؤس في هذا الشأن. ويعدُّ الاعتداء الجنسي أكبر الانحرافات اليومية شيوعاً داخل أية مؤسسة عقابية بصفة عامة، إضافة إلى تعدد المشاجرات، مما يؤدي إلى تكدير وعقاب العنبر بالغلق لمدة يومين، مع ضرب القائم بهذا الفعل، وقص شعره، وإلقائه في عنبر التأديب، ويُعاقب رئيس العنبر بنفس العقاب من قص شعره، وإيداعه غرفة التأديب، ويحدث ذلك نتيجة التخاذل والتعامي وإهمال الرعاية من الإدارة العقابية على الأطفال طوال النهار، بالإضافة إلى الليل أيضاً وعدم شغل أوقات النَّزلاء بالأنشطة الثقافية والبرامج الترويجية .

وغرفة التأديب عبارة عن غرفة بمساحة مترين بعرض متر واحد بلا إضاءة، كما لا يوجد بها حمام، مما يؤدي إلى قيام النَّزلاء فيها بقضاء حاجتهم داخل الغرفة، وقد يصل عدد النَّزلاء بها إلى خمسة عشر نزيلاً تحت التأديب، ويتمُّ تقديم وجبات الطعام لهم مرة واحدة في الثامنة صباحاً، كما يُمنع النزول من الاحتفاظ بالنقود الخاصة به.

وعلى كل النزلاء الاستيقاظ من الساعة السابعة صباحاً، فيبدأ اليوم بنظافة العنبر نظافة شاملة، ويتمُّ فتح باب العنبر الساعة الثامنة، ويبدأ

النزلاء غير المعاقين بعد ذلك بالذهاب إلى المطبخ لتناول وجبة الإفطار، وهذا المطبخ مجهزٌ لاستقبال سبعمائة نزيل، ويتكون الإفطار من فول وجبن ورغيفين، هذا كل يوم عدا الثلاثاء، فيكون الإفطار حلاوة وجبن ورغيفين، ويقدم الغداء الساعة الواحدة ظهرًا، أما عن يوم الجمعة فهناك استثناءً، وذلك لأنه اليوم المخصص لإجازة الحراس والأخصائيين، لذلك فقد جعلوا النزلاء يستلمون طعام الوجبات الثلاثة مرة واحدة ليتناولوها داخل العنبر الذي يُجسّون فيه ولا يخرجون منه في هذا اليوم.

ويتم الاستحمام إجباريًا كل يوم من الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية عشر بمياه باردة في الصيف وباردة في الشتاء، وبسبب برودة المياه شتاءً يقوم النزلاء بالتحايل على الأخصائي بوضع الماء على شعرهم ثم الخروج من الحمام دون استحمام، مما يؤدي إلى ظهور حالات جرب معدية جدًا، وبالنسبة لحمزة لم يفعل ذلك أبدًا، ولم يعصِ لأي أحد من الموظفين أمرًا أبدًا.

وأما عن الدور التعليمي لهذه المؤسسة العقابية، يوجد فصل لمحو الأمية للراغبين من النزلاء بشكل اختياري، ويستمر هذا الفصل التعليمي في أداء مهمته يوميًا بدءًا من الساعة العاشرة صباحًا حتى الحادية عشرة والنصف، مع العلم بأنه لا توجد مكتبة داخل المؤسسة، ويحصل النزلاء على الجرائد عن طريق الزيارات اليومية.

وكان الحدث حمزة الجارحي يستذكر بالدار وهو حبيسٌ بها دروسه المقررة على زملائه الأحرار الذين يذهبون إلى المدرسة، وفي أوقاتٍ كثيرةٍ كان بعض الصبية ممن كان يثق في سلوكهم يساعدونه في مذاكرته مثل عامر المصري الذي علّمه القراءة والكتابة الجيدة رغم تواضع ما يعلمه عامر، وكان حمزة غالبًا يؤدي امتحاناته داخل هذه المؤسسة العقابية وقليلًا خارجها، وكان لا يزال يواظب على تفوقه ونبوغه رغم ما صارت إليه حياته إلى حالٍ لا ترضيه.

أما عن الزيارات القادمة إلى نزلاء تلك المؤسسة العقابية، فإنها تتم يوميًا عدا الجمعة، وذلك ما بين العاشرة صباحًا والثانية ظهرًا، وتمنع إدارة المؤسسة دخول الأكواب الزجاجيّة والملاعق المعدنية، ويتمّ تفتيش الزيارة جيدًا، فإنّ تمّ ضبط بعض الممنوعات ودائمًا يكون هناك ممنوعات يتمّ سجن النزّل المضبوط بشيء مخالف في غرفة التأديب بعد قصّ شعره وضربه.

وكان من أكثر ما تأذّى منه حمزة كثيرًا الترويج للممنوعات والمخدرات سرًا وعلنًا، فقد كان هناك أشياء كالبانجو والبرشام المخدر يتمّ إدخالها عن طريق الزيارة رغم تفتيشها، وأكثر ما يؤسف له قيام بعض النزلاء بشراء المخدرات من خلال جنود الحراسة أنفسهم لبيعها داخل المؤسسة للنزلاء الآخرين، مع حصول الجنود على نسبة ربح من عمليات البيع.

ها هنا في هذا المكان بين هؤلاء النزلاء مرّت السنوات الهوينى قاسية مؤلمة ظلمة للنزِيل حمزة، هذا الابن الذي كان قد صار لأبيه بعد موت أخيه ميسرة الدنيا وما فيها، ها هو يعيش الآن بين هؤلاء الأخطا من كل شكل ولون وسلوك وقد اجتمعوا داخل نفس الحياة البائسة الشقية لتبتّر حوادث الزمن من عمره وعمرهم سنوات تضع حتماً هباءً منثوراً.

مسكينٌ أنتَ والله يا حمزة.. لم تترك تلك الحوادث المتلاحقة لتحظى بقلب أبيك الذي صار متيماً بك إلا بضعة شهور بعد موت أخيك، فمات أبوك المكلوم بفعل تدابير الشر من البشر، تلك التدابير اللعينة التي حولتك من طفل ملائكي صغير طاهر يرى كل الناس ملائكة، ويجب أن يُرحم، إلى قاتلٍ متعمدٍ وشيطانٍ مجرمٍ يجب أن يُرجم، فصرت على الفور دون رفيقٍ حدثاً نزيلاً متفرداً في غرابة وقسوة ما حدث له، ومتفرداً في آلامه بين نزلاء دار الأحداث تلك بكل ألوانهم، وكل هذا بلا أي ذنب اقترفته يداك.

هذا هو حمزة شلبي الجارحي، لا أم له، لا أب له، لا أخ له، ولا عم، لكن له عمة تكرهه كره السنين، ولا خالة له، لكن له خال له زوجة اسمها ريهام تكرهه أيضاً وتبعد عنه كل رفيق به، فتباعد بين زوجها وابن أخته المسافات، فصار مقطوعاً من الدنيا قطعاً بلا أهل، وبلا سعادة، وبلا حياة طبيعية، كبقية من في عمره، فعاش بلا رحم ورحمة.

تلك حياة حمزة الجديدة، ولم يكن يُمطر هجير حياته تلك القاسية المؤلمة الظلمة بغيثٍ من الصبر والأمل إلا تلك الزيارات التي كانت تأتيه من آخرين ليسوا من أهله إلا ريم ابنة خاله جعفر، لكنهم يحبونه ويقتنعون ببراءته، وهم قليلون لا يتعدى عددهم أصابع يد واحدة.

كانت الزيارة في هذه المرة لريم، وبصحبتها زوجها الكاتب عمر الدالي.. أجل زوجها، فقد مرَّ تسع سنوات منذ دخول حمزة إلى دار الأحداث، فمات من مات، ووُلد من وُلد، وتزوج من تزوج ليأتي بشر يخطون بأقدامهم مكان أقدام من ماتوا.. وهل تتوقف الحياة بسجن مظلوم؟!.. إنها لم تتوقف بقتل أبرياء، حتى لقد قُتل أنبياء واستمرت الحياة.

وأنجب الزوجان السعيدان طفلاً وطفلة، وعاشوا حياة سعيدة رغم أنف الأم ريهام هانم التي كانت قد رفضت عمر رفضاً تاماً في البداية لأنها تكره الكتب والمثقفين وترى كلَّ مثقفٍ فقيراً، فمن يصاحب كتاباً لا يصاحبه المال.. هكذا تؤمن هي، وهي من هي في ثرائها الذي صارت إليه بعد أن نسيَتْ نشأة الفقر والحرمان التي نشأتها في بيت أهلها بإحدى قرى الفيوم الفقيرة؟!، وإنها لتجاهد بكل ما تملكه من قوة وشر من أجل ألا تعود حياة الفقر تلك، وإنها قد تلجأ إلى القتل لو أنها عرفت أن أحداً قد يسلبها ما لا قد صار بيديها وإن لم يكن لها.

لكن زوجها رجل الأعمال جعفر شعلان من أجل ابنته الوحيدة ريم التي علق قلبها بالكاتب عمر الدالي ظلَّ يجاهد في مواجهة تلك الزوجة رغم

ضعفه أمامها في غالب أموره معها، لعله قد استمدَّ أغلب العون والعزم من ابنته ليثبت بذلك أنَّ له عينا ذكية فاحصة ترى المعدن الثمين الخفي في الرجال، فقد رأى عمرَ إنساناً مكافحاً مثقفاً نبيلًا وشهياً غنياً بثقافته وفكره، وهذه ابنته الواعية المثقفة الفطنة تحبه، وهذا هو الأستاذ حسن غراب يُثني عليه، فماذا قد يطلب الأب لابنته الأثيرة لديه أكثر من ذلك؟ فجاهد الرجل من أجل ذلك.

جلس الزوجان عمر وريم بجوار الفتى حمزة ابن السابعة عشرة، وشرعت ريم تتحدث له وتضاحكه، فلم ينطق بكلمة.. سألته عن آخر أحواله بدار الأحداث، سألته عن طعامه وشرابه ونومه وأصدقائه وكتبه ومذاكرته وأحلامه، فلم يتكلم إلا عندما قالت له:

- يا ابن عمتي تكلم.. لو كنت تحبني وتحب عمو عمر تكلم.

نظر لها وقال:

- أنا أحبك وأحب الأستاذ عمر والأستاذ حسن وأحب كل الناس.. فما الذي حدث لي؟

فاستغربت ريم لكلماته تلك وقالت:

- ماذا تقصد يا حمزة؟

قال لها بنبهة ساخرة:

- ماذا لو كنتُ أكره الناس؟.. ماذا لو كنتُ شريراً كنتك المرأة المُقنَّعة؟

فقال عمر الدالي يسأله مندهشاً:

- هل ما زلتَ تتذكرها يا حمزة؟

فقال الفتى بنبرةٍ تحمل كل الألم والغضب:

- والله لم أنسها يوماً واحداً.

فقالت ريم بابتسامتها الجميلة:

- انسَ الماضي يا حمزة بكل ما فيه.

- كيف أنسى؟!.. وهل هناك إنسان ينسى يد الشر التي امتدت له

بالسوء؟

- يا حمزة قريباً ستخرج وتعيش حياة جميلة كلها حب وخير.

قالتها ريم، فقال حمزة بابتسامةٍ باهتةٍ:

- وحتى يأتي هذا القريب أنا هنا لا أزال سجيناً معاقباً على شيء لم أفعله..

وتلك المُقنَّعة المجرمة تعيش حرة خارج تلك الأسوار اللعينة.. لا شك أنها

هناك الآن تتنعم وتُخرج لسانها لي أن حملتُ الحِمْلَ عنها وللزمن الذي أفلتها

بفعلتها.. وأنا هنا مذنّب رغم براءتي.

- كلنا نعلم أنك بريء يا حمزة.. فلا تهتم بنظرة غيرنا.. المهم نظرتنا نحن

لك.

- أنا آسف لكن ماذا فعلتُ نظرتكم تلك لي؟! .. أنا الآن صرْتُ أموت في اليوم كذا وكذا مرة رغم محاولتي أن أتماسك وأن أبدو قويًا صالحًا صابرًا فقال عمر الدالي مبتسمًا:

- أنت فعلا والله شخص قوي صالح وصابر ومحِب للخير.

فضحك حمزة ضحكة فيها بعضٌ من يأسٍ:

- هل تعرفان السبب في قدومي إلى هنا؟

فتطلعتُ إليه عينا ريم وعمر، وسألاه في صوتٍ واحدٍ:

- ما السبب؟

- السبب أنني محِب للخير.. وأني لم أكن في يومٍ من الأيام شريراً.

فأسرع الأستاذ عمر يقول له:

- يا حمزة يا حبيبي لا تفكر بهذه الطريقة.. اعلم أن الشر ينهزم دائماً في النهاية.. والخير ينتصر حتماً.. وإن كان غيرك يعيش في مستنقع قذر.. فانتح أنت جانباً بنفسك المهذبة وفكرك السوي وتربيتك الطيبة.. اترك أنت كل مستنقع قذر لتكون صاحب النهر الذي يجري بالماء العذب.....

وقاطعه حمزة ليسأله:

- ماذا تقصد بالمستنقع القذر يا أستاذ عمر؟

- أقصد كل مكان لا يكون به إلا الشر والكذب والخداع والرذيلة.

فضحك حمزة ضحكة عالية وقال:

- إذا مرحبًا.. نحن الآن ها هنا في المستنقع القدر.

فقال ريم وهي تربت على كتفه:

- أنت هنا يا حمزة لفترة قاربت على الانتهاء.. وهذا المكان مجرد مرحلة

عابرة من أجل الإصلاح والتهديب.....

فصاح حمزة غاضبًا:

- وماذا فعلت أنا ليعصوني هنا؟.. لم أكن قبل المجيء لهذا السجن فاسدًا

ليصلحوني.. ولم أكن مذنبًا ليعاقبوني.. جئتُ لهذا المكان طفلًا صغيرًا بشماني سنوات.. الآن مرَّ عليَّ هنا تسعُ أخرى.. جئتُ طفلًا بريئًا بثيابٍ نقية بيضاء.. وأخاف والله أن أخرج من هنا شابًا مذنبًا بثيابٍ ملوثةٍ بكل شيءٍ غير صالح.

فقال عمر الدالي متألمًا:

- يبدو أنك تعلمت الكثير هنا يا حمزة.. صرتَ والله تقول كلامًا كبيرًا

يملاً كتبًا.

فقال حمزة في ألم:

- طبعًا يا أستاذ عمر.. ألا تعلم أنَّ الألم الكبير يلد وعيًا كبيرًا بقدر

الألم؟.. فلقد حطمتني الدنيا لدرجة أن أخبرك الآن يقينًا بأنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض يشعر بما أشعر به من حسرة .

فابتسمت ريم وقالت له تمازحه:

- لو كنت أعلم أن الحياة في دار الأحداث تجعل من يدخلها يقول كلامًا كبيرًا مثلك هكذا يا حمزة لقتلت كل من أعرفهم وأنا صغيرة.. فقط لأدخلها وأكون بنفس بلاغتك.

فنظر لها حمزة قائلاً بابتسامة حزينة:

- تقولين ذلك يا أبله ريم لأنك لا تعرفين ما يحدث هنا.

فقالت ريم تحفزه:

- لكنني أثق أنك رغم كل شيء ستظل قويًا متماسكًا

فنظر إليها حمزة يوافقها وقال:

- هذا ما عشتُ والله هنا أجاهد من أجله في كل يوم رغم كل المحبطات..

لكنني لا أعلم على أية حال سأكون عندما أخرج وترى عيني من ظلموني.

فقال عمر وهو يربت على كتف حمزة:

- الأحلام هي التي تقي صاحبها من اليأس يا صديقي.. فليكن لك حلمًا

يجعلك تعيش قويًا متفائلًا.

فقال حمزة وقد أحسَّ ببعض الراحة:

- معك حق يا أستاذ عمر.. وغالبًا أحلامي تلك هي ما جعلتني صامدًا

رغم كل شيء.

وانتهت الزيارة، وانصرف الزائران، وذهب حمزة إلى سريره وأمسك بكتابٍ راح يقرأ فيه، وبالطبع فهو يقضي معظم وقته في القراءة أو استذكار دروسه، ودائماً يتذكر قول الأستاذ حسن له:

- (إنَّ القراءة لا تملأ فراغ الأوقات بقدر ما تملأ فراغ العقول).

وإنَّ حمزة والكتاب في هذا المكان قد وجد خير صديقٍ له عن رفقاء السوء ها هنا، فكثيراً ما أراد كثيرون منهم إيقاعه في بئر الإدمان والشذوذ وكل الخطايا التي وقعوا بها، لكن حمزة وإنَّ انتابته حالات من اليأس أحياناً، فإنه لا يلبث أن يعود فيجاهد ليظلَّ ثابتاً على حاله التي هي أصله، وكلما تلوَّث بشيء أسرع وتطهَّر منه، وعاد إلى حمزة القديم الذي دخل به إلى دار الأحداث.

وحقاً، إنَّ سهام الإضلال كثيرة على جانبي طريق الإنسان، ومن السهل أن يغوص المرء ببحار الخطيئة، فيغرق ولا ينجو، ولا يمنع ذلك أو يرفع صاحبه من القاع ليحيا من جديد إلا الأحلام الجميلة والأهداف الكبرى في حياة البشر الممتدة، وإنَّ ما أنقذ حمزة بعد ما حدث له صغيراً أنه عاش وعيناه تنظران صوب هدفٍ واحدٍ كبير، وهو إثبات براءته، فكان هذا الهدف هو سبب نجاته الأول والأخير.

وإنَّ الفتى قد تيقن أنه لا وصول إلى الحقيقة بغير استعداد وسعي كبيرين لها، فشرع يُعدُّ نفسه لهذا اليوم الذي اقترب، يوم يخرج من هنا حافظاً لثأره

كأنه ابنه الوحيد الذي رباه سرا لسنوات كي يلاحق تلك المُنقّعة التي لم ينسها يوماً، فلقد كبر ذكرها معه يوماً بيوم منذ ضلّته عند المصرف إلى أن قتلت أباه وألصقت الأمر به، وحقاً إنه لا ينساها ودوما يذكرها كما يذكر المرء حبيبته، وأحياناً يكون العدو في الذاكرة بمثابة الحبيب، يحظى كلاهما بكل الاهتمام، وإن كان يجمع الحبيين جامعُ العشق، فإنَّ العدوَّين أيضاً يجمعهما جامعُ الثأر والانتقام.

ويظنُّ كثيرون أنَّ السجون والمحابس ودور الأحداث إصلاح وتهذيب وإبعاد عن الإفساد والإجرام والإرهاب، وهذا الأمر غير موثوق به إلى حد كبير، فقد لا تزيد مثل هذه الأماكن عن أن تكون مواقد لكل أنواع الشرور، أو ساحات تدريب وتبادل خبرات بين المجرمين بعضهم البعض من ناحية، أو بينهم وبين غير المجرمين من ناحية أخرى ممن يكون لديهم فضولٌ أو هوى لأن يتعلموا الإجرام.

وهذا المعنى هو ما أخبر به الفتى حمزة الأستاذ حسن عندما جاءه زائراً:

- مرحباً بك يا أستاذي العزيز في سجن بوكا.

فتعجب الأستاذ من كلمته وقال يسأله:

- بوكا!!.. ماذا تقصد؟!

- ألم تسمع عن سجن بوكا؟!

- فقط أخبرني عن شيء عنه وربما أتذكره.

- هو سجن أنشأته أمريكا بالعراق بعد غزوها لها لتجمع به كل سجناءها بداخله.. ولقد زاد عددهم به على اثنين وعشرين ألف سجين.

- نعم تذكرت.. لكنهم عراقيون يدافعون عن وطنهم.. وأظن أنهم ليسوا مذنبين لنسبيهم سجناء يا حمزة.. دعنا نسبيهم أسرى أو معتقلي حرب.
فضحك حمزة ثم قال:

- قطعاً أغلبهم ليسوا مذنبين طالموا يدافعون عن وطنهم.. وفعلاً هم كانوا أسرى ومعتقلي حرب.. لكنني مع ذلك أرى أنه كان يوجد بينهم مخربون وهمجيون وأشخاص لديهم أهداف أخرى.
فابتسم الأستاذ حسن وقال:

- لكن يا حمزة أنا لم أفهم حتى الآن سبب تسميتك لدار الأحداث هنا بسجن بوكا؟

فأسرع حمزة يقول:

- هنا يتجمع النزلاء فيتبادلون خبرات الإجرام بعيداً أو قريباً من أعين الحراس.. تماماً كما كان سجن بوكا أشبه بقاعات اجتماع مجانية لمحبوسيه أتاح لهم التشاور وتبادل الخبرات لمواجهة الحابسين.. وما أظن كل هذه التفجيرات الحادثة بالعراق كل يوم إلا بعض الثمار السوداء كريمة المذاق الناتجة عن غرس بوكا.

- صحيح.. لكن كيف غفلت أمريكا عن ذلك؟

- لقد أغلقته بعد أن أفرجت عن معتقليها جميعاً.. ربما أرادت تدارك خطأها .

وسكت حمزة قليلاً ثم قال:

- وربما كانت قد تعمدت فتحه ثم غلقه لأهدافٍ معينة بعد أن أدّى الغرض.

وابتسم الأستاذ حسن وقال:

- والله لا أفهم قصدك تماماً يا حمزة.. ولا أعرف كيف عرفتَ أنتَ كل هذا.

- القراءة علمتني الكثير يا أستاذ.. أما عن قصدي فأنا أخشى أن يكون سجن بوكا أشبه بمزرعة أمريكية أو مشاتل أشجار صغيرة مفخخة مقصودة أو غير مقصودة.. فتحه الماكرون الدهاء ثم أغلقوه لتخرج شتلات أشجاره وتنتشر وتكبر وتمتد بـأماكن أخرى بكل حرية.. ويوماً ما تطرح هذه الأشجار ثمارَ خرابٍ وإرهابٍ أكبر تحت أي مسمى يشوه صورتنا كمسلمين أمام العالمين.

وبرقت عينا الأستاذ حسن وقال:

- كل هذا !!!.. عموماً ربنا يستر.. لكن دعك من ذلك وحدثني عن آخر أخبارك هنا.

فضحك حمزة وقال:

- هنا !!.. ها أنا هنا بين تلك الجدران الخرساء الكثيبة وخلف بوابات الحديد القاهرة لحرיתי أعيش على أمل واحد.

- ما هو يا حمزة؟

- هو الخروج لترى عيني نور الحقيقة بعد سنوات الظلام تلك.. وحينها سأشعر أنني حي وأني حر.

فاقترب منه الأستاذ وقال مبتسماً مازحاً:

- لكن لا تكن كالخارجين من سجن بوكا يا فتى.. حينها سأكون أول من يواجهك.

فضحك حمزة ضحكة عالية جذبت كل عيون المحيطين وقال:

- من له مثل أهدافي وأحلامي البريئة لا يمكن أن يحيد عن الصواب يا أستاذ.

- حفظك الله يا فتى.. ولتعلم أن الحياة كلها رائعة.. لكنها فقط تحتاج منا أن ندرك روعتها.

وانتاب حمزة شعوراً حزيناً وقال:

- لكن حياتي السابقة ضائعة مني يا أستاذي.. وحياتي القادمة ضائعة أيضاً.. ولن أجدهما لأشعر بروعتهما كما أحلم إلا بالعثور على حقيقة ما حدث لي.

- معك حق يا حبيب.. فكل حقيقة إنما هي كتابٌ رائعٌ لا يعرف روعته إلا مَنْ قرأه.

- لكن كتابي يا أستاذي لا يزال تحت الطباعة.. وأنا في انتظار اليوم الذي يخرج فيه للعالم لكي يتصفحه كل مَنْ ظلمني وكل مَنْ لم يصدقني.. أريد أن تتغير نظرتهم النافرة لي إلى نظرة تليق بي .

فابتسم الأستاذ حسن معجبًا بكلامه وقال له:

- كلامك وحلمك جميلان جدًا يا حمزة.. ربنا يحفظك ويوفقنا سويًا لحل هذا اللغز العجيب.

- حضرتك بالطبع تعلم أن اللغز والحقيقة عند واحدة من أربع نساء.

- أعلم.. وإن شاء الله سنتكشف تلك الجريمة التي فعلت بك كل هذا الشر.

- والله إنَّ رغبتني في الوصول لها صار حلمي الذي لا يفارقني في نومي ويقظتي.

- ستصل يا حمزة.. ستصل.. إنَّ رغباتنا الجميلة مربوطة بنا دائمًا بخيطٍ هو في الأصل لا يُرى كما لو كان خيطًا كالشعرة.. لكنه مع قوة العزيمة يقوى ويصير مثل سلسلة من حديد تجرنا جرًّا نحو تحقيق ما يظنه عقلنا البشري مستحيلًا.. فلا تترك يومًا رغبة لك تغادرك مع النسيان دون عزم وإرادة لكي تنجزها.

- كيف أنسى يا أستاذي؟.. لقد خلطتُ تلك الرغبة بكل تفاصيل حياتي يوماً بيوم.. وذلك حتى لا أدع منفذاً في نفسي لأن تنسى نفسي مَنْ كانت ستحطمني.

- وهل لفتى قوي ذكي مثلك أن يحطمه شيء؟! .. أنا أثق بك كثيراً يا حمزة.. ربنا يحفظك.

وابتسم حمزة، ونظر إلى كتاب بيد الأستاذ حسن فسأله:

- ما موضوع كتاب اليوم الذي جئتني به يا أستاذي؟

ضحك الأستاذ وقال له:

- هو كتاب في علم التنمية البشرية.. أرجو أن يعجبك.

- كل الكتب التي ترشحها لي تعجبني جداً يا أستاذ.

ودار حمزة بعينه كأنه يتفقد المكان حوله، ثم ابتسم ابتسامة حزينة سائلاً:

- كيف تمضي حياة الناس خارج هذا المكان يا أستاذي؟

وكان السؤال مفاجئاً، فابتسم الأستاذ وأسند ظهره إلى ظهر المقعد الحديدي الذي يجلس عليه وقال:

- أنت بالطبع تعرف أنه كانت هناك ثورة قبل دخولك إلى هنا.

- نعم أعرف.

- ما زال الناس يعانون يا حمزة.

- ولكن هؤلاء الذين ماتوا في الثورة من أجل الحرية والعدل.. هل ضاعت دماؤهم هدرًا؟

فأخذ الأستاذ حسن نفسًا عميقًا حزينًا وقال:

- في وقت الضباب تنعدم الرؤية فتحدث صدمات عفوية وأخرى مفتعلة وبينهما تضيق الحقوق.

- ومتى يزول هذا الضباب؟

- عندما نطهر عقولنا من سطوة الغفلة وموت الضمير.

ولم يُعلق حمزة فربت الأستاذ حسن على كتفه وأكمل يقول:

- وقریبًا سيزول ضبابك أنت أيضًا يا حمزة.. فقد اقترب وقت خروجك من هنا.

فعاذت لحمزة ابتسامته الجميلة وقال:

- حضرتك تعلم أنني أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

- سيروق كل شيء.. لكن اهتم أنت حاليًا بمذاكرتك وكتبك يا حمزة

- نعم هذا ضروري.. لكن من أشد ما أآلني أيضًا أن حرمتني تلك السنين من تعليم المدارس.

- لكنك تعلمت في أفضل مدرسة لا يُقاس نجاحها بالدرجات..
والتعليم فيها ليس بالكتاب والقلم.
- أعرفها.. إنها مدرسة الألم.. وأظنني أشهر تلامذتها.
- كان الله في العون.



الفصل العاشر

خرج حمزة من دار الأحداث العقابية بالمرج بعد أن عوقب خلالها بتسع سنواتٍ ظالمةٍ خلف الجدران مسلوب الحرية فاقداً للحياة الطبيعية التي كان يجب أن يعيشها كما يعيشها من هو في مثل عمره، خرج وودّع خلفه ماضيه المؤلم بها إلى بيتهم الواسع الكبير في الزيدية، وإلى مستقبله الذي يحلم به مشرقاً ومزهرًا بكل النجاح والتميز.. لكن هل يستطيع هكذا بسهولة أن ينسى كل ماضيه؟

كيف ينسى؟!.. إنَّ الفتى ما إنَّ وصل إلى بيته حتى راودته أيام طفولته فيه، فهذا هو المكان الواسع أمام البيت، هنا عاش يجرى ويلهو فرحاً بالحياة، وهنا سقط أخوه بيده قتيلاً، وهنا سقط أبوه بيد غيره قتيلاً فحمل هو على عاتقه جريمة قتله، ولو سار على قدميه لعشر دقائق بعيداً عن هنا سيجد شاطئاً المصرف اللعين، فماذا يفعل وقد داهمته تلك الأيام بذكرها الأليمة التي قضاهها هنا وهناك؟

وحاول بالطبع تناسي الألم، فالأبقى له ولأحلامه الواعدة أن يترقب
أيامًا أكثر إشراقًا ليعين نفسه على ما هو قادم، ولو أن كل إنسان خطأ بقدميه
على الأرض بأودية الهموم والمصائب شطرًا من العمر، ثم خرج منها، ثم
عاد فاستكان وخضع لأيام الحزن بحياته تلك لعاش أغلب البشر أسرى
الفشل والجمود، وما غادرت البشرية أبدا مكانها لتصل إلى ما وصلت إليه
من إنجازات.

وعلى مستوى الدول العظيمة، والدول بهذا المعنى جمعٌ للإنسان.. فماذا
لو كانت اليابان استكانت وانهارت بعد دمار هيروشيما وناجازاكي؟.. لو
كان أصحابها اليأس والضعف لما رأينا اليابان الآن كما هي عليه.. إذاً فليكن
التفاؤل والسعي الدائب مع الإيمان بالله رايات ذلك الفتى الحالم الطامح التي
يمضي حاملاً لها للبحث عن الحقيقة بعد أن نجا من تلك السنوات الطوال
العظام.

وحقاً، عاش حمزة خائفاً يترقب وسط أهوال كثيرة، لكنه نجا، نجا عندما
تماسك في كل مرة سمع فيها صوتاً يقلد النداهة عند شاطئ المصرف المائي
المخيف، ونجا عندما قاوم المرأة المُقنَّعة التي حاولت أن تقتله هناك، ونجا
عندما ظل صامداً بعد قتله لأخيه وصاحبه، ونجا عندما احتمل أهل قريته
وهم ينفرون منه كأنه شيطانٌ يجب أن يرموه، ونجا عندما لم يخترمه القهر
بعد اتهامه بقتل أبيه، ونجا عندما لم ينجرَف للساقطين في خندق الضياع

خلال تسع سنواتٍ عجافٍ له في دار الأحداث، وكان على شفا أن يسقط، لكنه نجا، ومع كل نجاة له كانت هناك قلوبٌ تحترق، خاصة قلب عمته التي كانت قد قطعتُ علاقة ابنها به كما لو كان كلبًا أجربَ تخشى منه عليه، ولم يبقَ للفتى غير أن يصل لحقيقة تلك الجريمة المُقنَّعة، وسوف يصل .. لكن أتعرفون لماذا نجا؟.. لأنَّ الله أراد له الهداية، وكان له حُلْم، وبهذين فقط أفلتَ في النهاية بعد أن عاش عمره خائفًا يترقب.

وذهب الرجال لرؤيته في بيت أبيه الحاج شلبي بالزيدية، وجلسوا يهتونه على خروجه من دار الأحداث، ويحثونه ليمضي يقظًا على طريقه الجديد المشرق بالأمل، لكن الدموع لم تفارق عيني المعلم سعيد العدوي الجالس بين الخال جعفر شعلان والأستاذ حسن غراب، ومعهم كثيرون.. قال المعلم سعيد صاحب القلب الطيب واللسان العذب:

- الحمد لله على عودتك يا حمزة.. انسَ الماضي يا ابني بكل ما فيه وانظر لمستقبلك.

وابتسم حمزة له، ونهض من مكانه إليه، فقبَّل رأسه ويديه وقال له:

- حاضري عم سعيد.. أهم شيء عندي هو أن تسامحني.

فراح المعلم سعيد ييكي قائلاً:

- أنا مسامحك يا حمزة.

وابتسم الجار السيد المتولي حمزة ابتسامة حانية وقال له:

- ألف مبروك يا حمزة على خروجك بالسلامة.

- الله يبارك فيك يا عم سيد.

ووجه الخال جعفر شعلان كلامه للأستاذ حسن قائلاً:

- كل الشكر لك يا أستاذ حسن على اهتمامك بحمزة.. وعلى زيارتك الدائمة له طوال هذه السنين.

فقال له الأستاذ حسن:

- علام تشكرني يا أستاذ جعفر؟.. حمزة ابن حلال ويستحق كل خير.

والتفت الأستاذ حسن لحمزة مشجعاً له:

- امتحاناتك على الأبواب يا فتى.. لم يتبقَ إلا شهر.. وننتظر منك مجموعاً كبيراً لتدخل الطب.. نريدك أن تكون طبيباً كبيراً

وقال الكاتب عمر الدالي:

- ولا تنسَ أن تبني عيادة كبيرة هنا في الزيدية لتعالج أهلها.

- إن شاء الله.. وسأعالجهم كلهم بالمجان.

قالها حمزة مبتسماً، فابتسم له الجميع، ونظر المعلم سعيد إليه قائلاً:

- بارك الله فيك يا حمزة.. يارب أراك أحسن طبيب.. ويكون شفاء مرضي عندك.

- إن شاء الله يا عم سعيد.

فقال الأستاذ حسن:

- حمزة متفوق طول عمره ولن يخذلنا.

- إن شاء الله لن أخذلكم أبداً.. أنتم والله بمثابة أهلي.. ليس لي غيركم بالدنيا.

قالها حمزة في حزنٍ، فقال المعلم سعيد العدوي:

- والله أنا يشرفني أن يكون لي ابن مثلك يا حمزة.

وجذب انتباه الأستاذ حسن شحوبٌ واضحٌ على وجه المعلم سعيد العدوي ونقصانٌ ملحوظٌ في وزنه فاقترب منه هامساً على حين انشغال الجميع بالحديث مع الفتى وسأله:

- ما لك يا معلم سعيد؟؟ أرى وجهك شاحباً.

فقال المعلم سعيد بصوتٍ منخفضٍ:

- المرض يا أستاذ حسن.. ربنا يكفيك شر المرض.

- شفاك الله وعافاك يا معلم.. لكن عليك أن تهتم بصحتك أكثر من ذلك.

- منذ أن ماتت زوجتي ثم حبيبي المرحوم أسعد وأنا في النازل.

فقال الأستاذ حسن مازحاً معه:

- ولماذا لا تتزوج يا أخي من امرأة ترعاك؟

فضحك المعلم سعيد قائلاً:

- لن نعيش زمننا وزمن غيرنا يا أستاذ.. العمر فات وانقضى.

- ما زلت صغيراً يا حاج.

- الحمد لله على كل شيء.

فسكت الأستاذ حسن لحظة ثم عاد وسأله:

- ومَن يرعاك حالياً؟

- زوجة عماد تخدمنا.

- بارك الله لك فيهما.

- اللهم آمين.

وتفرَّق الجمع، ثم لم يمر على هذا اليوم إلا أسبوعان حتى كان نفس الجمع بالزيدية في جلسة طويلة للحديث في بعض الأمور حول الميراث العالق ما بين حمزة وعمته وعد وزوجة أبيه شيرين أم أخيه أسامة، وانتهى حديثهم إلى أن صار البيت من نصيب حمزة بعد أن أخذ كل صاحب حق حقه من ميراث الحاج شلبي الجارحي، فهكذا حرص الوصي عليه خاله

جعفر شعلان، وهكذا نصحه المحبون لحمزة كالأستاذ حسن غراب والجار السيد المتولي، ولم لا يكون البيت لحمزة؟.. فمن الطبيعي أن يكون البيت للابن الذكر الذي ولد فيه وعاش به فترة من حياته.

وبالنسبة لأم أسامة زوجة أبيه شيرين، فقد اشترت شقة كبيرة بالقاهرة الجديدة، ثم تزوجت غير أبيه المرحوم، وما الذي يمنعها أن تفعل ذلك وهي المرأة الشابة الجميلة وارثة الأموال والأفدنة لها ولابنها ذي العشر سنوات؟.. إنها لم تتزوج الحاج شلبي عن قصة حب إن مات ظلت عمرها تندبه وتحيا على ذكره، إنما تزوجته لتعيش بعض حياتها في نعيمه، فإن مات ورحل بقيت منه الأفدنة والأموال.

وكان قد اتصل بها حمزة فور خروجه من دار الأحداث.. قال لها:

- مرحبًا يا أم أسامة

ولأنَّ الرقم الذي ظهر عندها كان رقمًا غريبًا عليها لا يحمل اسمًا، فقالت بحذر:

- مَنْ أنت؟

- أنا حمزة.

- حمزة مَنْ؟

- أخو أسامة.

وبالكاد تداركتُ المرأة الأمر، وتذكرته فأسرعتُ تقول بارتباك:

- حمزة.. متى خرجتُ من السجن؟

ضحك حمزة وقال:

- السجن؟!.. خرجتُ من السجن منذ يومين.

فقالت بنفس ارتباكها تسأله:

- ومن أين أتيتَ برقمي؟

- من عم سيد جارنا.

- تمام تمام.

- كيف حالك يا أم أسامة؟

- بخير الحمد لله.

- وأسامة أخي.. كيف حاله؟

- بخير.

- أريد أن أراه.

فصمتتُ زوجة الأب قليلا، ثم قالت:

- طبعًا طبعًا.. إن شاء الله قريبًا.

- كنتُ أتمنى أن يزورني أخي أسامة في دار الأحداث.

فقالَت المرأة بنفَس ارتباكها:

- لم أكن أعلم مكان سجنك.

فضحك حمزة ثم قال لها:

- الناس تسأل عن المكان الذي تريد الذهاب إليه.

- كنتُ مشغولة.

- لتسع سنوات كنتُ مشغولة؟!!

- الحياة خارج السجون تختلف عن الحياة داخلها.

فضحك حمزة متعجبًا وقال:

- أراك تُعيدني لي كلمة السجن كثيرًا.. لكن لا بأس.. الأهم لي الآن أني

أريد أن أكلم أخي.. أريد سماع صوته.. ممكن؟

فأسرعت تقول بصوتٍ مختنقٍ:

- هو نائم.. أسامة نائم.. عندما يستيقظ سأجعله يكلمك.

وبالطبع لم يحدث، وقد كان حمزة على يقين بأنها لن تجعل أخاه يتحدث

إليه، مع أنه أراد ذلك حقًا ليشعر نفسه بأن هناك أحدًا قد بقي له من أبيه.

وفكّر حمزة أيضًا أن يتصل بالست سامية، وقد أخذ رقمها أيضًا وأرقامًا أخرى من صديق أبيه السيد المتولي.. ضغط حمزة على اسمها بهاتفه فجاءه صوتٌ غير صوتها.. كان صوت أختها هيام، وكانت هيام قد تزوجت منذ سنين، وكانت أختها الكبيرة سامية في زيارتها لتحمل عنها عبء بعض الأعمال بسبب معاناة هيام من آلام الحمل.. أجابت هيام عن سامية:

- مَنْ؟

قال حمزة:

- السلام عليكم.

- مَنْ معي؟

- أليس هذا هو رقم الست سامية؟

- أجبني أولاً مَنْ معي؟

- أنا حمزة.

- حمزة مَنْ؟

- حمزة الجارحي.. فهل هذا رقم الست سامية؟

- لا.. ليس رقمها.

- كيف؟

وأغلقتُ الاتصال على الفور في نفس الوقت الذي خرجتُ فيه الست
سامية من المطبخ، فسألتهَا:

- مَنْ كان يطلبني؟

فسكتتُ هيام لحظة قبل أن تجيبها، ثم قالت:

- واحد قال إن اسمه حمزة.

وراحت تفكر قليلاً عن أحد تعرفه بهذا الاسم فلم تتذكر شيئاً، فسألتهَا:

- ماذا قال لك؟.. وماذا قلتِ له؟

- كان يريدك.. قلتُ له إنَّ الرقم ليس رقمك.

- لماذا قلتِ له ذلك؟

- طريقته في السؤال لم تعجبني.

وجلستُ الست سامية جانباً ثم نظرتُ لأختها تسألها:

- ترى.. ماذا كان يريد؟

فقالت لها أختها بلا مبالاة:

- لا أعرف.. أنا أغلقتُ ولم أسأله عما يريد

وأما عن العمّة وعد، تلك المرأة الغربية متقلبة المزاج، لا يمكن لأحد
أن يرسو معها على جانبٍ ثابتٍ من النور والحقيقة دون أن يشوب الأجواء

ضبابٌ وأوهامٌ، ففي تلك الأعوام التي عاشها حمزة بدار الأحداث لم تزره هذه العمة أبداً ولو مرة واحدة، ربما أنَّ الثراء الجديد الذي صار من نصيبها، وصارت تحيا به هي وزوجها المهندس مهدي وابنها محمود وابنتها وجدان هو ما أنساها ابن أخيها، لكن لا غرابة في شيء إن كان متصلاً بامرأة غامضة مثل وعد.

كانت وعد أقرب صديقة للمرحومة تيسير، لكنها بعد وفاتها لم تصن تلك الصداقة أبداً، حيث لم يبدُ عليها يوماً أنها تتلهف لرؤية ابن المرحومة الصغير حمزة، فهل هذا الإنسان الذي ينسى الصديق بموته ويقطع كل الأواصر بتابعيه هو صديق وفي أم غادرٌ مخادع؟.. هل الموت لواحدٍ من صديقين كانا وفيين لبعضهما يُنهي الصداقة ويقطعها قطعاً؟.. في شرع الله إن مات أحد الزوجين كان الآخر حلاً منه بحيث يجوز للحي الزواج بغير المتوفى ونسيان كل ماضيه معه.. فهل الصديق من صديقه هكذا؟.. أرى أنَّ الصداقة شيءٌ غير هذا، هي شيءٌ كأخوة الأشقاء يجب أن تُصان وتبقى.

وأيضاً لم تذهب تلك العمة لترى ابن أخيها الذي عاد من غياهب دار الأحداث إلى بيته، ولم تتصل به لتهنئه وتطمئن عليه خاصة أن خبر عودة الغائب قد انتشر سريعاً في تلك القرية الصغيرة والقرى المجاورة التابعة لأوسيم، فما هذا؟.. ماذا جنى الفتى في حقها من جنایات لتكون منه هكذا؟

اتصل حمزة بها فعرفت صوته منذ سمعته .. قال لها:

- عمتي .. كيف حالك وحال الجميع؟

أجابت بكل برود:

- الحمد لله.

- جاء زوج عمتي لزيارتي بعد خروجي .. فلماذا لم تأتي معه؟

- كنتُ مشغولة.

- دائماً أنتِ مشغولة يا عمتي .. ودائماً تغييبين طويلاً.

فأسرعتُ تسأله:

- ماذا تقصد يا حمزة؟

- لا شيء يا عمتي .. مع السلامة.

- مع السلامة.



الفصل الحادي عشر

وانتهى حمزة من امتحانات الثانوية العامة التي أداها بتفوق وتميز، ولم يمض بعدها سبعة عشر يومًا حتى كانت وسائل الاتصال الاجتماعي تشارك أسماء الطلبة الأوائل على الجمهورية، فإذا بالكاتب عمر الدالي يتصل بالأستاذ حسن عصر يوم سبتٍ وهو يطير فرحًا ليخبره بأن حمزة شلبي أحمد الجارحي هو السابع على الجمهورية والأول على محافظة الجيزة كلها في القسم العلمي علوم، فطار الأستاذ فرحًا هو الآخر، وطارا من القاهرة إلى الزيدية ينهبان الطريق نهبًا سعيدًا ليباركا للفتى النابغ.

وقابلها حمزة بالأحضان مسرورًا منشرح الصدر، فقد عرف الخبر للتو قبل وصولهما ببضع دقائق.. قال له الأستاذ حسن وهو يحتضنه:

- ما شاء الله عليك يا بطلي.. ما شاء الله عليك.

ثم احتضنه عمر الدالي قائلاً له:

- أمنيّتي أن أرى أولادي مثلك يا حمزة.

وابتسم حمزة قائلاً:

- كله بفضل الله ثم فضلكما عليّ .

وأخذه بالسيارة في نزهة بالقاهرة، فأكلوا في مطعم الدهان بالحسين، ثم جلسوا على مقهى الفيشاوي، فشربوا الشاي، وذكروا وتذكروا سوياً الأيام الحزينة، وتطلعوا معاً إلى المستقبل السعيد لحمزة الذي يعوضه عن تلك الأيام، ولم ينسَ الرجلان أن يقدماً للفتى النابغ بعضاً من النصائح حول مواصلة الجد والاجتهاد والتواضع والمحافظة على الصلاة، ثم قال له الأستاذ حسن يضاحكه:

- مَنْ مثلك يا دكتور حمزة؟.. حتماً سوف يستضيفونك في التلفزيون..
هكذا يفعلون مع أوائل الجمهورية كل عام.

فابتسم حمزة ثم قال بصوت هادئ:

- الحمد لله.. كنت أتمنى لو كان أبي حياً ليفرح بي.

فربت الأستاذ على كتفه وقال:

- فعلاً والله كان سيفرح بك كثيراً

وقال له عمر:

- أنتَ فخر لكل مَنْ يعرفك يا حمزة.

وهنا لفت الأستاذ حسن انتباهه لشيء فقال له:

- قد يعرف الناس أنك كنتَ بدار رعاية الأحداث يا حمزة.. فلا يُحْزِنَكَ ذلك.

- أنا أكبر من الحزن يا أستاذي.. لكن ماذا أقول لو سألوني عن سبب دخولي الأحداث؟

فقال له الأستاذ حسن برفق وحنان:

- ألم تكن بريئاً؟

- بلى كنتُ بريئاً.

- إذن قل الحقيقة.

- وهل يصدقونني؟

- قل الحقيقة واترك البقية على الله.

وبالفعل ظهر حمزة في التليفزيون، وتحدث عن نفسه وكيف استطاع أن يحقق هذا التفوق، وبالطبع لم يُخَفِ أنه قضى من عمره تسع سنوات بدار رعاية الأحداث ذاكرًا أنه بريء، وراويًا لهم بكل براءة وثقة كثيرًا من تفاصيل

قصته، فجذب كلامه أنظار وأسماع الملايين، وانتشرت قصته انتشاراً واسعاً مذهلاً، وتعاطف معه كثيرون، وقد استضافته أكثر من قناة فضائية كمثال على الصبر والتحدي والتفوق رغم قسوة الظروف حتى صار الفتى حمزة بوسامته وأناقة مظهره وسحر كلماته حديث الناس لأيام طويلة.

وتلك القرية الظالم أهلها، والتي عادته تكراراً، ونفرت منه كثيراً، قد صار أهلها يوقفونه في الطرقات للترحيب به والحديث معه والتقاط الصور، وبالطبع لم يكن يرد قاصداً له بسوء، إنما بوجه باسم ولسان عذب ونفس قد غفرت لهم دفعة واحدة كل جرائمهم معه في الماضي الأليم.

وصار معلموه القدامى يتقربون له، ويتناقلون الأحاديث عنه وعن نبوغه منذ طفولته في مدارسهم وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، وينسج البعض منهم تفاخراً وزهواً حكايات جمعتهم بحمزة عندما كان تلميذاً بالمدرسة الابتدائية.. فيا لغرابة هذا الإنسان!.. ويا لقبح هذه الأفعال من البشر!

ولم تغفل بعض الفضائيات عن أن تُحرز سبقاً إعلامياً في هذا الموضوع، فسارع البعض منها للتصوير في دار رعاية أحداث المرج حيث كان يعيش حمزة سنوات عمره الضائعة.. ذهبوا وأجروا لقاءات كثيرة مع مشرفي العنابر التي تنقل بينها حمزة ومع الطباخين ومع زملاء له نزلاء بالأحداث، فراح الجميع يتحدثون عن تميز هذا الفتى القوي النابغ الوسيم.

قال عنه زياد برشامة الذي دخل الأحداث في قضية بيع مخدرات:

- (كنتُ دائماً أرى حمزة يجلس وحيداً ممسكاً بكتاب.. فأذهب له وأجذب الكتاب منه.. فلا يفعل أكثر من أن يتسهم لي.. فأعود إليه وأرجعه).

وقال إبراهيم صامولة الذي دخل الأحداث في قضية سرقة بالإكراه:

- (ضبطني أكثر من مرة بينما كنتُ آخذ نقوده من دولابه.. فلم يفعل أكثر من أن يتسهم ثم يصرُّ بكل مرة على أن يقتسم النقود التي معه بيني وبينه).

وقال عادل المشروط الذي دخل الأحداث في قضية قتل:

- (أنا لم أصلُ لله ركعة واحدة في حياتي قبل أن أدخل الأحداث.. لكن لما دخلتها لفت انتباهي أن ولداً لا أراه إلا راکعاً أو ساجداً.. فسألته ذات يوم عن فائدة الصلاة.. فجلس يتحدث معي كثيراً عن الصلاة والصيام وكل شيء جميل.. صرتُ أصلي وأصوم الآن بفضلِهِ.. إنه حمزة هذا).

وقال سيد بوليكة الذي دخل الأحداث في قضية اغتصاب طفل:

- (دائماً كنتُ أرى نفسي شيطاناً.. ولما جئتُ إلى هنا رأيتُ شياطين كثيرين مثلي.. فارتاح ضميري على ذلك أن لستُ وحدي.. واقتنعتُ بما يقوله البعض بأنَّ هذا المكان ليس للرعاية أو العلاج أو إعادة التأهيل بل العكس.. وأنَّ الجميع هنا يدخلون غير أسوياء ويخرجون غير أسوياء.. ثم

رأيتُ حمزة عن بعد وراقبته كثيراً.. كنتُ أريد أن أجد سبباً أو شيئاً يجعلني أسخر منه أو أؤذيه.. لكنني وجدتُ إنساناً كأنه ملاك.. هذا والله ما رأيته فيه.. أجبرني على أن أحترمه وأنا من النادر أن أحترم أحداً.. كما جعلني أغير وجهة نظري في الناس وفي دار الأحداث وفي كل شيء.. صرتُ إنساناً آخر بفضل حمزة).

وقال الأخصائي الاجتماعي أجمد:

- (كان حمزة في آخر أربع سنوات له هنا لا يترك أمرين: الكتاب والصلاة.. فهو يصلي كل الصلوات في وقتها ثم يمسك بالكتاب.. وكنتُ أرى من غيره هنا انفلتاً وعصياناً دائمين، فكنتُ أذهب له وأستشير.. فكان يساعدني في السيطرة على سلوكيات الجانحين.. فقط بضع كلمات هادئة منه لهم تغلب كفة كل ما تقوم به الدار والإصلاحية لسنوات).

وقال عم فايز الطباخ:

- (كان دائماً ينزل إلى المطبخ ويده كتابٌ وقلم.. كان يقرأ ويكتب في كل وقت.. يقرأ وهو يأكل.. يقرأ وهو يشرب.. يقرأ وهو يحمل سرفيس طعامه.. وكنتُ أحدث أولادي في البيت عنه دائماً.. وحتى الآن أحرص دائماً في كل صلواتي أن أدعو الرب لكي يكون أولادي مثله في أخلاقه وأدبه وجماله).

وقال مدير دار رعاية الأحداث بالمرج:

- (النزيل حمزة شلبي أحمد الجارحي مثال واضح على نجاح تلك المؤسسة
العقابية بالمرج لرعاية الأحداث.. لقد وجد عندنا البيئة المناسبة لكي يستعيد
حياته السوية.. وفّرنا له كل شيء لكي يتفوق ويتميز ويكون من أوائل
الجمهورية.. مصر بكل مؤسساتها بلد معطاء للخير وصانعة للعباقرة..
وهذا بالضبط ما قدمناه لحمزة.. نتمنى له حياة سوية دائماً بعد ما قدمناه له
من تأهيل تربوي مدروس بعناية).

وفي الوقت ذاته كان هناك بيتٌ من بيوت قرية الزيدية يحترق ساكنوه
حقداً وحسداً وقهراً وهم يشاهدون ويسمعون حمزة يتحدث بالتلفزيون
بكل ثقة وتواضع وطلاقة، أو عندما يرون غيره يتحدث عنه بانبهار، حتى
لقد قام الزوج وأغلق التلفزيون.. كان هذا البيت هو بيت العمة وعد،
وبالطبع فإنّ ابنها محمود كان زميلاً لحمزة، فماذا فعل محمود؟ وماذا كانت
نتيجته في الثانوية العامة؟

لقد رسب محمود مهدي محمد الراوي.. لكن لماذا رسب؟.. أو كيف؟

تبدأ الحكاية منذ حصلت العمة وعد على نصيبها من الميراث، فارتقت
حياة الأسرة كلها من ضيق العيش إلى اليسر والرخاء، ومن الاقتصاد في كل
مظاهر المعيشة إلى التبذير والإنفاق دون حساب، حتى لقد هدموا البيت

القديم وبنوه من جديد بعدما أضافوا إليه أرضاً كانت بجواره اشتروها
بثمنها المبالغ فيه، فصار بيتهم كبيراً بثلاثة طوابق وأثاث جديد.

فيا للعجب!.. هناك بعض البشر ينجحون فقراء ويفشلون إذا ما عرفوا
الغنى، وهناك أغنياء لا شفاء لهم إلا في الثراء، فإن أصابهم الفقر ضاعوا
وضلوا وأضلوا، ومن هنا جاءت حكمة الله العلي العليم، حيث يُعطي من
يشاء من فيض رزقه الواسع، ويضيق على آخرين لحكمة لا يعلمها غيره،
ومحمود ابن العمّة وعد خير شاهدٍ ودليل.

فحينما جرى المال بأيدي العمّة وزوجها تناثر منها إلى محمود الذي راح
يتعرف على أصدقاء سوء أبعده عن كتابه ودروسه وسلوكه القويم، فكان
يخرج من البيت كثيراً في كل وقت إلى أصحابه هؤلاء ثم يعود بعد ساعاتٍ
مضلاً والديه على أنه قضى كل هذا الوقت في الدرس والاستذكار.

والمال بأيدي الشباب والنفس الضعيفة وصحبة السوء، ماذا ينتج عن
هذا الجمع؟.. ينتج اللهو الفارغ الذي يبدأ بالتدخين وينتهي بالإدمان،
ويولد مع ذلك جنوحٌ كبيرٌ نحو إشباع الغرائز بدءاً من التعارف بالجنس
الآخر لإثبات الذات، وانتهاءً بالردائل والنكبات.

في بداية الشتات عاد محمود ذات ليلٍ من الخارج، ولم يكن أبوه ينام قبل
أن يطمئن على رجوعه.. ظنَّ الأب أنَّ ابنه عائِدٌ من عند صديق له وقد كانا
يستذكران، لكن الأمر كان غير ذلك.. كان محمود عائِداً من ملهى ليلي.. قضى

الليل مع أصدقاء السوء يشاهدون راقصة تتمايل فتجني منهم الجنيهات .. لم يكن يعلم الأب تلك الحقيقة، ولم تكن تعلم الأم أيضًا .. قال له أبوه:

- يا حبيبي أنتِ تُتعب نفسك في المذاكرة .. إنَّ لبدنك عليك حقًا.

- لا بد أن أجتهد الآن في صغري يا أبي لأرتاح بقية حياتي .. أليس هذا كلامك لي دائمًا؟

- معك حق يا حبيبي .. ربنا يوفقك .. لكن اجعل شيئًا لنفسك.

- أين أمي؟

- أمك نائمة .. سأحضر لك العشاء أنا.

- لا .. لست جائعًا.

- كيف؟

- لقد أكلتُ عند صديقي.

- ربنا يوفقك يا محمود يا ابني أنت وأختك .

وفي يوم آخر بينما كانت أمه وعد ترتب ملابسه في دولابه إذا بها تعثر على علبة سجائر .. فأحسّت بصدمة كبيرة، وقالت له تسأله:

- محمود .. كيف تفعل ذلك؟

فقال لها:

- وماذا في ذلك يا أمي؟ .. كلُّ مَنْ في سني يدخنون.

- لو عرف أبوك سيحدث له شيء.. قد يموت فيها.

- إذا إن كنت تحببته فلا تخبريه.

- لكن عليك أن تعدي الآن أن تترك التدخين.

- لا أستطيع.

- حاول يا حبيبي.

وبالطبع لم يحاول محمود، ولم تصر أمه على أن يحاول، فتغاضت عن ذلك منه، ثم أرادت أن تحافظ على صحته، فقرأت عن شيء يُسمى الشيشة الإلكترونية أو (فيب) فاشتريت له أعلى نوع فيها، وبالطبع فإن كل ذلك كان يدور دون أن يعلم عنه الأب شيئاً.

وكانت الأسرة مدعوة ذات يوم لحضور زفاف ابنة صديق للأب المهندس مهدي، فتخلف عنهم محمود بحجة أنه يريد أن يبقى بالبيت ليذاكر، وفرح أبوه باجتهاد ابنه وقدر له ذلك، وإن كانت الأم قد شرعت في أن ينتابها كثير من الشكوك حول ما تراه من تصرفات ابنها الأخيرة، لكنها دائماً لا تريد أن ترفض له طلباً أو تُخجله أمام أي أحد.

وها هي الأم قد عادت من حفل الزفاف قبل زوجها وابنتها وجدان، ففوجئت بفتاة في البيت مع ابنها محمود، فصاحت بالفتاة غاضبة:

- ماذا تفعلين هنا؟

فأسرع محمود يجيب:

- جاءت لتذاكر معي.

فنظرت له الأم نظرة شك، لكنها ابتسمت قائلة:

- ما نوع هذه المذاكرة يا محمود؟

فابتسم محمود وقال لها:

- لا تخبري أبي.

فقالت له:

- لن أخبره بشرط ألا تفعلها ثانية.

فابتسمت الفتاة ثم قالت للأم وعد:

- حضرتك طيبة جداً.

وكان الأب المهندس مهدي قد اشترى ثلاثة مكيّفات للبيت، ووضعها في بدroom بيته لفترة حتى يجد وقتاً مناسباً لتركيبها، فإذا به بعد أسبوع أراد أن يتفقدوها مع الفني الذي سيقوم بتركيبها، وهنا كانت الصدمة.. لم يجدها، فصعد مسرعاً لزوجته يسألها عنها فأخبرته أنها لا تعلم شيئاً، ثم سألت محمود، فأخبرها أنه لا يعلم شيئاً، ثم تقصّت الأمر وبحثت وسألت فعرفت أن الابن المدلل محمود قد باعها بثمن بخس لأنه أراد مالا أكثر مما يأخذ، وخجل أن يطلبه من أبيه.

وبالطبع فقد أخفتُ الأم أيضًا هذا الأمر عن أبيه، لكنها طلبتُ من محمود أن يهتم بمذاكرته ليحقق حلم الأسرة في أن يكون مهندس بترول، فوعدها محمود أن يستدير لدروسه ومذاكرته لا يأوي على شيء غير ذلك، فإذا به يستدير ليدخل عالم الإدمان من أوسع الأبواب دون أن يعلم الأب شيئًا.

وقبل امتحانات الثانوية العامة بأسبوع استأذن محمود أباه لأن يقضي هذا الأسبوع مع صديق له يذاكران، ولن يعود لبيتهم إلا ليلة الامتحان، وبعد رفض كبير من والديه وافقا، فأخذ محمود حقيبة ملابسه وكل كُتب اللغة العربية ونقودًا كثيرة، لكنه لم يذهب للمذاكرة عند صديقه، إنما ذهب إلى العين السخنة مع أصدقاء السوء، وهناك قضى أسبوعًا كاملاً لم يرَ خلاله كتابًا واحدًا، إنما رأى معظم أنواع المخدرات.

سأله صديق له من هؤلاء:

- كيف يطاوعك قلبك أن تترك مذاكرتك مع أن امتحاناتك ستبدأ بعد أيام؟!

فضحك محمود ساخرًا منه:

- وماذا تفعل أنت؟.. ألسنت مثلي؟

- أنا لستُ طالب ثانوية عامة مثلك؟

- وأنا شاب يا صديقي ومعني نقود كثيرة.. فلماذا أذاكر؟

- ألا تريد أن تنجح؟

- وهل ستشهد الدنيا لو رسبتُ؟.. إن لم أنجح هذا العام فسأنجح العام القادم.

- معك حق.

وعاد محمود ودخل الامتحانات، لكنه بالطبع خرج منها كما دخلها، فلم يُجِب شيئاً يُذكر حتى كان يوم نتيجة الثانوية العامة، فإذا بالابن محمود راسباً في كل المواد.. وحاولت أمه مواراة ذلك عن أبيه، فلم تستطع، وعلم الأب فسقط من أثر الصدمة مغشياً عليه، فنقلوه إلى مستشفى قصر العيني بالقاهرة في حالة سيئة، فقد أصيب الرجل بجلطة.



الفصل الثاني عشر

الخبر في الأرياف - أي خبر- ينتشر فور حدوثه، فلا يبقى بيتٌ دون أن يصله، هذا على خلاف المدن الكبرى، في المبنى السكني الواحد بالقاهرة وأشباهاها يموت الجار ولا أحد يراعي، لكن هنا في الزيدية أصيب المهندس مهدي الراوي بجلطة، فعرفت كل القرية نوعها وسببها ونتيجتها وعلاجها، وبالطبع وصل الخبر إلى الفتى حمزة الجارحي، فذهب لأداء الواجب زائرًا لزوج عمته بالمستشفى.

ذهب فوجد رجلاً مُحَطَّم النفس على سريرهِ، هو يقظٌ لكنه كالنائم، لا يتكلم، ولا يحبُّ أن يتكلم، وحوله بالحجرة أشخاصٌ كثيرون من أهل القرية، وبجانبه ابنته وجدان التي تصغر أخاها محمود بعامٍ واحدٍ، كانت جالسةً تُمسك بعلبة مناديل ورقية كبيرة، وتخرج منها منديلًا تلو الآخر لتمسح على وجه أبيها، وتحفف عرقه، ولم يكن محمود أو أمه موجودين عندما دخل حمزة.

وما أن ألقى حمزة السلام بينما كان يدلف من باب الحجرة الواسعة حتى نهض جميع من بالحجرة واقفين عندما تطلعت أنظارهم إلى من يُلقي السلام، فقد عرفوا على الفور أنه حمزة ابن الحاج شلبي، وتسبق جميعهم للسلام عليه، حتى الفتاة وجدان تركت أباهما ونهضت بسرعة تمد يدها إليه وهي ترد السلام، فلم يمد حمزة يده لها، إنما ابتسم لها ابتسامة مهيبة.. قالت له:

- أهلاً حمزة.. أنا وجدان بنت عمتك وعد.

- أهلاً وجدان.

وإنه للمرة الأولى يراها بعد أن صارت فتاة صبية.. آخر مرة رآها منذ أكثر من تسع سنين عندما دفعه زميله بالمدرسة فنزل يتدحرج على درجات السلم، ويومها هي الوحيدة التي بكّت من أجله، بينما تركته أمها ورحلت دون أن تسأله: (هل أصابك مكروه؟).

قال لها:

- أهلاً يا وجدان.

ونظر إلى أبيها وقال:

- كيف حالك يا زوج عمتي؟

- الآن أفضل الحمد لله.

- الحمد لله .

ونظرتُ له وجدان بابتسامةٍ تحمل كلَّ الكلام الذي تحمله بقلبها له منذ زمن، لكنها لا تستطيع أن تقولهُ، خاصة في هذا المكان الآن بين كل هذي العيون الناضرة إليه.. فقط وقفتُ تغرق في ملامحه وتفاصيل حركاته وكلماته منتظرة أن يبادلها بنفس النظرة فلم يفعل، فقالت له:

- ألف مبروك على نجاحك وتفوقك يا حمزة.

- الله يبارك فيك .

- أنا داخله ثالثة ثانوي.. ادعُ لي .

- ربنا يوفقك .

- أنتَ قدوتي أيها الطيب المنتظر .

- الرسول قدوتنا جميعاً

وظلَّ الناس جميعاً واقفين وأعينهم تتفحصه، ولم يجلس أحدٌ منهم إلا عندما جلس الفتى بجوار المهندس مهدي، وفي نفس اللحظة جاءت عمته وعد فوجدته بين زوجها وابنتها، فكان ذلك مفاجأة لها لم تتوقعها أبداً.. ووقف الفتى عندما رآها قائلاً لها:

- أهلاً عمتي .

تلعثم لسانها وتهدّج صوتها وهي تقول:

- أهلاً يا حمزة.

قالت ذلك ولم تزد عليه، فقالت وجدان:

- شكراً يا حمزة على الزيارة.

فنظر حمزة حوله، فلم يجد محمود فقال يسأل:

- أين محمود؟.. لم أره منذ سنوات.

فتغيّر وجه العمة ونظرت إلى زوجها الذي لم ينطق، وإلى ابنتها التي
أسرعت تقول:

- كان هنا وانصرف قبل أن تأتي بقليل.

فابتسم حمزة، ونهض واقفاً تاركاً كرتونة عصير كان قد أحضرها معه
قائلاً:

- أتيتُ بهذا العصير لزوج عمتي.. أستأذنكم.. وأنت يا عمتي أخبري
محمود أن يتصل بي.. رقمي معك.. آخر رقم حدثتك منه منذ فترة.

وفي الوقت الذي أراد فيه حمزة مغادرة الحجرة، فإذا بالطبيب المتابع لحالة
زوج العمة يدخل وبصحبه ممرضة، فقال حمزة موجهًا كلامه لعمته:

- هل تريدان مني شيئاً يا عمتي؟

فأسرعت وجدان تجيب عن أمها:

- شكرًا يا دكتور حمزة.

فالتفت الطبيب ينظر إلى حمزة، ثم سأل وجدان متعجبًا:

- دكتور!!.. أليس صغيرًا على لقب دكتور؟

فقالت وجدان بنبرة فخر:

- حمزة ابن خالي هو الأول على الجيزة كلها في الثانوية العامة والسابع على الجمهورية.. هذا يعني أنه سيدخل الطب بدون شك.

فابتسم الطبيب ابتسامة مُحفزة، ومدَّ إليه يده فصافحه بكل ود واحترام، ورمقته عمته بنظرات غريبة حاقدة عليه، ومتعجبة من ابنتها.

وانصرف الفتى النابغ تاركًا عيون القوم جميعًا ترمقه بمزيج من الاحترام والدهشة، وتاركًا عين عمته تتابعه بوابل من الحقد الذي يأكل قلبها أن صار هو هكذا وصار ابنها هكذا، وتاركًا عينا عشقته على الفور منذ رأته، عشقته رغمًا عن أمها وأبيها وقلبها.. ولم تكن تملك أمام هذا الفتى اليافع الوسيم المتميز إلا أن تعشقه كما يقولون من أول نظرة له وهو شاب، كما أحبته من أول نظرة له حينما كان طفلًا صغيرًا بالصف الثاني الابتدائي، فلم تكن كأهلها تمقته هكذا بلا سبب أو شيء يسري بالنفوس المريضة تجاه الناجحين.. أجل لقد عاشت وجدان ابنة عمته تعشقه.. فهل سيبادلها شيئًا أم سيدعها حريقة القلب؟

وانتظم حمزة في كلية طب القاهرة، وألحَّ عليه خاله جعفر تكرارًا كي ينتقل للمعيشة معهم في أوسيم، لكنه فضَّل أن يعيش ببيته بالزيدية رغم وحدته بين أركان هذا البيت الكبير الواسع، فتعلَّم أعمال الغسل والكنس، وتعلَّم الطبخ، فكان جيدًا فيه.. يلجأ إليه عندما يكون رائق البال، ونادرًا ما يكون رائق البال، لقد عاودته رغبته الملحة في الوصول للحقيقة، وما زال حائرًا بين أربع نساء، يوقن أنَّ إحداهن هي المُنَّعة المجرمة ذات القفازين.

وذهب لتلبية دعوة جاءته تكرارًا من خاله.. جلس على مائدة الطعام في بيته بجانبه في حضور الابنة ريم واثنتين من الأولاد وزوجة الخال ريهام.. قالت ريم:

- نورَّت بيت خالك يا دكتور حمزة.

فابتسم حمزة قائلاً:

- شكرا يا أبله ريم.

وربت الخال على كتفه وهو يقرب له الطعام ويستحثه على تناول المزيد والمزيد في الوقت الذي نظر إليه أحد أبناء خاله مبتسمًا قائلاً:

- والله شرفتنا يا حمزة.. شاهدناك في التلفزيون.. أصبحت مشهورًا

وضحك الثاني وقال:

- بعد الأكل لا بد أن ألتقط لنفسى صورة معك.. سأنشرها على الفيس بوك وأكتب تحتها (بكل فخر هذا ابن خالي).

وبنفس الوقت مع هذا الكلام الجميل كانت هناك ابتسامات ونظرات
غير صافية من زوجة الخال التي قالت لابنها الثاني:
- طبعاً يا حبيبي هذا فخر وشرف كبير لحمزة أن يكون معه في الصورة
مهندس ميكانيكا مثلك.

فنظر الجميع لها نظرات لوم وعتاب، وقال حمزة:
- بالطبع هذا فخر وشرف لي.

فابتسمت المرأة ابتسامة باهتة وقالت:

- يقولون إن الأولاد في الأحداث كلهم متشردون ومجرمون.. فكيف
استطعت أن تعيش بينهم؟
فنظر لها حمزة قائلاً:

- في كل مكان هناك مظلومون يا زوجة خالي.. وقد أكون لست وحدي
من كنت هناك مظلوماً.. لكن الأمر الذي يجب أن يشغلنا ونبحث عن علاج
له هو أن السيئين منهم ليسوا هم من أوصلوا أنفسهم إلى هناك.. بل أوصلهم
أشخاص في المجتمع يظهرون على أنهم أسوياء وهم أصل كل سوء وشر..
وهؤلاء هم من يجب أن يدخلوا الأحداث لأنهم أصل الخطأ.
فأسرعت زوجة الخال تقول:

- ما هذا يا حمزة؟!.. هل تعني بكلامك أن والدك الله يرحمه كان يجب أن
يدخل الأحداث مكانك لأنه أخطأ في تربيته؟

وشعر حمزة بغضبٍ شديد وقال:

- لا طبعاً لا أعني ذلك.

- كيف لا تعني ذلك؟

- أنا لم أذنب ليكون أبي مخطئاً.

- كيف؟.. لقد قتلت.....

وأسرع الخال وقاطع زوجته ناظرًا لها قائلاً:

- يكفي يا جماعة.. المهم الآن يا حمزة أنك طالب في كلية الطب وأمامك مستقبل واعد.

فقالت زوجة الخال بنبرةٍ لا تخلو من حقد:

- أهم شيء أن يداوم على الاجتهاد.. دراسة الطب صعبة.. لا نريد له أن يعود إلى الفشل والضياع.

وهنا انطلقت نظراتٌ أخرى عاتبةٌ ناقمةٌ من الجميع تجاهها، وقالت ريم:

- حمزة طول عمره متفوق يا ماما.. وسيظلُّ طول عمره متفوق بإذن الله.

ونظر حمزة لزوجته خاله نظرة تحمل كل التحدي، وصوبت هي أيضاً عينها له، فلما التقت العينان لم ينقلها حمزة عنها للحظة، فشعرت المرأة بشعور خوف شديد سرى بداخلها تعمّد حمزة أن يوصله لها، ثم صار ناقلًا نظراته بين ريم وأمها وهو يقول:

- الله دائما يقف مع المظلومين.. ويُعين المجتهدين أصحاب القلوب الصافية النقية.. ويومًا ما إن شاء الله ستظهر الحقيقة الكاملة لكل ما مرَّ بيتنا من أحداث غريبة ومدبرة.. فاستعدي لهذا الوقت يا زوجة خالي.

فأسرعتْ تسأله:

- لماذا أستاذ؟!

- لتعتذري لي.

- علام أعتذر؟

- على أشياء كثيرة أولها سوء نيتك بي.

- أنا فقط أخشى من أن تضل طريقك أو يكون السجن قد صنع منك مجرمًا أو شريكًا أو إرهابيًا.. أنت تعلم ما يحدث بكل الدول حولنا من إرهاب وإجرام وتخريب على أيدي خريجي السجون.

ونظر الجميع لها نظرة استغراب واستهجان لكلامها، ثم نهض حمزة عن مائدة الطعام دون كلام وسط إلحاح الخال وريم أن يُكمل طعامه، فلم يستجب، وعاد من بيت خاله لبيته في الزيدية غاضبًا مصدومًا، وقد ضمَّ للمشتبه بهن واحدة خامسة هي زوجة الخال.

ولم لا؟.. فقد عرف أنها فرضتْ على خاله ألا يُعطيه ميراثه عن أمه إلا عندما ينتهي من دراسته.. أجل هكذا كان جواب الخال عندما فاتحه الأستاذ حسن

بكلام في شأن الميراث، وبكل أسفٍ فإنَّ هذا الخال الناجح في أعماله صاحب الكلمة القوية بين معارفه يفقد أحياناً تلك القوة أمام الزوجة، يحدث ذلك منه لسببٍ واحدٍ، هو أنه يحبها ويُبقي عليها معه بكلماتٍ وآراء دائمة مسموعةٍ من أجل ذلك، وهذا الأمر ليس بغريب، فالحُبُّ أحياناً بين بعض البشر يبدو كإله لا بد أن يقدم من أجله قرايين ليرضى.

ولم ينم حمزة ليلته تلك، فقد ظلَّ يفكر في زوجة الخال تلك التي أظهرت حقدَها عليه دون مواراة، ويبدو أنه حقدٌ قديمٌ عتيقٌ طال عليه الزمن حتى عفن، وإذا فهي تتابع كامل حكايته من أولها، وحمزة يعلم أنها جاءت إلى مصر قبل حادث المرأة المُقنَّعة عند المصرف، ويسمع عنها منذ صغره تناقل الحكايات التي تُثبت أنها تحبُّ المال بشراهة، وهي تؤجل الآن إعطاءه ميراثه، ربما تستكثره عليه وترغب في أن تُبقيه لأولادها الخمسة، وهو الذي ورث ثروة أبيه وحده، فربما حرَّكتها هذه الرغبة لشيء، فهل يُعقل هذا؟!

كان الفتى ممدداً فوق سريره، يحاول ربط كل الأحداث ببعضها، ويجمع كل الخيوط لينسج منها الحقيقة الفاصلة التي يبحث عنها، وليس من الصعب على ذكي مثله أن يصل لما يبحث عنه، وهو بالطبع لا ينسى أبداً ما حكاها له الأستاذ حسن عن ذلك اليوم الذي اتصل به أبوه ليخبره بأنه على وشك أن يعرف المرأة المُقنَّعة، ثم قُتل الأب في الصباح.

فمن عساها تكون تلك المجرمة؟.. هل تكون تلك المقنعة قد عرفت يومها أن أباه على وشك أن يكشفها؟، لذلك أسرعت وقتلته.. لا بد أن هذا ما حدث.. وعليه الآن أن يعرفها، فالأيام تمرُّ ما بين انشغال ونسيان وتأجيل، وكلما بعد مدى الزمن عن حادث المصرف صار كشف الحقيقة صعبًا.

ظلَّ حمزة شاردًا غارقًا مع أفكاره الكثيرة المتشابكة، يُقَلِّب كل شيء في ذهنه على كل الوجوه لعله يصل لشيء، فالست شيرين أم أخيه أسامة تتحاشى الحديث معه، بل تهرب من مواجهته، وعمته وعد هي الأخرى تهرب منه وتمقته وتتحاشى مواجهته، والست سامية هي الثالثة قد اتصل بها ولم يستطع الحديث إليها، وأختها هيام هي الرابعة لأنها كانت واحدة من النساء اللاتي تتواجدن في البيت بين يوم وآخر، ثم ما الذي يجعلها تغلق الهاتف معه عندما اتصل بأختها؟.. وحتى زوجة خاله تلك، قد ظهر حقدُها وجشعها بين حروف كلماتها الحارقة.. فمن منهن هي؟.. من؟

لو حسبنا نسب الشكوك حسب نسب استفادة الخمس نساء لتساوت ثلاثة منهن تقريبًا في نفس الاستفادة وبالتالي تتساوى نفس الشكوك، فالعمة وعد من صالحها أن يموت أخوها وولديه لثرتهم، والست شيرين من صالحها أن يموتوا أيضًا جميعًا فيرثهم ابنها أسامة، وزوجة الخال من صالحها أيضًا أن يموتوا فتحتفظ بإرث المرحومة تيسير شعلان الكبير لأولادها، لكن هناك واحدة من هؤلاء النساء لا يؤثر حصول الاثنين الآخرين على

ما تكسبه هي باندثار هذه العائلة، ولن تقاسمها واحدة منهما فيما ستجنيه إنْ هلكوا.. إنها زوجة الخال ريهام.. أما عن الست سامية وأختها هيام، فربما عملتا لحساب إحدى المستفيدات الأخريات.

وفي ظهر اليوم التالي ذهب حمزة للأستاذ حسن في مكتبه بمدينة نصر.. رحّب به الأستاذ وسأله عن دراسته ومذاكرته ومحاضراته، فأجاب حمزة:

- الحمد لله.. لكنني جئتُ لأخبر حضرتك أنني لم أعد أطيع صبراً على ما أنا فيه.

- خيراً يا حمزة

- حولي خمس نساء.. واحدة منهن هي سبب المصائب التي حدثت لي.. واحدة من خمس عندها الحقيقة كلها.

- خمس!!.. هن أربع يا حمزة

- لا هن خمس.. فأنا أشكُّ في امرأة خالي أيضاً.

فتعجب الأستاذ حسن، ومضى حمزة يحكي له عن زيارة الأمس، فأثار ما حكاه الغضب والدهشة والحيرة عند الأستاذ، وقال له:

- طبعاً كل شيء ممكن.

وأخذ حمزة نفساً طويلاً، وقال:

- لقد قررتُ شيئاً يا أستاذ حسن.
- ما هو؟
- سأبدأ في مراقبة النساء؟
- ودراستك؟
- لا تقلق.
- لا يا حمزة.. اهتم أنتَ بدراستك.. سأكلّف أنا أحدا بمراقبتهم.
- مَنْ؟
- هو شخص أنا وأنتَ نثق به.
- هل تقصد الأستاذ عمر الدالي؟
- أجل يا حمزة.
- كما تريد يا أستاذ.
- هو بصفته كاتب يحبُّ مثل هذه الأمور المثيرة.
- أنا موافق.
- لكن عليكَ شيئاً بسيطاً ستفعله.
- ما هو؟

- ستأتي معي لنذهب ونطلب من الشرطة فتح هذا الملف من جديد..
نرجو أن تقتنع الشرطة لتكون معنا وفي ظهرك، وعلى علم بكل ما سنفعله.
- معك حق .

وسكت الأستاذ حسن قليلاً ثم قال له:

- أخبرني بالتليفون أنك ذهبتَ وزرتَ زوج عمّتك بقصر العيني..
احكِ لي بالتفصيل يا حمزة ما حدث هناك مع عمّتك.

فحكى له حمزة كل ما دار في الزيارة من عمته وابنتها وجدان، ثم سأله
الأستاذ عن الست شيرين فحكى له اتصاله بها، وكيف أنها تتهرب منه؟،
فضحك الأستاذ حسن وقال:

- والله يا حمزة إن مواقفك تلك مع هؤلاء تذكرني بالفاروق عمر بن
الخطاب مع الشياطين التي تخاف أن تسلك طريقاً يسلكه هو.. حفظك الله
يا حبيب.

فابتسم حمزة ابتسامة فخر، وقال:

- غريب جداً أن جميع النساء يتعاملن معي بنفس الطريقة.. أحياناً أشكُّ
أنهن جميعاً عصابة واحدة.. وأنهن جميعاً اشتركن مع بعضهن في فعل ما حدث
فضحك الأستاذ حسن وقال:

- الناجحون مثلك يا حمزة غالباً تجتمع عليهم سهام واحدة.. وهذه
السهام تأتي مصوبة دائماً تجاه القلوب الصالحة النقية.. ومنبعها واحد وهو
القلوب الحاقدة.. حفظك الله أيها الفتى .

- أشكركَ يا أستاذي العزيز.. أنا لا أعرف بدونك كيف كانت حياتي
ستسير.

- يا فتى أنتَ إنسان متميز.. حدثتَ لكَ أهوال كثيرة وكبيرة.. ورغم
ذلك لم تضل طريقك.

- هذا لأنكَ دائماً بجانبِي يا أستاذي .

- بل لأنكَ نبتة صالحة طاهرة تثمر بأي أرض توضع بها .

- أنتَ مَنْ ربيتني لأكون صالحاً يا أستاذ حسن .

- بل أنتَ تربية ربانية يا حمزة.. فكيف لا تنجح؟



الفصل الثالث عشر

الساعة العاشرة صباحاً.. من مدخل إحدى العمارات السكنية في أوسيم خرجت امرأة أنيقة جميلة ترتدي (مانطو) وهي تلك العباءة السورية التي عكفت المصريات على ارتدائها في السنوات الأخيرة تشبهاً بالسوريات، لكن يبدو أن تلك المرأة تحب ارتدائها ضيقة، فقد جَسَمَت العباءة كل تفاصيل جسدها تجسماً مثيراً لكل من يراها من الرجال وفي نفسه شيء، ولقد عبرت المرأة الطريق إلى الجانب الآخر وهي تتحدث بتليفونها المحمول، ثم سارت على رصيفه عدة أمتار حتى وصلت إلى سيارة حمراء اللون.. قادتها بنفسها وانطلقت.

ومن الطريق الدائري كانت تلك المرأة قد وصلت خلال أقل من ساعة إلى القاهرة الجديدة، فالطريق في مثل هذا الوقت يكون غير مزدحم، وقد وصل كل طلاب المدارس ومدارسهم واستقروا فيها، ووصل كل قاصد عمل

حكومي إلى مكان العمل واستقر فيه، ووصل كل قاصد عمله الخاص إليه، وهكذا استقرّ الجميع فاستقرّ مرور الطرق.

وإنها في كل يوم تسلك هذا الطريق لا تحمل عبء الزحام حين الذهاب، لكنها بالطبع تحمل عبء الزحام حين الرجوع، لأنها غالبًا تعود ما بين الثالثة والسادسة في هذا الوقت الذي تغرق فيه الشوارع والطرق بكل هؤلاء الذين خرجوا صباحًا، وهم في الغالب يخرجون على أوقات متناثرة متباعدة، لكنهم يعودون في وقت متقارب تسارعًا إلى بيوتهم بعد يوم عصيب، وتلك المرأة ليس أمامها إلا أن تعود في مثل هذا الوقت، لأنها لا بد أن تذهب لطفلها، فتعود به من هناك لأوسيم.

إن طفلها يدرس في إحدى المدارس الخاصة بالتجمع الخامس، يذهب مع زملاء له راكبًا الباص ذهابًا فقط، أما إياها فيكون مع تلك الأم، فهكذا تعودت.. ولكن كل هذه الساعات حتى خروج الطفل من المدرسة في الثالثة، فيم تقضيها الأم الجميلة الأنيقة؟.. إنها تقضيها بشقة في التجمع بحي البنفسج عمارات، وبالطبع لا تكون هناك وحدها، إنما تكون مع رجل، رجلٍ سوري.

إنها الست شيرين، تلك التي لا تريد أن يقترب حمزة من أخيه أسامة ابنها، وهذا ما يثير شكَّ حمزة بها، فربما تكون هي المرأة المُقنَّعة ذات القفازين..

اتصل بها حمزة ذات يوم للمرة الثالثة أو الرابعة من رقم غير رقمه بينما كانت مع الرجل السوري في الشقة.. قال لها حمزة في ثقة منذ سمع صوتها:

- من حقي أن أرى أخي.

وحين فوجئت بأن المتصل حمزة تلعثمت وقالت:

- هو مشغول بمدرسته ودروسه ومذاكرته.

- لماذا أنت دائماً تحاولين إبعادي عن أخي؟.. أريد أن أراه.

- إن شاء الله قريباً.

- ومتى يأتي هذا القريب؟

- قريباً.

وانتهى الاتصال، وسألها الرجل السوري:

- من هذا؟

أجابته في سأم:

- إنه حمزة ابن زوجي السابق شلبي.

- ألن يكف عن هذا؟

- وماذا أفعل؟

- ما رأيك أن أتصرف أنا معه؟

- لا لا .

فأوماً الرجل برأسه متعجباً، وعادا لما كانا فيه .

وبعد هذا اليوم بأقل من أسبوعين عاد حمزة فاتصل بها يطلب نفس مطلبه، فقالت له:

- لقد نقلنا سكننا من أوسيم إلى التجمع الخامس.. والمكان بعيد جداً عن الزيدية.. لكنني سأجد فرصة أكون فيها بأوسيم وآتي لأزورك ومعني أسامة.. أم أنك تركت بيتكم في الزيدية؟

- كيف أترك بيت أبي.. أنا أعيش به وحدي.

- ربنا معاك.. هل تريد شيئاً آخر؟

- لا .

وإنه ل يبدو أنَّ هذه المرأة لا تنوي تلك الزيارة التي وعدته بها ليرى أخاه، فهي واحدة ممن رأيته ممسكاً بالبندقية بجوار جثة أبيه، وأخبرت الناس بذلك عنه، بل ظلت تخبر كل من تعرفه أنه قاتل أبيه حتى خرج من الأحداث واتصل بها، فعاشت من يومها تحشاها وتحاشى لقاءه، ولأنها بالطبع تنظر إليه على أنه ربيب أحداث وكاره للمجتمع، وهي تظن أنه بلا شك سيبدأ الانتقام من الناس، وأولهم هي وابنها أسامة لأنها بالطبع مع ابنها قد سلباه نصف الميراث أو أكثر.

وحمة يعلم ذلك منها جيداً، ويوقن أنها تنظر له دائماً على أنه شخصٌ
خَطِرٌ، لذلك لن تُريه أخاه بسهولة، وكأنها تريد أن تحمي الصغير منه،
ويفترض أن يكون سبب كل ذلك أنها هي نفسها المرأة المُقنَّعة التي يصرُّ هو
على الوصول إليها، وتصرُّ هي على الهروب منه، وإن لم تكن هي المُقنَّعة فإنه
يبقى أن يكون سبب هذا الخوف أنها تظنه شخصاً عدائياً مشؤوماً قتل أخاه
وصاحب أخيه، ثم أباه.

إنها حقاً قاصرة الفكر وغبية، وهي مع ذلك ماكرة، وليس شرطاً في
الماكر أن يكون ذكياً، فإنها لا ترى في حمة في جميع حالاته إلا جانباً شريراً
ليس موجوداً به أصلاً، وهي لم تسمح لنفسها أن ترى فيه غير هذا الجانب،
ولو عاشت مائة سنة، فلن تراه إلا كذلك.

ولا شك في أن هناك مثلها من لا يزالون ينظرون له على أنه مجرم ربيب
دار الأحداث، وهي بالطبع قد وصلها خبر دخوله الطب، وبالطبع قد
ملأها ذلك حقداً وسخطاً، وظلَّت مع ذلك تبغضه وتحشاه، إنها من ذلك
النوع البشري الممقوت، هم أناسٌ يعيش بيننا منهم كثيرون، يؤمنون بفكرة
ما خاطئة إيماناً مقيتاً، لا يغيرونها أبداً، ولا يسمحون لأنفسهم أن يفكروا
ليصلوا إلى الصواب ليغيروها، عقولهم جامدة وقلوبهم مريضة متحجرة قد
انغلقت بمئات الأقفال على مرضٍ وخطأ، ولن يبرأوا ويهدوا ولو عاد إليهم
ألف نبي يخبرونهم بالصواب ومعهم وحي من الله.

وهي مع ذلك ليست ساذجة بأية حالٍ من الأحوال، لقد تزوجت الحاج شلبي وعاشت معه لأقل من عامين، فكان ثمار ذلك ميراثاً بملايين الجنيهات، فشهادتها المتوسطة التي حصلت عليها من المدرسة التجارية بأوسيم ما كانت لتجلب لها أي شيء غير البطالة والفقر والحرمان، فراحت تتاجر بشيء تملكه ويتلهف عليه الرجال ولا تملك غيره، هو أنوثتها، تاجرت بها أقدر تجارة، وتنقلت بها بين قدمي ويدي أكثر من رجل حتى كانت تجارتها مع الرجل الغني الحاج شلبي هي التجارة الأكثر ربحاً، فسُحِّقاً لهذا النوع من النساء.. إنهن قدرات.

وبالطبع فإنَّ هذا الأمر ليس قاصراً على النساء، فهناك رجالٌ يتاجرون بمثل ذلك، يتاجرون بشبابهم أو بوظائفهم أو بعرضهم وطولهم ورجولتهم أو بمكانتهم الاجتماعية، يتاجرون بذلك مع نساء معظمهن أرامل أو مطلقات، الأهم أن يكنَّ ثريات أو على الأقل جميلات.

وهذا ما حدث بالضبط من معاذ السوري، هذا الرجل الذي تقضي شيرين معه ساعاتها في شقة البنفسج بالتجمع الخامس، فلقد وقعت به ووقع بها حينما خرج كل منهما للصيد، فعاشا فترة لأيام ينسج كل منهما الشباك للآخر برسائل ومكالمات تملأ سكون الليل بمعسول الكلام وتنهيدات الوحدة وآهات البعد، فلما تقاربا فهم كل منهما شخصية الآخر، ورأى معاذ أنها تبحث عن جسد رجل قوي بجانب المال، وخمنت شيرين أنه يبحث عن

جسد امرأة جميلة مثيرة بجانب المال، فتزوجا لذلك راضيين دون أية مشاعر حب، وتشاركوا بذلك في مطعم كبير.

ولقد ظلَّ عمر الدالي يراقب الست شيرين أياما، ومن بعيدٍ وقريبٍ تَقَصَّى عنها كثيرا في أوسيم وفي التجمع، وفي مطعمها المشهور مع زوجها معاذ، والتقى بالأستاذ حسن فأخبره بكل ما عرفه عنها، وكان حمزة موجودا، فقال حمزة:

- وماذا غير هذا يا أستاذ عمر؟

- لا شيء آخر يا حمزة.. ورأيي أنَّ حياة هذه المرأة تبدو طبيعية وعادية جدا.. وأنها ليست هي المرأة المُقنَّعة فقال حمزة يسأله:

- ألم تلاحظ حضرتك عليها أنها تعرف أو تقابل أحدا غير معاذ هذا؟ فضحك عمر وقال:

- يكفي رجل واحد يا حمزة

فابتسم الأستاذ حسن وقال:

- أيها الشرير.. حمزة يقصد أنها بالطبع لم تكن وحدها في جريماتها.. لا بد أن يكون أحد قد ساعدها

فضحك عمر الدالي ثم قال:

- المشكلة الكبيرة أنَّ هناك عشر سنوات قد مرَّت على الجريمة

فقال الأستاذ حسن:

- والله لا أعرف ماذا أقول يا عمر.. من الممكن فعلاً أن تكون حياتها

طبيعية تماماً الآن.. وليس فيها شيء غريب.. ومع ذلك تكون هي المجرمة

التي نبحث عنها.. فقد فعلت فعلتها منذ سنين وورثت المال ونسيت الأمر

وعاشت

فقال حمزة يوافقه:

- معك حق جداً يا أستاذي.. خاصة أن تهربها الدائم مني يثير شكوكي

فقال عمر الدالي:

- عموماً أنا لم أراقبها إلا أياماً قليلة.. سأستمر في مراقبتها ولعلنا نصل

لشيء

فوافقه الاثنان على ذلك، وقال حمزة:

- فعلاً هذا ما يجب أن نفعله.. وهناك شيء آخر بعد ذلك لا بد أن أجربه

معها

فأسرعاً يسألانه:

- ما هو؟

- سأَتصل بها وأحاول استفزازها وجَرَّها في الكلام

فأبدى الأستاذ حسن قلقه عليه من فعل ذلك قائلاً:

- لكنني أخاف عليك يا حمزة.. أنت تعيش وحدك في البيت.. وإن كانت هي المُقنَّعة وعرفت أنك تشكُّ بها فسوف تحاول إيذاءك

فضحك حمزة وقال:

- لم أعد طفلاً يا أستاذي الغالي.. لا تقلق عليّ.. وسأحاول استدراج كل مَنْ نشك بها من هؤلاء النساء.. ليس أمامنا إلا ذلك.. ولتأتِ المُقنَّعة لتجد ماذا ينتظرها مني

فقال الأستاذ حسن في قلق:

- أنا لا أرتاح لذلك يا حمزة.. فلتؤجل ذلك الآن قليلاً

- سأحاول السيطرة على نفسي في ذلك.. ولا أعرف إن كنتُ سأستطيع

أم لا

قالها حمزة وسكت ولم يعقب الأستاذ حسن، فقال عمر الدالي:

- أما عني فسوف أعود لمراقبة الست شيرين

وبالفعل مع استمرار مراقبة عمر لها لشهر آخر حدث منها يوماً شيء غريب، فقد تابعها عمر بسيارته خروجا من أمام مطعمها الكبير بمصر الجديدة وحتى قرية شنباري إحدى قرى أوسيم.

لاحظ عمر أنها خرجت من المطعم غاضبة متوترة في حالة غريبة كما لو كانت غائبة عن الدنيا أو خارجة على التو من شجار، أو أنَّ أحدا أخبرها بموت شخص عزيز على قلبها، وبالطبع لم تكن أنيقة الثياب والشكل كما هي حريصة دائما.

وتوقفت بسيارتها في شنباري، ونزلت منها بنفس الحالة أمام بيت رجل هناك معروف لكثيرين بسطوته وكثرة معارفه وأنَّ له خبرة ومعرفة بكل شيء اسمه عزمي شاهين.. دخلت فمكثت بالداخل لنصف ساعة ثم خرجت بحالة أقل غضبا وتوترا، وجذب هذا الأمر عمر الدالي مما جعله يتبعها حريصا على ألا يُفقد لها أثرا حتى أوصلته بمتابعتها حتى قسم شرطة أول التجمع الخامس.

نزلت من السيارة، ودخلت إلى القسم، وبدأ عمر يشعر بقلق من أن تكون قد انتبهت له، وسيخرج الآن رجال شرطة للقبض عليه فور أن تدلف هي إلى الداخل، لكن ذلك لم يحدث، إنما ما حدث أنها بعد أن بقيت بالداخل لساعة كاملة فإذا بها تخرج وهي غارقة في البكاء، فقادت سيارتها إلى حيث مدرسة ابنها أسامة وعمر الدالي يتبعها، فدخلت المدرسة، ثم خرجت به على الفور، ولما ينته يومه الدراسي بعد، لكن أغرب شيء هنا أنها لم تذهب وابنها إلى شقة البنفسج بل إلى شقة أوسيم الصغيرة.

وحرص عمر في اليوم التالي على أن ينتظرها أسفل العمارة منذ الصباح الباكر، ومكث طويلا فلم يرَ ابنها أسامة نازلا لمدرسته، ولم يرها أيضا إلا في

تمام الساعة الواحدة.. نزلت مسرعة مهملة في ثيابها والتوتر يجلو وجهها، فقادت سيارتها حتى أسفل شقة البنفسج بالتجمع وخلفها عمر بسيارته، فإذا بها لا تصعد للشقة بل خرجت من السيارة، واتجهت لتتحدث مع رجال شرطة ومعهم خمسة رجال بملابس مدنية كانوا في انتظارها بالشارع.

وما هي إلا دقيقة سمعت فيها لأحدهم وكان يتكلم بثقة واتزان، فإذا بها تصرخ صراخا متواصلا بلا انقطاع، ثم ارتمت بالأرض تلطم خديها ولا تتوقف عن ذلك، واجتمع حولها جمعٌ كثير من سكان وأهل هذه المنطقة الراقية يحاولون تهدئتها.

وخرج عمر من سيارته حذرا يتقصى الأمر، فعرف الفاجعة التي حدثت للست شيرين، عرف أن زوجها السوري قد احتال عليها وخدعها بطريقة ما، فحصل بذلك على شقتها وعلى المطعم وعلى كل أموالها بالبنوك بموجب توكيل رسمي منها له، فباع الشقة والمطعم لنفسه ثم للغير، وجمع كل الأموال لنفسه، واختفى دون أي أثر له.

وأخرجت الست شيرين ابنها أسامة من مدرسته الخاصة إلى مدرسة حكومية بأوسيم، وراحت تعيش بعد ذلك أسوأ أيامها مع فجيعتها، وكلمها أتاها اتصال على هاتفها بدون اسم أسرع تَجيب، فلعل أحدا من الشرطة يتصل ليخبرها بجديد، أو قد يكون رجل شنباري عزمي شاهين قد وصل بنفوذه إلى السوري، وهي قد تعودت مع هذا الرجل الغامض أن يهاقها من

أرقام جديدة باستمرار، أو ربما كان السوري نفسه قد تاب الله عليه، فأراد أن يرد الحق لأصحابه.. وحدث أن جاءها ذات يوم على الهاتف رقمٌ بلا اسم، فأسرعتُ تجيب فكان صوت حمزة يقول لها:

- زوجة أبي.. كيف حالك؟

قالت غاضبة:

- ماذا تريد مني؟

- أريد أن أطمئن عليكِ

- أنا بخير

- كيف تكونين بخير وقد خسرتِ كل شيء؟

فسكتت لحظة ثم عادت تقول:

- لا أفهم قصدك

- زوجك السوري الذي سلمته أموال أخي أسامة التي ورثها عن أبي..

ما أخباره؟

- كيف عرفت؟

- هل هذا ما يهملك؟

- هل تراقبني؟

- دعك من ذلك.. ما يهمني الآن أنني أريد رؤية أخي

فراحت تصرخ غاضبة:

- اتركني في حالي.. لا تتصل بي ثانية

فصرخ فيها حمزة:

- لماذا تتعاملين معي هكذا؟.. لماذا دائماً تهربين مني؟

- اتركني في حالي أرجوك

- أريد رؤية أخي.. ألا تفهمين؟

فقال بغضب:

- ماذا تريد من ابني؟.. اتركنا في حالنا

- وماذا فعلتُ أنا لك لتقولي لي ذلك؟.. ماذا؟

- لم تفعل شيئاً.. لكن اتركني واطرك أسامة في حاله

- أليس أسامة أخي ومن حقي أن أراه؟

- يا حمزة أرجوك اتركني.. مع السلامة

- لا تغلقي وإلا.....

- وإلا ماذا؟

- سأخبركِ في وقتها
- فصاحتُ به:
- ماذا تريد مني؟
- أريد أن أسألكِ سؤالاً واضحاً
- اسأل
- أين كنتِ عصر يوم الحادث وقبله بيوم؟
- أي حادث؟
- يوم مات ميسرة وأسعد صاحبه
- هل تقصد يوم قتلتهما؟
- لم أقتلهما
- الناس كلها تعرف أنك قتلتهما وقتلت أباك
- هذه ليست الحقيقة
- إذاً ما الحقيقة؟
- الحقيقة أنتِ تعرفينها
- ماذا تقصد؟

- أنتِ تعرفين قصدي

- أنا لا أعرف شيئاً

- قريباً ستعرفين

قالها حمزة ثم أنهى الاتصال، فاتصلتُ به على الفور، فلم يرد، وأغلق
هاتفه



الفصل الرابع عشر

وقرر عمر الدالي أن ينتقل ليراقب الست سامية، وبدأ فعلا، وكانت الست سامية قد انتقلت للخدمة في بيت آخر من بيوت الزيدية، وكانت تبيت في هذا البيت كل يوم في الغالب، ولذلك كان من الصعب ومن غير المُجدي أيضا مراقبتها، فهي لا تخرج من بيت الخدمة إلا لشراء ما يلزمه البيت من سوق القرية، ثم تعود بسرعة دون أن يكون حولها أية شبّهات، ولذلك رأى عمر أنه لا حاجة إلى مراقبتها بعد ذلك.

وفي هذه الأثناء بينما كان حمزة يفكر في الاتصال بعمته وعد للاطمئنان على زوجها، فإذا بها تتصل به، وكان هذا شيئا غريبا بالنسبة له.. أجاب الاتصال فسمعها تقول له برفق وحنان لم يعهداهما منها:

- السلام عليكم يا حمزة

- وعليكم السلام يا عمتي

- كيف حالك؟

- الحمد لله

- ما أخبارك في الكلية؟

- بخير الحمد لله

- لماذا لم تسأل علينا يا حمزة منذ آخر مرة زرتَ زوج عمتك في المستشفى؟..

هل نسينا؟

فاستغرب حمزة كثيرا، وقال:

- لا لم أنس.. ولكنني مشغول في الدراسة والمذاكرة

فسكتت العمّة وعد لحظة ثم قالت:

- ربنا يوفقك.. عمو ما أنا اتصلتُ بك لتتغدى معنا غدا

وعاد حمزة يستغرب كثيرا، وقال لها محاولا الاعتذار:

- سامحيني يا عمتي.. عندي مذاكرة كثيرة غدا.. لن أستطيع الحضور

فقالت عمته تصر عليه للذهاب:

- اترك كل شيء وراءك وتعال غدا على الغداء يا حمزة

- لن أستطيع

- من أجل عمّتك تعال .. سنتظرك

- عندي أشغال كثيرة ولن أكون في الزيدية غدا

وناولت العمّة هاتفها بجانبها لزوجها المهندس مهدي ليقنعه:

- أهلا يا حمزة

- كيف حالك؟

- بخير

- سنتظرك غدا يا حمزة على الغداء

واضطر حمزة أن يوافق، وجاء الغد، وذهب على الغداء ويده علبة حلويات شرقية اشتراها من أفضل محل للحلويات بالجيزة، وما إن رآته وجدان ابنة عمته حتى تهلل وجهها، ورحّبت به ترحيبا غريبا مبالغا فيه، وأحسّ حمزة نفسه وعلبة الحلويات بيده كما لو كان خاطبا ذهب لخطبة وجدان، فعتب على نفسه أن اشترى لهم شيئا، لأنهم ظنوه اشتراها من أجل وجدان، وليست وجدان بذهن حمزة، ولا ألف وجدان مثلها.

وجلسوا جميعا للغداء، لكن محمود كان يجلس بينهم صامتا بوجهٍ شاحب ونفسٍ منكسرة، ولم يأكل إلا القليل، ثم تركهم وأسرع إلى غرفته.. سأل حمزة:

- لماذا أرى محمود شاحب الوجه؟.. هل هو مريض؟

فأسرعت العمة تقول:

- لا ليس مريضا.. هذا من كثرة المذاكرة

- ربنا يوفقه.. صحيح يا عمتي نسيْتُ أنْ أسأل.. ما الكلية التي دخلها

محمود؟

سأل حمزة سؤاله فكأنها صاعقة من السماء قد وقعت على العمة وزوجها المهندس مهدي، ونظرت وجدان لهما ثم لحمزة ولم تنطق، إنما أسرعت العمة تقول:

- ألم تعرف يا حمزة؟

- ماذا أعرف؟

- محمود أجّل الامتحانات العام الماضي.. لا يزال في الثانوية العامة

وبالطبع فإنَّ حمزة قد وصله من بعض أقرانه من شباب الزيدية حقيقة تعاطي محمود للمخدرات ورسوبه، لكنه تعمّد أنْ يسأل ليستمتع بتلك اللحظة التي يسمع فيها كذب عمته، ولم يُظهر لها أنه يعرف الحقيقة، وراح يسألها:

- ولماذا أجّل يا عمتي؟

- لأنه مرض مرضا شديدا قبل الامتحانات في العام السابق

- إن شاء الله سيوفق في هذا العام
- أنتَ تعرف الحسد يا حمزة.. الحسد قد يُورد المحسود القبر
- معكِ حق.. أنا أعرف عن محمود أنه متفوق منذ أيام المدرسة الابتدائية
- وهنا تدخل زوج عمته فقال:
- كل شيء قسمة ونصيب يا حمزة
- ربنا يوفقه إن شاء الله
- وابتسمت العمة لحمزة وقالت له وهي تقرب له طبقا مليئا باللحوم:
- سأطلب منك شيئا يا حمزة.. ليس من أجلي.. إنما هو من أجل محمود
- وسكتت قليلا ثم ابتسمت ابتسامة أكبر وهي تنظر إلى وجدان، وقالت:
- ومن أجل وجدان أكثر
- فنظر لها حمزة متوجسا وقال:
- ما هو؟.. تفضلي اطلبي
- وجدان ومحمود هما الاثنان بالقسم العلمي علوم.. نفس قسمك الذي
- تفوقت فيه.. أريد منك أن تساعدنا
- فتعجب حمزة وقال:
- لا أفهم قصدك

- أريدك أن تجلس معها وتساعدكما في مذاكرة دروسهما.. أريدهما أن يتفوقا مثلك

- لكنني مشغول بدراستي

فنظرت له مبتسمة وقالت:

- لن أقول: افعل ذلك من أجلي.. بل من أجل وجدان ومحمود

ولم تتركه العمة وعد حتى وافق، وهو قطعاً لم يوافق من أجلها، إنما من أجل محمود، ثم تأتي وجدان معه، وصار يذهب لهما يوماً أو يومين في الأسبوع، وبالطبع دون أجر، ومع الوقت بدأ محمود بمساعدة حمزة وحديثه معه يتحسن حاله ويروق مزاجه النفسي، ويتقدم في دراسته، وبدأ يُقلع عن الإدمان شيئاً فشيئاً، وكان لا بد أن يخبره حمزة بأنه يعلم بموضوع إدمانه حتى يتسنى له أن يعينه في الإقلاع عنه.

وقد حدث ذات يوم أن استغل حمزة انشغال وجدان بتحضير الطعام مع أمها، فراح يحث محمود على ترك الإدمان والاهتمام بصحته ونفسه للعودة إلى طبيعته وتفوقه، وكان مما قاله له:

- يا محمود.. أنت عاقل ومؤدب وطيب ومتفوق.. فكيف حدث لك ذلك؟

فقال له محمود بصوتٍ ضعيفٍ مهموم:

- أصدقاء السوء يا ابن خالي

- وأين إرادتك يا محمود؟ .. أين قوتك؟
- الإدمان لا تنفع معه قوة أو إرادة
- أنا أقصد كيف طاوعتَ نفسك من البداية؟
- البداية كانت بسيجارة والله يا حمزة
- ألم تعلم يا محمود حين أمسكتَ بالسيجارة أنَّ التدخين هو الباب الذي يدخل منه المدخن إلى عالم الإدمان؟
- يا حمزة .. كل المدخنين يسمعون هذه الجملة وتلك الشعارات .. ومع ذلك يستمرون
- أنا والله لا أرى أية فائدة من التدخين يا محمود
- ولا أنا والله
- إذاً لماذا فعلتَ بنفسك ما فعلتَ؟
- فضحك محمود وقال له:
- لا تقنعني يا حمزة بأنك لم تدخن من قبل
- أنا فعلاً لم أدخن من قبل نهائياً
- كيف؟ .. لقد عشتَ سنوات في دار الأحداث .. فهل خرجتَ منها دون أن تدخن أو تشرب مخدرات؟

- هذا بالفعل ما حدث

- كيف؟

- بالعزيمة والصبر والأمل يا محمود.. أنا دخلتُ للأحداث مظلوما..
ووضعتُ أمامي هدفاً أن أخرج منها كما دخلتها.. وبالفعل خرجتُ منها كما
دخلتها والحمد لله

فسكت محمود برهة كأنها راح يدير الكلام في رأسه ثانية، ثم سأله بعد
تردد:

- كيف دخلتها مظلوما يا حمزة؟.. وأخوك ميسرة وصاحبه
وأبوك.....؟

وقاطعه حمزة قائلاً بغضب:

- حتى أنت يا محمود!!.. أنا لم أقتل أحداً يا ابن عمتي
- كيف؟

- ستعرف قريباً إن شاء الله

وجاءت وجدان عند ذلك، فاضطرا لقطع حديثهما هذا، واستكمل
الثلاثة المذاكرة.

وفي وقتٍ لاحقٍ ذهب حمزة ليذاكر لهما، ولم يكن محمود موجوداً، كان
مع أبيه عند الطبيب، فأراد حمزة الانصراف على أن يأتيهم في وقتٍ آخر،

لكن عمته أصرت عليه أن ينتظر محمود، فاضطر إلى البقاء، وتركتهما العمّة
لتحضير الطعام، فقالت الفتاة وجدان حمزة:

- لقد تحسّن مستواي كثيرا على يديك يا دكتور

- الحمد لله يا وجدان

- وأخي محمود أيضا تحسّن كثيرا

- الحمد لله

وسكت حمزة، ثم راح ينظر بالكتاب أمامه يريد أن يستكمل شرح درس
في الكيمياء فنظرت له وجدان قائلة بابتسامة جميلة:

- ألا تملُّ من المذاكرة؟

- أنا هنا لأذاكر لكما يا وجدان.. أريد أن أساعدكما لتتفوقا

فابتسمت وجدان وقالت له:

- لكنني لا أريد منك ذلك يا حمزة

فنظر لها باستغراب يسألها:

- ما قصدك؟.. لم أفهمك

فضحكت وقالت بجرأة:

- أريد منك شيئا آخر غير المذاكرة

- ما هو؟

- قلبك

فأغلق حمزة الكتاب وقال:

- ماذا تقولين؟!

فأسرعت تقول:

- لا شيء يا حمزة.. لا شيء

فقال لها بحدة:

- لا تعودى لمثل هذا الكلام أبدا يا وجدان

فشعرت بالخجل وقالت له:

- أنا آسفة يا حمزة

فقال:

- لا عليك.. هيا لنعد إلى المذاكرة

فقالت تسأله سؤالاً آخر:

- ألم تحب من قبل يا حمزة؟

وهنا وقف حمزة قائلاً لها:

- أنا ذاهب الآن.. فأخبري عمتي أنني ذهبتُ لأننا انتهينا من المذاكرة

وأخبرت وجدان أمها بما حدث كما حدث، فقد كانت العمّة على علم بما ستفعله وجدان لأنها هي مَنْ شجعتها على ذلك، فالعمّة تريد بالطبع ألا يضيع منها حمزة بتفوقه ووسامته وأمواله الكثيرة التي ورثها، ومَنْ أحق بكل ذلك غير ابنتها الحبيبة وجدان؟

وهذا لا يمنع أن تكون وجدان بالفعل قد أحبته إلى درجة العشق، أجل هذا ما حدث، وأخبرت أمها بذلك، وهذا ما جعل أمها بعد أن كانت نافرة منه تعود فتتقرب إليه بكل وسيلة، فإنَّ قلب ابنتها عنده، كما أنها وجدت أنَّ شفاء ابنها ونجاحه سيكون بحمزة، ولذلك اتصلت به، وجاءت به إلى البيت الذي أغلقته في وجهه كثيرا، بل وذهبت له بنفسها تحمل له الطعام إلى بيته أكثر من مرة.

وها هي بعد أن اعتذر مرتين متتاليتين عن الذهاب لبيتها إذا بها تُرسل له طعامه مع وجدان نفسها.. كان في بيته نائما بعد أن عاد من كليته فإذا باتصال من العمّة له.. أجاب فسألته:

- أين أنت يا حمزة؟

- أنا في البيت

- لماذا لا تأت؟

- أنا متعب اليوم يا عمّتي.. قد آتي غدا

- ألف سلامة لك يا حبيبي

قالتها فسكت حمزة ولم يتكلم، إنما راح يردد الكلمة في نفسه:

- (يا حبيبي!!.. يا حبيبي!!)

ولم ينتبه لبقية كلامها حتى أغلقت معه، فعاد يحدث نفسه ويتعجب من تلك المرأة العجيبة عمته.. كيف كانت؟.. وإلام صارت؟.. ومنذ متى وهي تناديه بـ (يا حبيبي)

وبالطبع فإن حمزة شابٌ ذكي، ويعلم جيدا أن هذا التغير من عمته، وهذا الحب الطارئ الجديد منها، والاهتمام الزائد به لم يكن شيئا نابعا من داخلها نقيا صافيا، فإن عمته بكل أسف تملك شخصية من تلك الشخصيات التي توصف بالدناءة والخسة والنذالة كأقل وصف من الأوصاف السيئة، ولهذا ظلَّ يتعجب كثيرا في النهاية، ليس من صفاتها تلك، بل من شيء آخر، وهو كيف لأبيه الحاج شلبي الذي كان رجلا كريما نبيلًا طيبًا أن يكون له أخت بهذه الطباع المنفرة البغيضة.

واتصل الفتى بالأستاذ حسن ليخبره بذلك، فضحك الأستاذ حسن كثيرا، وقال يمازحه:

- أو ليست وجدان فتاة جميلة يا حمزة؟

فأجاب حمزة ضاحكا:

- بلى هي جميلة جدا

- إذاً على البركة يا فتى.. متى تريد أن آتي معك لخطبتها؟

فقال حمزة بضحكته الجميلة:

- والله لا أفعل ذلك أبداً ولو لم يوجد بالدنيا فتيات إلا هي

- لم؟

- لسبب واحد

- ما هو؟

- أن لها أماً هي عمتي وعد

- الفتاة مسكينة يا حمزة.. لا تأخذها بجريرة أمها

- أعرف أنك تمزح يا أستاذ.. لكن صدقا والله.. إن وجدان فعلا فتاة

رقيقة وذكية وجميلة وطيبة.. ولكن.....

فضحك الأستاذ حسن وقاطعه قائلاً:

- بدون لكن.....

وفي هذا الوقت كان صوت جرس الباب يدق، فاستأذنه حمزة كي يخرج

ليفتحه وهو معه على الخط.

فتح حمزة الباب ففوجيء بوجودان أمامه قد جاءته بالطعام، فاستدار

سريعا وهو ممسك بهاتفه وتركها واقفة بالباب وابتعد قليلا، وقال للأستاذ

هامسا:

- إنها وجدان يا أستاذ.. وجدان وحدها بالباب

فانخرط الأستاذ حسن في الضحك وقال له:

- مؤكد أنها جاءتك بالذ الطعام.. هنيئاً لك يا فتى

فعاد يهمس له:

- أجل أجل في يدها شيء أظنه طعام لي

- ما شاء الله.. من مثلك؟!!

- ماذا أفعل يا أستاذ؟

فقال الأستاذ حسن وهو لا يزال يضحك:

- خذ الطعام واشكرها.. لكن لا تدخلها البيت

- حاضر

- وهيا أغلق الآن يا حمزة.. ثم لا تنس أن تخبرني بما حدث

و أغلق حمزة معه ثم أسرع عائدا لها وقال:

- أهلا يا وجدان

فابتسمت وقالت:

- لقد أرسلتني عمك بطعام لك

- شكرا.. لكن لا تفعلها ثانية

- لماذا تقول ذلك؟

- لا أريد أن أتعبها معي.. غالبا أنا آكل بالخارج أثناء رجوعي من الكلية.. وأحيانا أطبخ لنفسي

فقلت وجدان بابتسامة جميلة:

- بجد!.. أنتَ تطبخ لنفسك؟!

- أجل

- ما شاء الله عليك

- شكرا

ومدت يدها بالطعام له وهي تقول:

- أنا من أعددتُ هذا الطعام من أجلك يا حمزة.. أرجو أن يعجبك

- شكرا لك

قال ذلك وهو يتناولهُ من يدها، ووضعهُ بجانب الباب ثم انتظر منها أن تنصرف، فظلت واقفة، ولم يعرف ماذا يقول وكيف يتصرف، فإذا بها تقول له:

- أَلن تقول لي تفضلي ادخلي؟

فتلثم لسانه وتذكر نصيحة الأستاذ حسن بألا يُدخلها البيت، فاستجمع قواه وقال لها:

- لا يصح أن تدخلي يا وجدان.. أنا وحدي بالمنزل

فابتسمت وجدان وقالت له:

- وماذا في ذلك؟! .. أنا أثق بك.. أعرف أنك محترم ومؤدب

- لكن لا يصح أن تدخلني يا وجدان وأنا وحدي.. أنا آسف

فاحمرَّ وجه الفتاة، وقالت له في حزنٍ وضيقٍ:

- أنا ذاهبة يا حمزة

وعادت وجدان لأُمها، وقصَّت لها كل شيء وكل كلمة وهي تبكي
بشدة، فاحتضنتها أمها وقالت:

- لا تُحزني نفسك يا حبيبتى.. ولا تقلقي.. فعندما يفكر فيما فعله لا بد
أنه سيأتي نادما ويعتذر لكِ

فعلا صوت بكاء الفتاة وقالت:

- إنه لا يراني أبدا يا ماما.. ولن يراني أبدا

- وهل هناك أجمل منك في الناحية كلها يا قمر؟

- حمزة لا يهمه جمال ولا أي شيء.. حمزة نوع آخر من الناس يا ماما

- يا حبيبتى يا بنتي

وسكت الاثنان، ثم نظرت وجدان لأُمها قائلة:

- أنا أحبه يا ماما.. أحبه فعلا.. لا يمكنني أن أعيش بدونه

فقالَت الأم غاضبة:

- وأنا سأجعله يأتي لكِ زاحفا

فقالَت وجدان بلوعةٍ وحب:

- أمي أنا أريده أن يأتيَني محبا كما أحبه.. لا أفهم معنى كلامك هذا

قالَت وجدان ذلك، ثم عادت إلى بكاءٍ أشد، وأمها تحاول تهدئتها، لكنها استمرت في البكاء دون انقطاع، ثم أسرعَتْ إلى حجرتها، فأغلقتها على نفسها، وظلت تبكي حتى نامت.

واتصلت أمها بحمزة وهي غاضبة كل الغضب.. قالت له:

- ما هذا الذي فعلته مع ابنتي؟

فاستغرب حمزة لسؤالها فسألها:

- ماذا فعلتُ أنا مع ابنتك؟!

- ألا تعرف؟

- نعم لا أعرف

- كيف تتركها واقفةً بالبواب؟

- وماذا كان يجب عليَّ أن أفعل؟!

فقالت غاضبة بصوتٍ عالٍ:

- أن تقول لها تفضلي.. وتفرش لها الأرض وردا لتدوسه بقدمها
فقال حمزة لها بهدوء:

- طبعاً وجدان تستحق ذلك وليس بكثير عليها

- إذاً لماذا أخرجتها.. لماذا لم تجعلها تدخل بيت خالها؟

- أنا معك هو بيت خالها.. ومن حقها أن تدخله في أي وقت مناسب..

أما عندما أكون وحدي بالبيت.. فلا يصح أن تدخله فنكون أنا وهي
وحدنا.. فهل فهمتني؟

فقالت بنفس صوتها الغاضب:

- وجدان بنت محترمة ومترية جيداً.. فلا تقل مثل هذا الكلام

- ليس معنى كلامي أنها غير محترمة.. وأظنك تفهمين قصدي

- ما أفهمه أنك قليل الأدب والذوق

- لستُ كما تقولين يا عمتي.. ونصحتي لك ألا تغفلي عن رعاية ابنك

وابنتك.. فالغفلة تجعل القلوب محتومة بكل أسباب الخطر.. فاحذري

- ومن أنت حتى تنصحنني أيها الشيطان القاتل؟

فأحسَّ حمزة بغضبٍ شديدٍ وقال:

- لا تقولي ذلك لي مرة ثانية يا عمتي

- وأنتَ لا تتعامل مع ابنتي بنفس الطريقة مرة ثانية

- لن أتعامل نهائيا معها.. ولن أدخل بيتكِ نهائيا بعد ذلك.. فهذا أفضل لي ولكِ ولها

- أنتَ فعلا نذل حقير.. تتخلى عن بنت عمّتك وابن عمّتك وهما يحتاجانك

- دعيني أخبرك بشيء يا عمّتي

- قل أخبرني

- أنا لستُ نذلا أو حقيرا ولستُ قليل الأدب والذوق.. ولو كان الأمر بيني وبين محمود أو وجدان وفقط ما تخلّيتُ عنهما أبدا.. لكن هناك حاجزا كبيرا بيني وبينهما.. هناك حائطٌ سيظل يفصلني عنهما.. أتعرفينه يا عمّتي؟.. إنه أنتِ

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنكِ عشتِ تنظرين لي منذ الحادث على أني تربية أحداث وإنسان شؤم.. وعندما خرجتُ من الأحداث لم تأتي لتزوريني أو تتصلي بي.. وعندما نجحتُ فرح الكل بي ولي إلا أنتِ.....
فقاطعته قائلة:

- ألا تعرف السبب؟

- ما السبب؟

- السبب أنك قتلتَ ابن أخي ثم قتلتَ أخي.. فكيف أصفو لك.. كيف
أسامحك؟

فضحك حمزة ضحكة ساخرة وقال:

- ولماذا سامحتني الآن؟

- هل تريد الحقيقة؟

- نعم أريدها

- سامحتك فقط من أجل مصلحة ابني وابتني.. فأنا أفعل أي شيء من
أجلهما

- أي شيء يا عمتي؟

فسكتت العمّة قليلا، ثم قالت بكل إصرار:

- أي شيء يا حمزة.. وأنا أحذرك.. فاعلم هذا

فضحك حمزة ضحكة ساخرة وقال:

- أنا فعلا كنتُ أشك في هذا.. والآن قد تأكدتُ وفهمتُ كل شيء

- ماذا فهمت؟

فقال حمزة غاضبا:

- فهمتُ كيف قتلْتُ أنا أخي.. وكيف تمَّ قتل أبي ثم كيف تمَّ اتهامي؟

فأسرعتُ تسأله باستغراب:

- ماذا تقصد؟

- ألا تعرفين ماذا أقصد؟

فقالت غاضبة بصوتٍ صارخٍ:

- لا أعرف.. فهيا قل كل ما عندك

فقال حمزة بصوتٍ يحمل كثيرا من التحدي:

- فقط أريد أن أسألك سؤالا واضحا

- اسأل

- أين كنتِ عصر يوم الحادث وقبله بيوم؟

- أي حادث؟

- يوم مات ميسرة وأسعد صاحبه

- هل تقصد يوم قتلتهما أنت؟

- لم أقتلها

- الناس كلها تعرف أنك قتلتها وقتلت أباك

- هذه ليست الحقيقة

- إذاً ما الحقيقة؟

- الحقيقة أنت تعرفينها

- ماذا تقصد؟

- أنت تعرفين قصدي

- أنا لا أعرف شيئاً

- قريباً ستعرفين

قالها حمزة ثم أنهى الاتصال، فاتصلت به على الفور، فلم يرد، وأغلق

هاتفه .



الفصل الخامس عشر

- أرى أنك قد أخطأت في أمرين يا فتى

قالها الأستاذ حسن لحمزة، فأجاب حمزة:

- ما هما يا أستاذي؟

- الأول: أنك أخبرت الست شيرين وعمتك وعد بأنك تشك فيهما..

أخبرتني قبل أن تتأكد وقبل أن نطلب من الشرطة توفير الحماية لك

- وما المشكلة في ذلك؟

- المشكلة أنك جلبت إلى نفسك الخطر يا حمزة وقد كنت قد طلبت منك

أن تؤجل ذلك.. فأنا أخشى عليك أن تكون إحداهما المرأة المجرمة المقنعة

فتحاول أن تؤذيكَ لتدفن جريمتها إلى الأبد

- هذا هو الأمر الأول يا أستاذي.. فما الأمر الثاني؟

- أنك أسأت إلى عمته يا حمزة ولم تتأكد بعد أنها المجرمة

فقال حمزة بأدبٍ شديدٍ:

- حفظك الله يا أستاذي الحبيب.. والحمد لله أن جعلك لي ناصحا ومعينا.. لكن بالنسبة للأمر الأول.. فأنا قد اضطررتُ إلى فعل ذلك.. خاصة أنهما والله قد استفزتاني ولم أستطع منع نفسي من قول ما قلته لهما.. وأيضا أردتُ أن أستفزهما.. فقد فكرتُ أنه إذا كانت المكنّة إحداهما فستأتي وتحاول أن تقتلني.. وبذلك تكشفها.

فسكت الأستاذ حسن قليلا، ثم قال لحمزة:

- هذا شيء جيد فعلا ونحتاجه.. لكنه مقلق أيضا كما أخبرتك.. فقد بدأتُ أخاف عليك يا حمزة.. لا تنس أنك تعيش وحدك في البيت

- لا تقلق.. فالله خيرٌ حافظا

- والأمر الثاني يا حبيب.. هو إساءتك لعمتك.. لماذا فعلتَ ذلك؟

- عمتي هي من أساءت لي كثيرا وظلمتني كثيرا يا أستاذ حسن

- لا يجب علينا يا حمزة أن نرد الإساءة بإساءة والظلم بظلم إذا كان في مقدورنا أن نعفو

- هل نعفو عن قاتلة؟!

- وهل تأكدت أنها قاتلة؟

- لا.. لكن ماذا لو كانت هي المرأة المُقَنَّعة القاتلة؟.. هل معنى ذلك أنْ
نعفو عنها؟

- لا طبعا يا حمزة.. القتل أمر مختلف

فسكت حمزة قليلا يفكر، ثم قال:

- مع حضرتك حق يا أستاذي.. وبالنسبة لعمتي ولزوجة أبي يمكنني أنْ
أعتذر لهما إنْ ظهر بعد ذلك أنهما بريئان

- خيرا تفعل يا حمزة.. ودائما احرص على أنْ تراعي الله في كل شيء

- حاضر

ووقف الأستاذ قائلا له:

- هيا بنا الآن إلى الحبيب عمر الدالي.. أم هل نسيت أنه دعانا على الغداء
اليوم في بيته؟.. لكن لا تخبر زوجته ريم بأنك تشك في ريهام هانم.. لا تنسَ
أنها أمها

- لا تقلق.. لن أنسَ ذلك

وذهب الاثنان إلى بيت عمر وريم.. دخلا المصعد ثم خرجا وضغطا
جرس الباب، فإذا بالحماة ريهام هانم تفتح الباب، فوجدها حمزة في وجهه،
فكانت مفاجأة له غير سارة، فلزم الصمت في حين قال الأستاذ حسن:

- السلام عليكم.. أليست تلك شقة الأستاذ عمر الدالي؟

فأجابت بطريقة جامدة وعيناها على حمزة:

- نعم هي.. تفضل يا أستاذ.. هو بانتظارك

وإذا بعمر الدالي يظهر وراءها، فيرحب مسرعا بالضيفين قائلا:

- مرحبا بأستاذي.. مرحبا بالدكتور حمزة.. تفضلا

ورمقت ريهام هانم زوج ابنتها بنظرة حادة غريبة أن نادى حمزة بالدكتور، ثم دلفت إلى الداخل وخرجت ريم مسرعة فرحبت بالضيفين، ثم عادت مسرعة إلى المطبخ.

جلس الرجال يتحدثون في مواضيع مختلفة، منها ما يتعلق بالأدب والثقافة ونشر الكتب، ومنها ما يتعلق بدراسة الطب، ثم خرجت لهم ريم بعصائر وقهوة للأستاذ حسن، وكان بصحبته ريهام هانم التي جلست وسألت حمزة:

- ما أخبار دراستك؟

قال حمزة مبتسما ابتسامة لا بد منها:

- الحمد لله.. كل شيء بخير

- وأرضكم.. من يراعيها ويراعي زراعتها؟

- عمي السيد المتولي جارنا

- وهل تثق في هذا الرجل؟

- هو رجل أمين.. كان صديقا لوالدي الله يرحمه

- ذكرتني بوالدك.. ألف رحمة عليه.. لم يستحق أن يموت بهذه الطريقة

ونظر حمزة إلى الأستاذ حسن وعمر وريم ثم سكت، فقال الأستاذ حسن:

- ماذا تقصدين يا ريهام هانم؟

فقالت المرأة بجرأةٍ ودون تفكيرٍ:

- أقصد أنه لا يستحق أن يموت مقتولا بيد أقرب الناس إليه

فقال الأستاذ يسألها:

- مَنْ تقصدين؟

فقالت بلا خجلٍ ودون تراجعٍ:

- أقصد بيد هذا الشاب الذي يجلس بجوارك

فنظر لها الأستاذ حسن نظرة غضبٍ، لكنه تمالك نفسه بقدر ما استطاع

وقال لها:

- أمر غريب أنك لا زلتِ تتذكرين ذلك وتعيدينه باستمرار.. لقد نسي

الجميع ما حدث.. فقد مرَّ على ذلك سنوات وسنوات.. ومَنْ يحب حمزة

ويعرفه جيدا يثق بأنه لم يفعل ما تظنينه.. وعموما الله يرحم الحاج شلبي

وينتقم من القاتل

فنظرتُ له المرأة، وسألت بجرأةٍ أكبر وبابتسامةٍ غريبة:

- ألا تعرف سيادتكَ أنَّ القاتل هو هذا الشاب الذي يجلس بجانبك؟

فاحمرَّ وجه حمزة غضبا، وشعرت ريم ومعها عمر بخجل شديدٍ وآلمهما ما تقوله ريهام هانم، وأراد حمزة أن يتكلم، فأشار له الأستاذ بأنَّ يصمت وقال:

- ريهام هانم.. حمزة لم يقتل أباه.. اعلمي هذا.. واعلمي أيضا أنَّ القاتل الحقيقي على وشك أن يكشفه حمزة.. وأرجو وقتها أن تعتذري له عن هذا الكلام

فقالت ريهام هانم مسرعة وقد تغيرت ملامح وجهها:

- القاتل الحقيقي!!

- أجل.. فإنَّ حمزة بريء من قتل والده كما قلتُ

- وما الذي جعلك متأكدا من براءته هكذا يا أستاذ؟

- لأنني أثق بما يقوله حمزة

- وأخوه وصاحبه.. من قتلها؟

- أنا معك.. حمزة هو من قتلها.. لكنه قتلها بالخطأ دون قصد.. هناك

من دبَّر الأمر ليبدو وكأن حمزة هو من قتل.. وستصل الشرطة قريبا لمن فعل ذلك عندما يمدّها حمزة بمعلومات هو على وشك الوصول لها

فتغير وجه المرأة أكثر وقالت:

- هذا كلام غريب أسمعه لأول مرة

والتفتت لابنتها ريم وقالت:

- هل كنتِ تعرفين هذا الكلام يا ريم؟

فنظرت ريم لزوجها عمر وقالت:

- نعم أعرف أنّ حمزة ابن عمتي بريء.. فأنا أثق به كثيرا

فقالت المرأة وكأنها لا تصدق ذلك:

- ومتى تظهر الحقيقة التي نتحدثون عنها؟

فقال عمر:

- قريبا

- وهل تعرفون أنتم الفاعل الحقيقي؟

فأسرع الأستاذ حسن يقول:

- حمزة يشكُّ بشخص معين ولم يخبر أحدا فينا.. يريد أن يتأكد أولا

فأصاب المرأة كثير من الحيرة وقالت تسأل:

- ومتى يتأكد؟

فتوجه الأستاذ لحمزة وسأله:

- متى تتأكد من القاتل يا حمزة؟

فتردد حمزة قليلا، ثم قال بعد أن فهم مقصد الأستاذ حسن:

- قريبا جدا

وعند ذاك نهضت ريهام هانم تستأذنهم بالانصراف قائلة:

- ليت ما تقولونه يحدث.. نحن جميعا نتمنى ألا يكون حمزة هو القاتل حتى يمحو هذه البقعة السوداء من سجل حياته

وراح عمر وريم يطلبان منها أن تبقى لتناول الغداء معهم، ولكنها أصرت على الذهاب، ثم أسرعَت ريم إلى المطبخ، فأسرع الأستاذ حسن يقول لحمزة بصوتٍ منخفضٍ:

- كان معك حق يا حمزة.. يجب أن نستفز كل من نشك بها منهم حتى نستدرجها إليك هناك في بيتك.. فكن مترقبا

وقال عمر الدالي مازحا:

- سيكون البيت عندك يا بطل أشبه بمصيدة فئران

وقال الأستاذ حسن:

- فعلا قد آن الأوان لأن تنكشف القاتلة.. فلا يجب أن يستمر هذا الغموض أطول من ذلك

- الحمد لله أنك اقتنعت بكلامي يا أستاذ حسن

- دائما أنت على حق يا حبيب

- تلميذك يا أستاذي

قالها حمزة، فابتسم الأستاذ حسن ثم قال جادا:

- إذاً عندنا الآن ثلاثة.. زوجة أبيك شيرين وعمتك وعد وريهام هانم..
ويبقى سامية وأختها هيام.. لا بد أن تحاول استفزازهما هما أيضا وزرع
الشك بداخلهما.. وقريبا سنرى مَنْ مِنَ النساء تلك ستحاول قتلَكَ يا بطل
لقتل الحقيقة

فأسرع عمر الدالي ينقل عينيه بين الاثنين متعجبا، ثم أسرع يقول مبتسما:

- لقد قلتما ريهام هانم !!.. هل تشكان في حماتي؟!

فضحك الأستاذ حسن وقال بصوتٍ منخفضٍ:

- أخفض صوتك أولا حتى لا تسمعك ريم

فضحك عمر الدالي وأعاد السؤال:

- أسألكما بصدق.. هل تشكان بها؟! أم أنكما تمزحان معي؟

قال حمزة بحذر:

- أنا أشك بها فعلا.. لكن بنسبة قليلة

فضحك عمر كثيرا وقال:

- ولم بنسبة قليلة يا فتى؟! أرجو أن تكون هي المرأة المُقنَّعة

وانخرط الجميع في الضحك، ثم قال الأستاذ حسن موجهها كلامه لحمزة:
- الشيء المهم أن أعود وأعيد عليك يا حمزة أن الشرطة لا بد أن تكون
على علم بكل خطواتنا القادمة خطوة بخطوة.. هذا لكي توفر لك حماية
سرية بينما تكون بيتك خاصة أثناء الليل.. وربنا يحفظك يا حبيب

ووافق الاثنان عمر وحمزة الأستاذ حسن على ذلك في الوقت الذي
خرجت إليهم ريم من المطبخ تسألهم إن كانوا يريدون تناول الغداء الآن،
وما أن رأوها حتى أسرعوا وحسبوا كلامهم وضحكاتهم، فسألتهن وقد
انتبهت لحالتهم تلك:

- علام كنتم تضحكون؟.. أريد أن أضحك معكم

فقال زوجها عمر:

- لا شيء لا شيء.. هيا سأساعدك في وضع الطعام على منضدة السفرة
وما أن صارت ريهام هانم بالشارع أسفل العمارة حتى أخرجت هاتفها
من حقيبتها وأجرت اتصالا عاجلا، ثم دخلت إلى سيارتها وجلست خلف
سائقها، وانطلقت السيارة بها وبغضبها إلى بيتها في أوسيم.

وهناك سألت المرأة زوجها الخال جعفر شعلان إن كان يعرف ما سمعته
ببيت ابنتها ريم فأخبرها أنه لا يعرف غير ما كان قد ذكره الحاج شلبي
في جلسة التصالح العرفية بأنه يشك في أن أمر قتل حمزة لميسرة وصاحبه

ورأوه جريمة وتدبير ما خاص بوضع الطلقات في المسدس، فقالت ريهام
لزوجها:

- ما شاء الله.. أنا آخر مَنْ يعلم

فقال الزوج جعفر:

- وماذا يفيدك معرفة ذلك؟

- ألسْتُ مِنَ العائلة.. كيف لريم وزوجها وها أنتِ أيضا تعرفون أشياء
لا أعلمها؟! لا أعلمها؟!

- لم نرد أن نشغلكِ بذلك

فقالت ريهام تسأله:

- وماذا تعلمون أيضا.. احكِ لي كل شيء

- أنا لا أعرف غير ما أخبرتكِ به وما أخبرتني به أنتِ الآن

فسكتت الزوجة ريهام ثم سألته:

- يقولون إنهم سيكشفون القاتل الحقيقي قريبا.. كيف؟

- ومن أين لي أن أعلم؟!!

- وهل الشرطة تبحث معهم الآن أم أنه مجرد كلام؟

- قلتُ لا أعلم

- هذا أمر غريب.. هل من الممكن أن يظهر بعد كل هذه السنين أن كل ما حدث وراؤه قاتل غير حمزة؟!

- والله أتمنى ذلك حتى تعرفي كم كنتِ تظلمينه

وعاد حمزة بعد الغداء إلى بيته بالزبدية.. لكن بعد أن جلس مع الأستاذ حسن وعمر أسفل شقة عمر بسيارة الأستاذ، فقد كانت هناك محاولات متتالية وإلحاح من الأستاذ حسن أن ينتقل حمزة للمبيت في مكان آخر حتى يتم طلب الحماية من الشرطة، وبعد إصرار من عمر أن يرافقه ويبيت معه في البيت، لكن حمزة رفض ذلك وأصرَّ على الذهاب لبيته والمبيت وحده مؤكداً أنه يريد ذلك لسرعة كشف القاتل، فاضطر الاثنان إلى موافقته مع توصيات ونصائح مستمرة منهما له خوفاً وقلقا عليه.. فكان مما قاله الأستاذ حسن له:

- أغلق عليك أبواب بيتك جيداً

- حاضر

- ولا تفتح لأحد أبداً أثناء الليل

- حاضر

- وحتى وإن طرق بابك بالنهار أحدٌ تعرفه أو لا تعرفه فلا تفتح لأحدٍ أبداً طالما أنك وحدك

- حاضر

- وإن اتصل بك أحد وهددك بشيءٍ فاحرص على أن تسجل رقمه

- حاضر

- وإن سألك المتصل: هل تعرف القاتل؟.. قل: قريبا سأعرفه.. فإن

سألك: وهل هناك غيرك يعرف القاتل؟.. قل لا.. ذلك لأننا نريد أن يظنَّ

القاتل أنك لم تخبر أحدا والحقيقة عندك وحدك ليظن أنه بموتك تموت

الحقيقة فيأتي إليك.. حفظك الله يا بني

- لا تقلق عليَّ يا أستاذ.. لم أعد طفلا صغيرا

- بل أنا قلق عليك جدا يا حمزة

وقال عمر الدالي مُحفّزا:

- حمزة رجل وذكي ولا خوف عليه إن شاء الله

وهنا اقترح حمزة شيئا ذكيا ضروريا لا بد منه وكان غائبا عن الجميع، وهو

تركيب كاميرات خارج البيت في كل مكان بطريقة ما بحيث لا يراها أو يعلم

عن وجودها أحد، فأسرع الاثنان يوافقانه في ذلك.

وسأل الأستاذ حسن عمر الدالي عن آخر ما وصل إليه من مراقبة الست

سامية وأختها هيام فقال عمر:

- راقبتُ في البداية سامية ولم يظهر عليها شيء غريب.. أما هيام فقد

انتظرتها ثلاثة أيام متتالية أمام عملها في مستشفى قصر العيني لكنني لم أرها

داخلة أو خارجة

- وماذا أيضا؟

- انتظرتها أمام بيت أهلها في سقيل ليومين آخرين.. ولم أرها خارجة أو داخلية أيضا

فقال الأستاذ حسن:

- ربما تزوجت وانتقلت إلى بيت زوجها ولم تعد تذهب لعملها
- ربما

قالها عمر ثم ابتسم قائلاً:

- ما رأيكما أن أراقب حماتي؟

فنظر حمزة والأستاذ حسن له، وقال الأستاذ مبتسماً:

- لسنا في حاجة لذلك.. ثم ربما تنتبه لك فيكون هناك مشكلة
وسأل حمزة عمر مازحاً:

- ماذا تفعل لو ظهر أن حماتك زوجة خالي هي المجرمة المُقنَّعة يا أستاذ
عمر؟

فضحك الأستاذ حسن وعمر كثيراً، وأجاب عمر:

- سأذبح عجلاً وأوزعه على الفقراء

فسأله الأستاذ حسن:

- ألهذا الحد تكرهها يا عمر؟!

- أنا أمزح يا أستاذنا.. لكن إن كانت هي المجرمة فطبعاً سأكرهها

وابتسم حمزة ابتسامة هادئة، وقال:

- والآن أريد رقم هيام أخت الست سامية لأتصل بها وأحاول استفزازها

واستدراجها

وعقب الأستاذ قائلاً:

- فعلاً لا بد من فعل ذلك خاصة أنك لم تستطع معرفة أي شيء عنها غير

مكان عملها وبيت أهلها

فقال عمر يسأل حمزة:

- هل معك رقم الست سامية؟

- أجل معي

- أعطه لي

فسأله الأستاذ حسن:

- ماذا ستفعل؟

- سأحاول الحصول منها على رقم أختها هيام

فسأل حمزة متعجبا:

- كيف؟!

- فقط أعطني الرقم وسترى

وأملاه حمزة الرقم، فإذا به يتصل بالست سامية في الحال:

- السلام عليكم يا ست سامية

- وعليكم السلام.. من معي؟

- أنا المهندس إيهاب المراكبي.. واحد من معارفي أعطى لي رقمك

- خيرا.. تفضل

- عمتي امرأة كبيرة في السن وتعيش وحدها في فيلا كبيرة في الزمالك..

ونريد منك الاعتناء بها أربع ساعات فقط في اليوم.. هذا مقابل راتب شهري كبير جدا لك

وظهر على الست سامية فرحتها بذلك وقالت:

- إن شاء الله.. أنا تحت أمركم لكن.....

وسكتت قليلا ثم قالت تسأله:

- لكن..... كم المرتب؟

- عشرة آلاف في الشهر

- أنا موافقة

- إذاً.. انتظري من عمتي اتصالاً في الغد.. ستحدثك بنفسها

- حاضر

- مع السلامة

وتعجب الأستاذ حسن وحمزة مما فعله عمر، ومما قاله للست سامية،
وراحا يتساءلان عن جدوى هذه المكالمة، وسأله الأستاذ:

- ما الجديد يا عمر؟.. نحن نريد رقم أختها

فابتسم عمر وقال:

- هذه المكالمة مجرد تمهيد للحصول على الرقم يا أستاذ حسن

- كيف؟

فقال عمر بثقة:

- ريم زوجتي ستكون عمتي في الغد.. وستتصل بالست سامية وتحدثها
طويلاً عن فيلتها وراثتها ومرتبها.. ثم تطلب في نهاية المكالمة رقماً آخر غير
رقمها لقريب أو قريبة لها لتحدثها عليه من باب الاحتياط.. وما أعرفه أنه
ليس لسامية إلا أختها هيام تلك

وضحك الجميع، وتمنّى الأستاذ حسن وحمزة نجاح فكرة عمر تلك،
وفعلاً تحقّق ما تمنّوا، فقد نجحتْ الفكرة بأنْ نجحتْ ريم بالفعل في تمثيل

دور عمّة عمر الثرية، وأخذ حمزة من عمر رقم هيام، وشرع يفكر فيما سيقوله لها ليوصل لها انطبعا بأنه يشكُّ بها كامرأة مجرمةٍ حاولت قتله عند المصرف وقد تكون هي المسؤولة عن قتل أبيه.

وفي البيت وبعد أن غلّق عليه أبوابه جيدا اتصل حمزة أولا بالست سامية.. قال لها:

- السلام عليكم يا ست سامية

- وعليكم السلام؟.. من معي؟

- أنا حمزة

- حمزة من؟

- هل نسيته يا ست سامية؟

- آسفة اعذرني.. الصوت غريب عليّ

- أنا حمزة ابن الحاج شلبي الجارحي من الزيدية.. كنت تأتين لبيتنا من

تسع سنين تقريبا

وعند ذاك تذكرته الست سامية فقالت:

- نعم نعم تذكرتك يا حمزة.. اعذرني يا ابني.. السنين تنسي الإنسان كل

شيء

- كيف حالك يا ست سامية؟

- بخير.. عرفتُ أنك خرجتَ من سجن الأحداث.. وأنتَ ما شاء الله
كبرتَ ودخلتَ كلية الطب

- الحمد لله

- أبوك الله يرحمه كان سيفرح بك كثيرا يا حمزة لو كان حيا

- فعلا كان سيفرح كثيرا.. لكن ربنا ينتقم ممن قتله

فسكتت الست سامية ولم تتحدث، ويبدو من صمتها كما لو أنها قد
تعجبت من أنه يدعو على القاتل، وهي بالطبع قد قالت يومها أنها رآته ممسكا
بالبندقية، فسألها:

- هل استغربتِ لأنني أدعو على قاتل أبي؟

فلم ترد الست سامية، فسألها حمزة:

- لماذا قلتِ إنني القاتل يا ست سامية؟

فترددت للحظة، ثم قالت:

- لماذا هذا السؤال بعد كل هذه السنين يا حمزة؟.. أو لم تنسَ؟

- جاوبيني لو سمحتِ

- قلتُ ذلك لأنني رأيتك ممسكا بالبندقية

- هل رأيته أطلق منها الرصاص على أبي؟

- ما أعرفه أن من قتل أخاه يكون من السهل أن يقتل أباه

وبدا حمزة يستفزها ويستدرجها فقال:

- أريد أن أسألك سؤالاً واضحاً

- اسأل

- أين كنتَ عصر يوم الحادث وقبله بيوم؟

- أي حادث؟

- يوم مات ميسرة وأسعد صاحبه

- هل تقصد يوم قتلتها أنت؟

- لم أقتلها

- الناس كلها تعرف أنك قتلتها وقتلتَ أباك

- هذه ليست الحقيقة

- إذاً ما الحقيقة؟

- الحقيقة أنتِ تعرفينها

- ماذا تقصد؟

- أنتِ تعرفين قصدي

- أنا لا أعرف شيئاً

- قريباً ستعرفين

قالها حمزة ثم أنهى الاتصال، فاتصلت به على الفور، فلم يرد، وأغلق هاتفه

وبعدها بساعة فتح هاتفه واتصل بأختها هيام فأجابت:

- مَنْ معي؟

- أنا حمزة

وعرفته على الفور، ورغم ذلك سأله غاضبة:

- حمزة مَنْ؟

- حمزة ابن الحاج شلبي.....

- نعم تذكرتك.. خيرا

- اتصلتُ لأعرف شيئا

- ما هو؟

- يوم أن قُتل أبي.. قلتِ إنني القاتل.. لمَ؟

فقالت بنفس غضبها دون تردد:

- ماذا يحدث لك اليوم؟.. اتصلت منذ ساعة بأختي سامية وسألتها

نفس السؤال.. لماذا تفعل ذلك بعد كل هذه السنين؟

- جاوبيني لو سمحتِ

- سأقول لك نفس ما قالته أختي.. السبب أنني رأيتك ممسكا بالبندقية

وبدا حمزة يستفزها ويستدرجها فقال:

- أريد أن أسألك سؤالا واضحا

- اسأل
- أين كنتِ عصر يوم الحادث وقبله بيوم؟
- أي حادث؟
- يوم مات ميسرة وأسعد صاحبه
- هل تقصد يوم قتلتها أنت؟
- لم أقتلها
- الناس كلها تعرف أنك قتلتها وقتلت أباك
- هذه ليست الحقيقة
- إذاً ما الحقيقة؟
- الحقيقة أنتِ تعرفينها
- ماذا تقصد؟
- أنتِ تعرفين قصدي
- أنا لا أعرف شيئاً
- قريباً ستعرفين
- قالها حمزة ثم أنهى الاتصال، فاتصلت به على الفور، فلم يرد، وأغلق هاتفه.



الفصل السادس عشر

تعوّد حمزة أن يعود من الجامعة كل يوم قبل المغرب بقليل، فيلزم بيته ولا يخرج منه لأي سبب، وبالطبع فإنه لم يعد يذهب منذ زمن إلى شاطئ المصرف المنعزل المخيف، ولم يعد يتجول وسط حقوله، فأعمالها كلها قد أسندها منذ زمن أيضا لجاره السيد المتولي صديق أبيه.

وقد تعوّد كل يوم أيضا أن يطمئن على غلق كل أبواب ونوافذ البيت جيدا، وصار دائما يضع سكيننا كبيرة تحت وسادته، لكنه قرر شيئا لا بد أن يفعله أول شيء في الصباح، وهو أن يسعى لترتيب الكثير من الكاميرات.

وبالفعل لم يمر أسبوع حتى كان قد تمّ ترتيب كل الكاميرات المطلوبة، وصار حمزة ينتظر بين ليلة وأخرى زائرة الليل المجرمة، لكن مرّ أسبوع آخر دون أن تأتي تلك الزائرة، ولم يكن هناك أية محاولة لإيذائه ليلا أو نهارا، سواء كان في البيت أو بأي مكان.

وجاء حمزة اتصالاً من الأستاذ حسن يخبره بموت المعلم سعيد العدوي، وأنَّ عليه أن يقابله هناك لتقديم واجب العزاء، فذهب حمزة على الفور حذرا يتلفت حوله أينما سار، وخائفا يترقب ما قد يصيبه من غدر تلك المرأة المجرمة بأي مكان.

وهناك بأوسيم حدث شيءٌ غريبٌ انتبه له حمزة، فقد كان جالسا داخل صوان العزاء بجوار الأستاذ حسن وعمر والخال جعفر شعلان، وعلى يمينه عماد ابن المعلم سعيد العدوي، وإذا بمن يأتي لعماد ويهمس بجانب أذنه بكلماتٍ سمعها حمزة:

- (المدام بالخارج تريدك في أمرٍ مهم)

وخرج عماد مسرعا وعينا حمزة تتبعه من باب الفضول، فإذا به يرى من مكانه عماد قد وقف يتحدث مع امرأة لا يزال يتذكر شكلها جيدا.. إنها هيام أخت الست سامية، لكنها كانت مختلفة في كثير عما كان يراها ببيتهم وهو طفلٌ صغير، وكان أكثر شيء تحولت إليه هو امتلاء جسدها، فقد صارت أكثر وزنا، وبدا له جليا أنها تحمل بداخلها طفلا، فبطنها كانت منتفخة انتفاخ الحوامل.

وأثار كل ذلك عجب حمزة كثيرا، فما ل قليلا على الأستاذ حسن قائلا له:

- ما هذا؟!.. إنها هيام.. إنها هناك

فسأله الأستاذ:

- لا أفهم

- هيام أخت الست سامية.. هل كنتَ تعرف يا أستاذ أنها زوجة عماد ابن المعلم سعيد الله يرحمه

- لا.. أنا أصلاً لم أرَ هيام تلك أبداً

- إنها هناك تتحدث مع عماد، ويبدو أنها حامل

فابتسم الأستاذ حسن، وكنتم ضحكةً كانت ستنفلتُ منه وسط صوان العزاء، وسأل حمزة:

- وكيف عرفتَ أنها زوجته؟

- سمعتُ مَنْ يخبره بأنَّ المدام تريده فأسرع ذاهبا لها هناك

- وكيف عرفتَ أنها حامل؟

- إنها منتفخة

وابتسم الأستاذ، ومال على عمر وسأله:

- هل كنتَ تعرف يا عمر أنَّ هيام أخت سامية هي زوجة عماد ابن المعلم سعيد؟

- معقولة!!

- حمزة يقول إنها زوجته
- وسكت الأستاذ قليلا ثم قال بابتسامة مازحة خاطفة:
- ويقول إنها حامل
- فنظر لهما عمر الدالي وكنتم ضحكته وقال جادا:
- الحقيقة أنني لم أكن أعرف أنها زوجة عماد إطلاقا
- فقال الأستاذ حسن هامسا:
- الآن عرفنا يا عمر سبب عدم رؤيتك لها داخلية أو خارجة من بيت أهلها أو مكان عملها.. السبب زواجها وحملها
- لكن يا أستاذي أنا على يقين أنه لا يمكن أبدا أن تكون هيام هي المجرمة
- هل بسبب يقينك هذا أهملت في مراقبتها يا عمر؟
- السرُّ يا أستاذي عند حماقي
- فابتسم الأستاذ، بينما كان حمزة شاردا عن حوارهما يفكر ويحوم بذهنه حول هيام، وقال الأستاذ:
- عموما وفقهما الله هي وعماد
- وخرج حمزة من شروده وأسرع يسأل:
- لكن كيف ومتى حدث ذلك؟

فأجابه عمر مسرعا:

- هل تقصد الزواج أم الحمل؟

فنظر له حمزة والأستاذ وحبسوا ضحكاتهم وتوقفوا عن الكلام، فقد عاد عماد لمجلسه، فما لبثوا إلا قليلا بعد عودته، ثم استأذنوه منصرفين.

وأوصل الرجلان حمزة إلى باب بيته، لكن طوال الطريق لم يكف الثلاثة عن الحديث عن هيام وعماد وزواجهما، وثمة شكوك كثيرة جديدة صارت تراود الأستاذ حسن وحمزة.

وصار حمزة ببيته في كل ليلة ينتظر قدوم تلك المجرمة المُقنَّعة، لكنها لم تأت، فاتصل بالأستاذ حسن والكاتب عمر الدالي، واقترح عليهما أن يُرسل من هاتفه رسالة صريحة للمشتبهات بهن، يخبر كل واحدة منهن بشكه فيها إخبارا صريحا، فوافقه الرجلان، إذ لم يكن هناك مفر من ذلك بشرط أن يُرسل الرسالة من رقم غير رقمه ليدو الأمر كما لو كان مزحة من أحد العابثين، وبالطبع فلن تنظر واحدة منهن للرسالة على سبيل الجد إلا إن كانت هي المجرمة المُقنَّعة.

وكان اليوم الثلاثاء.. كتب حمزة رسالته تلك..

- (أخيرا تأكدت أنك المرأة المجرمة عند المصرف منذ سنوات.. لبست ثياب المرحومة أُمي وجعلتني أقتل أخي وصاحبه وأردت بعد ذلك خطفي

وقتلي.. وبعد ذلك بشهور قتلت أبي وألصقت التهمة بي.. أنا أجمع وحدي الأدلة الآن.. وخلال ثلاثة أيام سأذهب للشرطة بها.. انتظري إعدامك أنت ومن عاونك.. حمزة)

وما إن انتهى منها حتى طيّرَها بكل جرأةٍ وعزمٍ ودون ترددٍ من هاتفه إلى هواتف خمسة، ثم أغلق هاتفه فور أن تأكد من وصولها، لكنه بعد ذلك حاول أن ينام بعد يوم شاق وفكرٍ حائر فلم يستطع، فقد كان التفكير في تلك اللحظة التي تقرأ كل واحدةٍ منهن الرسالة يصيبه بكثيرٍ من التوتر والانشغال.. كيف يكون استقبال كل منهن لها في الحاليتين، بريئة أم مذنبه؟.. بهم ستشعر؟.. فيم ستفكر؟.. ماذا ستحاول أن تفعل؟.. زوجة خاله تلك، ماذا لو كانت بريئة؟.. سيغضب خاله وتحزن ريم.. وعمته وعد تلك؟.. ماذا لو كانت بريئة؟.. ستغضب غضبا شديدا منه وتصبُّ لعناتها عليه صبا.. والست سامية الطيبة.. ماذا لو لم تكن هي المجرمة؟... لا شك ستحزن كثيرا أن ظنَّ بها حمزة ظن سوء كهذا.. وأختها هيام زوجة عماد.. ماذا قد يفعل عماد الطائش المتسرع أو يقول؟.. وأما عن الست شيرين، فتلك لا تهمه في شيء.

ولكن ماذا يفعل حمزة تجاه ردود أفعال كتلك؟.. لا شيء غير المخرج الوحيد الذي قصده الأستاذ حسن عندما أرشده إلى الاتصال من رقمٍ غريب، فمن السهل والمقبول أن يقول حمزة حينئذ:

- (لست أنا)

لكن ماذا لو كانت إحداهن هي المرأة المجرمة المُقنَّعة فعلا؟، وهذا لا شك فيه.. ماذا سيكون ردة الفعل؟.. لا بد أن يكون عنيفا قاتلا.. فهل تجهَّز حمزة لمثل ذلك؟

بالطبع قد تجهَّز.. وهذا ما قصده ويتنظره، وما تلك الكاميرات التي تكشف خارج البيت وأماكن أخرى به إلا بعضٌ من تجهيزاته، كما أن من تجهيزاته تلك السكين الكبيرة الحادة تحت وسادته، وهذا الهاتف الآخر الذي أعده لكي يُسجِّل كل صوتٍ أو حركةٍ غريبة، وتلك الأبواب الموصدة بأقفالٍ متينة، هذا إلى جانب قلبه الشجاع وعزمه الكبير على أن يصل للحقيقة ويبرىء ساحته.

وجاء اليوم التالي، ذهب حمزة إلى الجامعة وعاد قبل المغرب حذرا في كل خطوة يخطوها، وجلس ببيته حذرا من كل صوتٍ يسمعه بخارج البيت أو بالداخل، وكثيرا ما يسمع الإنسان أصوات بيته دون أن يكون لها تفسيرٌ، ودون أن يهتم بها مع الوقت من كثرة تكرارها، وكان حمزة هكذا قبل ذلك، لكنه في هذه الأيام ما إن يسمع صوتا حتى ينهض من مكانه ليتفقد مصدره وطبيعته، ثم يعود لمكانه.

وكان غريبا أن يأتيه خمسُ رسائلٍ من النساء الخمس على الرقم الذي أرسل منه رسالته تلك الأخيرة إليهن، وجميعهن تستغربين رسالته وتسألنه عن مكانه للذهاب إليه من أجل الحديث معه، وبالطبع لم يُجب على أية رسالة

أو اتصال منهن، وكان الأغرب من ذلك أن رأى عمته وعد عبر الكاميرات قد جاءت إلى البيت مع زوجها المهندس مهدي، ودقا الجرس، لكنه لم يفتح لهما فانصرفا، ثم جاءت زوجة خاله ريهام هانم مع سائقها ودقَّ الجرس، ولم يفتح لهما أيضا فانصرفا، كما وقفت سيارة حمراء اللون أمام البيت، وخرجت منها الست شيرين وحدها وذهبت ودقَّت الجرس، ولم يفتح لها فانصرفت، لكن لم تأتِ الست سامية أو أختها هيام، فهل معنى ذلك أنها بريئتان؟.. بالطبع لا يُثبت عدم مجيئهما براءتهما، فربما أنَّ حَمَلَ هيام وانشغال سامية معها سبب عدم قدومهما إلى بيته كغيرهن، لكن ما حدث بعد ذلك أنَّ الخمسة لم يتوقفن عن الاتصال به كثيرا وتكرارا، وهو بالطبع لم يرد.. فما هذه الحيرة؟!

وكان منتصف الليل عندما استقرَّ على سريره ينقل عينيه بين كل شيء في الغرفة وكل شيء خارج البيت عبر الكاميرات.. بدا وكأنه يتعرف على هذه الأشياء بالداخل والخارج لأول مرة، والإنسان عندما يصيبه الأرق أو القلق بمكانٍ ما يجعله ذلك يبدو وكأنه يكتشف كل شيء حوله من جديد، يفكر في أشياء، ويبحث عن أشياء، ويسمع أشياء، ويرى أشياء كلها جديدة، أو هي قديمة، لكنه يراها بتفاصيل جديدة غريبة لم يكن ليعرفها إلا مع حالته تلك.

وكانت عيناه قد ثبتت على دولاب ميسرة، فجال بنفسه فجأة خاطرٌ غريب.. إنه دائما يفتح دولابه الخاص ويُغلقه، لكنه أبدا لم يفكر في فتح دولاب أخيه ميسرة بجانبه، فأراد أن يفعل ذلك، أراد أن يكتشف ما بداخله،

فقد مرّت سنوات كثيرة على موت أخيه، ولعله اشتاق لرؤية ملابسه، أو العبث بأشيائه، فقد كان لا يكفُّ عن فعل ذلك بحياته، وكان ميسرة يُغضبه ذلك منه، ويأمره بعدم فتح دولابه، فيعده حمزة أنه لن يفعل ذلك ثانية ثم يعود.

ولعل الفتى حمزة قد فكّر في أنه ربما كان بثياب أخيه ما يصلح له ليرتديها، فقد رحل ميسرة وتركها وهو تقريبا في مثل عمره وبنياه وأناقته الآن، ولعله الشوق الذي يأتي الإنسان فجأة لحبيبٍ قد رحل بالموت أو بالسفر الطويل، فيبحث صاحب الشوق عن أي عالقٍ يتعلّق به من أثر الراحلين، أو يأتي هذا الشوق بين لحظةٍ وأخرى نحو الغائب حين يُخيّم على الأحياء سكون الحياة وأرق النوم.

نهض حمزة مسرعا ناحية دولاب أخيه، وراح يبحث ويتنقل بين ما فيه.. يرتدي الكثير من ملابسه، ويتحسس أشياءه، ويشم رحيق عطوره، لكن ما هذا؟.. إنه هاتف ميسرة، لا شك أنّ الحاج شلبي احتفظ به هنا في دولابه.. حقا لقد تطورت الهواتف المحمولة الآن كثيرا عن ذلك، ورغم ذلك كان هذا الهاتف هو أعلى وأحدث هاتف في حينه، وكذلك هاتف والدته الذي صار بحوزة حمزة.. صحيحٌ أين هو؟.. إنه معه في دولابه، لكنه لم يره منذ فترة.. وما هذا؟.. إنها نظارة ميسرة الشمسية.. تذكرها حمزة، فقد كان يبدو ميسرة أنيقا بها، وكان حمزة يطلب منه أحيانا أن يلبسها فيرفض ميسرة في

البداية ثم يوافقه بعد ذلك، وما هذا؟.. إنها ساعة يده، يا الله!!.. إنَّ شكلها قديم، فهناك أشكالٌ أحدث لكن هذه الساعة القديمة لا شك أفخم وأمتن، وما هذا؟.. إنها صورة فتاة.. آه منك أيها اللئيم ميسرة، إذاً فهذه حبيبك التي كنتَ تحدثها كثيرا عبر الهاتف وتخرجني من الحجرة حتى لا أسمع حديثك لها.. لكن أين هي الآن؟.. هل حزنْتُ عليك؟.. ليتني أعرفها فأذهب للتخفيف عنها.. لعلها تزوجت الآن ونسيْتُ ميسرة، ولكن هل يُنسى ميسرة؟.. اشتقتُ إليك يا أخي الحبيب.

وما هذا؟.. ما هذا الكيس؟.. إنه كيس أزرق اللون فيه أشياء.. إذاً فلاضعه على السرير وأجلس لأرى ما فيه، فقد تعبْتُ والله من الوقوف كثيرا. وأخذ حمزة الكيس الأزرق إلى سريره، وأخرج ما فيه متسائلا عما قد يكون به.. وما أن رأى ما به حتى أسرع صائحا في دُحول: يا إلهي!!.. ما هذا؟.. إنها ثيابٌ يبدو أنها ثياب أمي.. يا ربي!!.. أليست تلك الثياب هي التي كانت المرأة المُقنَّعة ترتديها؟.. أراد أن يتيقن فنهض مسرعا إلى دولابه فأخرج هاتف أمه ليرى صور المُقنَّعة بتلك الثياب.. عاد به إلى سريره، ورأى الصور فخرج صوته عاليا في دُحول: هي والله نفس الثياب.. هي والله، وبدأ يتصبب عرقا.. وما هذه؟.. إنها فردة قفاز.. يا ربي!!.. إنها الفردة الثانية.. كانت الأولى هي تلك التي نزعتها من يدها.. وها هي موجودة أيضا هنا، وما هذا؟.. إنها علبة تشبه علب الدواء؟.. ولكن ما هذا المكتوب عليها؟..

مخدّر!! إنه مخدّر.. لم هو هنا؟.. إذاً كانت المقنّعة تريد تحذيري.. يا ربي!..
وما هذه الورقة؟!

فتح حمزة الورقة سريعا.. كانت بخط يد والده الحاج شلبي الجارحي..
هو يتذكر خطه جيدا.. راح يقرأ بأنفاسٍ متقطعةٍ ويدين ترتعدان:

(وجدتُ هذه الثياب التي كانت المجرمة ترتديها عند المصرف.. وجدتها
في مكانها بدولاب المرحومة.. يبدو أنّ المجرمة أعادتها إلى مكانها على عجل
لتبعد الشبهات عنها.. وبسبب غبائها وتسرعها نسيْتُ شيئين بالثياب..
الأول فردة القفاز الثانية.. والثاني هذا المخدّر.. وعرفتها منه، وأردتُ أنّ
أتأكد فواجهتها فأسرعتُ وهربتُ.. واتصلتُ بالأستاذ حسن في منتصف
الليل لأخبره أنّي عرفتها لكن هاتفه كان مغلقا.... فقط أنتظر النهار لإبلاغ
الشرطة.. لكنني أشعر بشيء غير طبيعي حولي بالبيت.. فإنّ حدث لي مكروه
فكل شيء عن هذه القاتلة أخفيته هنا.. لم أكن أتوقع أبدا أنّ تكون المجرمة
هي.....)

إذاً فإنّ المرأة المقنّعة ذات القفازين هي إحدى النساء الخمس فعلا، ولما
عرفها حمزة بقراءته اسمها في تلك الورقة التي تركها أبوه تسارعتْ أنفاسه
ونبضات قلبه صدمة وذهولا.

وفجأة وهو في حالته تلك بعد منتصف الليل بساعة إذا به يشاهد عبر
الكاميرات شيئا غريبا خارج البيت، كانت هناك سيارة قد جاءت ووقفت

بجانب الطريق على بعدٍ بمحاذاة المكان الواسع.. لم يتبين حمزة لونها في هذه المرة.. نزل منها ثلاثة، امرأة ورجلان.. عاد رجل منهما مع المرأة فدخلوا السيارة، وقاد الرجل السيارة مسرعا وهي بجواره واختفت السيارة.. أما الثاني الذي نزل، فقد راح يخطو شيئا فشيئا وهو يتلفت حوله حذرا في اتجاه باب البيت، وصار يقترب من الباب.. وحمزة يراه ويتابعه عبر الكاميرات.. لكن ما هذا؟.. إنه يُمسك في يده بحقيبة كتف صغيرة.. إنه يخرج منها شيئا أمسكه بيده، بل شيئين.. واقترب أكثر، ثم وقف فجأة بمكانه ينقل عينيه هنا وهناك بعيدا عن الباب.

لم يشعر حمزة في تلك اللحظة بأي خوف، وكان غريبا أن أحسَّ بقوة رهيبة تسري بداخله للمرة الأولى مع كل هذه الأحداث.. طردت تلك القوة إحساسَ الخوف ليحلَّ محله ثباتٌ وجرأةٌ واستعدادٌ لمواجهة ما قد يحدث مهما كان.. وهذا من رحمة الله بعباده.. في وقت كهذا تأتي الإنسان قوةٌ كانت خفيةً ويشعر بثباتٍ لم يكن له.

وخطا القادُ خطوتين أخريين تجاه الباب فظهر أكثر وضوحا، لكن ليس تماما.. لكن ما هذا الذي يحمله بيده؟.. يا إلهي!.. لقد بدأ حمزة يُميّز ما بيديه.. إنه سكين وشيء آخر غير ظاهر.. ما هذا؟.. ربما كان مخدرا.. أجل هو مخدر كهذا الذي كان.. إذا فقد أرسلت المُقنعة قاتلا.

وبالطبع فقد قرّر حمزة ألا يفتح الباب.. سيكتفي بتصوير الكاميرات له.. فهو في الصباح سيبلغ الشرطة.. لكن كيف له أن ينتظر الصباح على هذا

الوضع؟!.. لقد صار من الضروري له أن يذهب الآن سريعا للشرطة.. لكن كيف يخرج والقاتل يترصده بالخارج؟!.. إذا فليتصل بالشرطة أو بالنجدة.. لكنه لا يعرف رقما لذلك.. ما هذا؟!.. كيف ينسى الأستاذ حسن وعمر؟! أسرع يتصل بالأستاذ حسن، وأخبره سريعا بصوت هامس عن المُقنعة التي عرفها للتو مما تركه أبوه وقرأه بالكيس الأزرق، وعن هذا القادم بالخارج الذي يحمل سكيناً ومخدراً، فأسرع الأستاذ حسن وأغلق معه ليتصل على الفور بالضابط هشام عطية، فطمأنه الضابط أنها دقائق وتخرج الشرطة للطريق.

وعاد حمزة ينظر بالكاميرات.. لكن ما هذا؟!.. لقد اقترب القادم أكثر.. إنه يصعد بضع درجات ناحية الباب.. يبدو أنه شاب صغير.. يبدو أنه فوق العشرين بقليل، وقد ظهرت السكين واضحة بيده، ويده الأخرى المخدرة.. لكن ما هذا؟!.. لقد وضعه في جيبه، وصار أمام الباب.. يا إلهي!!.. مَنْ؟!.. مَنْ؟!.. أنا أعرفه.. أعرف هذا القادم.. يا إلهي!!.. إنه عامر المصري.

ودقَّ عامر الجرس.. ماذا أفعل؟!.. هل أفتح له؟!.. ماذا دهاني؟!.. هل جئت؟!.. لكن عامر كان زميلي وصديقي بالأحداث ويعرفني جيدا.. وليكن يا حمزة.. لقد كان، أما الآن فقد جاء يحمل سكيناً في الظلام.. جاء كما يبدو قاتلاً مأجوراً.. سيقتلني قبل أن يتذكرني.. إذاً ماذا أفعل؟!.. ما هذا؟!.. لقد عاد يدقُّ الجرس.. إذاً فلن أفتح حتى تأتي الشرطة.. لكنهم سيقبضون

عليه.. سُحقالي.. فيم أفكر؟!.. فليقبضوا عليه.. وليعد هذه المرة إلى السجن
لا إلى الأحداث.

لا يا حمزة.. يجب أن تُنقِذه من ذلك.. ولكن كيف؟!.. هل أحدثه من
وراء الباب وأخبره بأني حمزة؟!.. لكن ماذا لو لم يتذكرك؟!.. كيف هذا؟!
.. كيف لا يتذكرني؟!.. كيف؟!.. لقد بكى عامر وهو يودعني خارجاً من
الأحداث، وقد أعطاني رقم هاتفه، وأعطيته رقم هاتفي.. ولكن كان هذا
منذ أكثر من خمس سنين يا حمزة.. ماذا قلت؟!.. قلت رقم هاتفه؟!..
كيف نسيْتُ ذلك؟!.. أنا حقاً معي رقم هاتفه.. سأتصل به قبل أن أفتح له..
سأتصل به الآن.

واتصل حمزة برقم عامر المصري وعيناه عليه في الكاميرات، وكان
عامر قد جعل وضع هاتفه صامتا على سبيل الاحتياط حتى لا يُلفِتَ أَسْمَاعُ
أحدٍ إليه، لكنه عرف أنَّ هناك مَنْ يتصل به، فقد أنارت الشاشة وأحسَّ
باهتزازاتها.. نظر فوجد اسم حمزة الجارحي.. أحسَّ بكثيرٍ من الاندهاش..
إنه كان قد ترك حمزة بالأحداث، ولكن قد مرَّت سنواتٌ يا عامر على ذلك،
فهل خرج؟ أم أنه يتحدث خلسةً منها؟

لم يرد حتى انقطع الاتصال، ثم أعاد حمزة الاتصال.. ونظر عامر فوجد
رقم حمزة ثانية.. ما هذا؟!.. هل هذا وقته يا حمزة؟!.. وابتعد عامر عن الباب

نازلا درجات السلم التي صعدھا إليه، وتراجع حتى وصل إلى جوار شجرة وأجاب:

- حمزة الجارحي.. أهلا

- الحمد لله أنك تذكرتني يا عامر

- وكيف أنساك يا حمزة.. كيف حالك؟.. أظنك خرجت من الأحداث

- أجل خرجت منذ شهر.. وأنت كيف حالك؟

- بخير

- كنت قد وعدتني يا عامر أنك ستترك طريق الشر

- طبعا طبعا.. وأنا ما زلت عند وعدي

- هل أنت متأكد؟

- حمزة.. أهنأك شيء تريد قوله؟

- أين أنت الآن يا عامر؟

- لماذا تسأل هذا السؤال الآن؟

- فقط أريد أن أراك

- لا أفهم

- أريد أن نتقابل الآن يا عامر.. فأين أنت؟
- نحن بعد منتصف الليل يا حمزة.. فكيف ستتقابل الآن؟
- وماذا في ذلك؟.. فقط أخبرني أين أنت وسأتيك
- كنت نائما يا حمزة وأيقظتني أنت
- فضحك حمزة وقال له:
- ألم تترك الكذب بعد يا عامر؟
- فسأله عامر على الفور:
- ماذا تقصد يا حمزة؟
- أنت لم تكن نائما
- وكيف عرفت؟!!!
- فسأله حمزة مازحا:
- هل تذكر لعبة الغميضة التي كنا نلعبها بدار الأحداث يا عامر؟
- فقال عامر متعجبا:
- بالله عليك.. هل هذا وقته يا حمزة؟
- نعم وقته.. سأغمض عيني وأخبرك أين أنت

- ماذا تقول يا حمزة؟!
- ها قد أغمضتُ عيني.. هل تريد أن أخبرك عن مكانك الآن؟
وأثار ذلك فضول وقلق عامر فأسرع يسأله:
- نعم أخبرني.. أين أنا الآن يا حمزة؟
- أنت في الزيدية
- وأصاب عامر الذهول، فأسرع متعجبا يقول:
- ماذا تقول؟!
- وتقف أمام بيت كنتَ تدقُّ جرسه منذ قليل
- حمزاً.. هل أنت حمزة؟!!!
- ويبدك سكين يا عامر
- ماذا؟.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
- وبجيبك مخدر
- من أنت؟.. أخبرني سريعا من أنت؟
- وجئت لتقتل شابا لا تعرفه
- يا إلهي!!

- متى صرّت قاتلا مأجورا هكذا يا عامر؟!
- مؤكّد أنّك جنّي.. لا لا.. أنتَ ملاك.. لا!!!!.. أنتَ شيطان
- بل أنا حمزة شلبي الجارحي وفقط
- حمزة!!.. كيف؟.. كيف؟!!!
- ألم تعدني أنّك لن تعود لطريق الشر يا عامر؟
- كيف تعرف ذلك يا حمزة.. كيف؟!!
- هل تعرف اسم من خرجت لتقتله أيها القاتل المأجور؟
- لا.. لا أعرفه
- اسمه حمزة شلبي الجارحي.. أنا
- ماذا تقول؟!!!!.. أنتَ.. معقولة!!!
- نعم أنا.. وكنتُ أنتظر
- كيف؟!!.. كيف عرفتَ كل ذلك؟!!.. أنا لا أفهم شيئا
- وأعرف أيضا من استأجرتك
- كيف؟!!!!.. صدقني أنا لا أعرف
- كيف لا تعرف أيها المأجور؟

- حمزة.. أين أنت يا حمزة؟

- انتهت اللعبة الآن يا عامر

- أية لعبة؟

- لعبة الغميضة.. الآن سأفتح عيني

- هل تمزح يا حمزة؟.. أين أنت؟

- عديا عامر للباب الذي كنت تدق جرسه.. سأفتح لك

وفتح حمزة الباب مبتسما حذرا، ووقف عامر أمامه مذهولا حائرا، بل صار منذ رآه كأنه على شفا جنون، ولا يصدق ما يحدث، ولكن للأسف حدث شيء غير متوقع.....

وانتشر خبرٌ صارخٌ سريعٌ في قرية الزيدية والقرى المجاورة وصولا حتى أوسيم بأن حمزة ابن الحاج شلبي الجارحي وُجد مقتولا بطعنة سكين في قلبه، وأن الشرطة جاءت، وأن القتل دُفن سريعا بلا عزاء، وأن البيت صار بلا ساكن.



الفصل السابع عشر

قبل عشر سنوات..

في بيتٍ قديمٍ واسعٍ على أطراف كفر طهرمس بالجيزة وسط أشجارٍ كثيفةٍ تُحيطه من كلِّ جانبٍ كان يمكث في الداخل في خوفٍ وحزنٍ وغضبٍ مجموعةٌ أطفالٍ وصبية ما بين السابعة والثالثة عشرة.. كانوا جميعهم مُختطفين ومُحتجزين في هذا البيت إلا صبيا فوق العاشرة، لم يكن بينهم مُختطفًا مثلهم، إنما كان عليهم رقييا ومُعينا للخاطفين، حيث كان هذا الصبي فردا من أفراد عصابة خطيرة تنتشر في كل البلاد انطلاقا من هذا المكان لختطف الأطفال واستغلالهم في أعمالٍ إجرامية كثيرة وكبيرة.. فمن هذا الصبي؟.. إنه ابن الشارع أو ابن الرصيف الذي وُجد مطروحا عليه بعد الفجر وليدا بلا أب وبلا أم معروفين.. كان هو ذاك، عامر المصري.

وَحُمِلَ ذَاكَ الْوَلِيدَ الْمُلَقَّى عَلَى الرَّصِيفِ إِلَى مَلْجَأِ أَطْفَالٍ، وَصَارَ يَحْمِلُ هَذَا الْأَسْمَ أَوْ يَحْمِلُهُ الْأَسْمَ مَتَنَقِّلًا بِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَمِنْ عَامٍ إِلَى عَامٍ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُ أَصْلًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى دَارِ خَيْرِيَّةٍ تَرْعَى أَمْثَالَهُ مَقْطُوعِي الْأَهْلِ تُسَمَّى دَارَ عُبَيْرِ الْإِسْلَامِ فِي مَدِينَةِ نَصْرٍ، فَتَرَبَّى بِهَا عَلَى أَيْدِي مَوْظَفَاتٍ وَمَوْظَفِينَ يَتَقَاضُونَ مَا لَا مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا لِيَتَظَاهَرُوا بِبَعْضٍ مِنْ مَوْدَةٍ وَرَحْمَةٍ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ.

وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ سَنَوَاتٍ حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي شَبَّ فِيهِ حَرِيقٌ بِالْدارِ، فَخَرَجَ مِنْهَا الصَّبِيُّ عَامِرُ الْمَصْرِيِّ هَارِبًا وَحِيدًا لِيَعُودَ ابْنًا لِلشَّارِعِ الَّذِي صَارَ لَهُ بِمَثَابَةِ أَبِيهِ الَّذِي لَمْ يَرِهِ، وَسَرِيرِهِ هُوَ أَرْضُ الرَّصِيفِ الْحَانِي عَلَيْهِ، وَالَّذِي صَارَ لَهُ بِمَثَابَةِ أُمِّهِ الَّتِي لَمْ يَرَهَا، حَيْثُ إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ غَيْرَ هَذَا الرَّصِيفِ، ذَلِكَ الَّذِي حُمِلَ مِنْهُ طِفْلًا وَلِيدًا، وَعَادَ إِلَيْهِ صَبِيًا شَرِيدًا.

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى عَامِرٍ وَهُوَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ أَرْصِفَةِ الشَّوَارِعِ، يَتَسَوَّلُ نَهَارًا، وَيُبَيْتُ لَيْلًا بِأَيِّ مَكَانٍ بَتَلِكِ الْأَرْصِفَةِ حِينَ يَغْلِبُهُ النَّوْمُ فِيهِ، حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي صَارَ فِيهِ وَاقِفًا عَلَى رَصِيفٍ بِمِيدَانِ الْحِجَازِ بِمَصْرِ الْجَدِيدَةِ بِجَوَارِ مَحْطَةِ وَقُودِ إِمَارَاتٍ.. كَانَ يَقِفُ فِي اسْتِكَانَةِ مَآكِرَةٍ تَعْلَمُهَا عَلَى أَيْدِي الشَّوَارِعِ، يَنْظُرُ نَظَرَاتٍ دِهَاءٍ كَالثَعَالِبِ لِيَتَنَقِّيَ بِالْخُبْرَةِ بَعْضًا مِمَّنْ يَمْرُونَ بِهِ فَيَتَوَجَّهَ لَهُمْ سَرِيعًا طَالِبًا مِنْهُمْ مَسَاعِدَتَهُ بِأَيَّةِ نَقُودٍ:

- (ممكن جنية يا أستاذ.. جنية يا أبله.. أعطوني أي شيء.. أنا جائع.. والله لقد نمْتُ بالأمس بدون أكل.. أناام كل يوم دون عشاء)

وكان هناك شاب وفتاة قد وقفا يراقبانه من بعيد، فذهبا ومراً به منتظرين أن يطلب منهما المساعدة، وبالفعل طلب منهما المساعدة كما توقعا، فتوقفا أمامه، وقالت له الفتاة:

- ما اسمك؟

- عامر

- في أية مدرسة تدرس؟

- كنتُ في مدرسة تابعة للملجأ.. لكنني تركتها

- وهل ذهبتَ لمدرسة أخرى؟

فنظر لها الطفل باستغراب وقال ضاحكاً:

- أجل ذهبتُ

- ما اسمها؟

- مدرسة الشارع الإعدادية للمتشردين

فابتسمت الفتاة وقالت:

- مدرسة الشارع!!!!.. إذا فأنت طفلٌ حكيم وفيلسوف يا عامر

- طبعاً.. فالشارع أصدق وأبرع معلم.. يعلم الحكمة والفلسفة وأشياء

أخرى

فقال الشاب الذي معها معجبا بكلامه:

- يبدو أنك ذكي

- كل مَنْ يراني يقول لي ذلك ثم يستغلني

فنظر الاثنان لبعضهما وابتسما، ثم قالت الفتاة:

- هل تريد أن تعمل يا عامر؟

فابتسم الطفل وقال:

- الآن بدأ الاستغلال.. ولكن لا بأس.. ماذا سأعمل؟

فانخرط الاثنان في الضحك وسأله الشاب:

- ماذا تريد أنت أن تعمل؟

- رئيس هذه البلد

فعاد الاثنان وضحكا كثيرا، وسألته الفتاة:

- ولماذا تريد أن تكون رئيسا؟

- حتى أجمع كل مَنْ هم مثلي في مكان آمن بعيد عن الاستغلال

- وبعد أن تجمعهم.. ماذا ستفعل؟

- أقدم لهم الحب مع الطعام والحنان مع الثياب والأمومة والأبوة مع

الوظيفة

- هذا كلام كبير جدا على طفل مثلك يا عامر

- وهذا الشارع.. أليس كبيرا عليّ؟!!

- طبعا كبير عليك.. وإنه لكبيرٌ أيضا على الكبار

قالتها الفتاة، ثم نظرت للشباب وسكتت، فقال له الشاب:

- إذاً تعال معنا

- إلى أين؟

- إلى المكان الذي تجد فيه كل ما تريده

وذهب عامر معها، واستغلاه بالفعل كما كان يقول، وإنه يعلم أنّ ذلك سيحدث، لكن يبدو أنه أحب أن يوافقهم في ذلك، إذ لم يكن أمامه مهربٌ من الشارع إلا بذلك، فعمل معهم، وكسب المال، المال فقط، وكان عمله من نوعٍ مختلفٍ غريب.. كان يخرج للشوارع إلى أماكن يعرفها جيدا، هي أماكنٌ يتجمع فيها من يسمونهم بأطفال الشوارع.. يذهب إليهم فيقضي معهم يوما أو يومين، ثم يخرج من بينهم بطفل أو طفلين، ثم يعود لفعل ذلك تكرارا.

لكن.. أين كان عامر يذهب بهؤلاء الأطفال؟.. كان يذهب بهم إلى هذا البيت القديم بكفر طهرمس، فيظلون به لفترة قد تطول أو تقصر حتى يحين موعد بيعهم، أو قتلهم.. نعم قتلهم، وذلك للحصول على أعضائهم، أو ترحيلهم خارج البلاد لبيعهم لمن يريد شراء الأطفال لأي سبب.

إذاً هي عصابةٌ لُخطف الأطفال وبيع الأعضاء بأحدث الطرق وأبشعها، أعضاءها كثيرون ما بين رجال ونساء، ومتعلمين وأمينين، وكبار وصغار، وبينهم أطباء وممرضات وشخصياتٌ لا تخطر على بال أحد، وزعيمهم شخصية غامضة غير معروفة إلا لبضع أشخاص من أعضاء العصابة، وهدفهم الأول والأخير جمع المال، المال الوفير، فتلك تجارةٌ رابحة.

وكان من أبرز البارزين في هذه العصابة وأفضلهم نشاطاً وإتقاناً لما يقومون به ذاك الشاب وتلك الفتاة اللذان استدرجا عامر من رصيف مصر الجديدة.. فمن هما؟.. هما عزيز وعزيزة، وبالطبع ليس هذان الاسمان اسميهما الحقيقيين، إنما هما اسمان حركيان.

وقد اكتسب عامر المصري بين هؤلاء مع مرور الأيام خبرة وشهرة ورسوخاً، واستطاع أن يجمع مالا كثيراً أنفقه جميعه على المخدرات ، ثم حدث أن داهمت الشرطة المكان، وحررت الأطفال والصبية، ولكن استطاع كل أفراد العصابة الهروب، وتفرقوا واختفوا بخطة معروفة مسبقاً بينهم ومدروسة جيداً.

وكان عامر قد كبر بعض الشيء ونفدت كل أمواله، فلم يكن أمامه إلا السرقة والاحتيال لتلبية وحش الإدمان الفاتح فاه بداخله، وذات يوم تشاجر مع زميل له على شيءٍ سرقاه، فقتل عامر زميله دون قصد، ثم هرب واتصل بعزيز، فقال له عزيز موبخاً:

- ألم نتفق على ألا نتصل ببعضنا أبداً بعد أية مدامية إلا بعد مرور سنة على الأقل؟

- وماذا أفعل؟ .. هناك ولد ضربته فمات .. فإلى مَنْ أُلجأ؟ .. سيضعونني بالأحداث .. أريد أن أختبئ منهم .. ليس لي أحد

- أين أنت الآن؟

فقال عامر بنبرة ساخرة مازحة:

- كيف تسألني عن مكاني في التليفون؟ .. ألم نتفق على عدم ذكر أماكن أو أسماء بالتليفون؟

- معك حق .. لكن هل أنت في المكان المعهود؟

- أجل هناك

- سأتى إليك

- لكن اعلم أني مراقب

فأحسَّ عزيز وعزيزة بالخطر إذا ذهب إليه، فقال له:

- إذاً اذهب إلى المكان القريب من عمل زميلتي .. سأكون أنا وهي هناك مع أذان العصر

- حاضر

وذهب عزيز وعزيزة وانتظراه هناك عند حديقة الفسطاط قريباً من عمل الثانية، لكن عامر لم يأتِ لهما، فغادرا المكان على عجل، ثم عرفا فيما بعد أنه

قد تمّ القبض على عامر، وأودع بالمؤسسة العقابية للأحداث في المرج، وقد التقى عامر المصري هناك بالحدث الصغير حمزة شلبي الجارحي.

وظلّ الاثنان عزيز وعزيزة لفترة طويلة بعيدئْن عن طرق الإجرام هذه بعد تفرق العصابة، وبعد بضع سنين استدار زعيمهم الغامض الخفي ليجمع أفراد عصابته بعد شتات، فأرسل لهما، فأسرعا واستجابا فرحين بتدفق المال عليهما من جديد، وكُلّفَا بأن يُعيدا عامر المصري إلى العصابة، فزاراه زيارة خاطفة بدار الأحداث في توجس وحذر، وكان ذلك قبل خروجه بشهر، أخبراه خلالها بعودة نشاط العصابة الإجرامي، وأنهم جميعا بانتظاره حين يخرج من الأحداث.

وخرج عامر من الأحداث، وعاد إلى بيت العصابة الإجرامي بكفر طهرمس أول شيء له بعد خروجه، لكنه عاد إلى هناك مضطرا، فلم يكن له من مأوى غيره ليركن إليه ويسكن به ليلا من فوضى الشوارع ونزغات شياطين الإنس، كما عاد إلى نشاطه الإجرامي مضطرا أيضا حين لم يجد له من عمل غير ذلك.

ولا غرابة في أن يعود عامر إلى طرق الضلال مع عصابته المجرمة، وقد كان على وشك الانضمام إلى جماعة إرهابية غير أنه رفض بعد تفكير دام كثيرا، وكان على وشك أن يقبل هذا الأمر حين عرض عليه أحد أصدقاء الشوارع فور خروجه من الأحداث السفر والانضمام لما يسميهم ثوار

العراق للخلاص من حياة التشرد بمصر، فأُنصت إليه عامر أياما يقلب الأمر في ذهنه، وماذا يفعل شاب متشرد بلا مأوى حين لا يجد بهذا العالم الشاسع خارج الأحداث مَنْ يحنو عليه وينصحه ويهديه إلى طرق الرشاد؟.. فقد كان الصبي حمزة الجارحي هو مَنْ يؤدي هذا الدور له وهو سجين مقيد الحرية بالأحداث.

ومع مرور الشهور والأعوام بعد خروجه من الأحداث قد بدا لعامر جليا أنَّ عصابة الخطف تلك قد اتسع نطاق أعمالها الإجرامية، فصار هناك خطفٌ للكبار، وصار هناك سرقاتٌ بالإكراه وبالاحتيال، وأعمال دعارة، وقتل مأجور، هذا بالطبع إلى جانب خطف الأطفال والمتاجرة بأعضاء الصغار والكبار، ويبدو أيضا أنَّ هناك أشخاصا جددا قد انضموا لتلك العصابة الإجرامية، فهذا فريد وفريدة باسميهما الحركيين هذين يلتقيان بعامر بتدبير من زعيمهم الخفي، وقد صار لا يرى عزيز وعزيزة في الأيام الأخيرة.. قال فريد يتحدث لعامر مشيرا على فريدة:

- أنا وهي سنتعامل معك من اليوم لفترة.. هكذا أمر الزعيم

ونظر لهما عامر ولم يستغرب ما سمعه، فهو يفهم أنَّ لهذا العمل قوانين ونظاما سريريا وتغييرات احتياطية كالأعمال المشروعة تماما، ورغم ذلك سألهما عن عزيز وعزيزة مازحا:

- أين هما؟.. ألن أراهما ثانية؟.. هل اعتزلا الإجرام؟

فقلت فريدة بجدية:

- وهل مَنْ يدخل بيننا يخرج منا هكذا بسهولة؟.. كل ما في الأمر أنها منشغلان بمأمرية أخرى

- ما هي؟

فأجاب فريد:

- لماذا تسأل؟

فقال عامر غاضبا:

- أنا حر

فابتسمت فريدة وقالت:

- طبعاً أنتَ حر يا عامر.. ولكنك تعلم طبيعة عملنا

وأكمل فريد:

- السرية يا عامر السرية.. فالزم عدم التدخل في مأموريات الآخرين

فنظر لهما عامر ثم سكت، وقالت فريدة:

- حكى لنا عزيز وعزيزة عنك كثيرا.. الجميع يقولون عنك كلاما جميلا

- كلاما جميلا !!!.. مثل ماذا؟.. هل قالوا إني أصلي وأصوم وأني عائد

من الحج؟!.. أنا تربية شوارع وأحداث يا مدام.. وربما أصبح قريبا إرهابيا
خَطِرا

فضحك الاثنان وسألته فريدة:

- كيف عرفتَ أني مدام؟

- يبدو على جسمك أنكِ مدام.. ومدام منذ فترة

وضحك فريد في الوقت الذي برقت فيه عينا فريدة، ثم قالت:

- اترك هذا الكلام الآن وحدثنا عن حياة الأحداث

فابتسم عامر ابتسامة ساخرة وقال:

- حياة الأحداث هي صورة مصغرة لحياة البشر خارجها

- كيف؟

- هناك يأكل القوي الضعيف والظالم المظلوم والكبير الصغير

فسألته فريدة:

- وأنتَ.. أي هؤلاء؟

- أنا كل هؤلاء

فنظر الاثنان لبعضهما وقال فريد:

- إذاً استعد يا عامر.. إنَّ وراءك غدا مهمة.. هي بالنسبة لقدراتك وما

سمعناه عنك سهلة جدا

- ما نوعها؟

- قتل

- ألا تعرفوا أنني أكره القتل؟.. أحب السرقة.. الاحتيال والنصب..
إحداث العاهات.. الخطف.. مراقبة المُختطفين وحبسهم.. لكن
القتل.....

فابتسمت فريدة وقالت تقطع كلامه:

- إنها مهمة قتل سهلة جدا.. ووراؤها حسنة كبيرة.. آلاف الجنيهات
ستأخذها

- آلاف الجنيهات !!.. حسنا.. أريد كل التفاصيل

فقال فريد جادا:

- شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاما.. يعيش وحده في بيت ريفي..
ستذهب له الليلة بعد منتصف الليل وتقتله.. هكذا بكل بساطة

فسكت عامر قليلا يفكر ثم سأل:

- لماذا؟

نظر فريد لفريدة ولم يعرف كيف يجيبه، فقالت فريدة:

- لا أفهم سؤالك؟

- سؤالى واضح.. لماذا تريدون قتل هذا الشاب؟
- لم نخبرنا العميل الذي قصدنا لتنفيذ هذه المهمة عن سبب رغبته في قتله
- ولماذا لم تسألناه أأنتم عن السبب؟
- وماذا يفيدنا أن نعرف السبب؟
- على الأقل من باب الفضول
- الفضول والتدخل في كل شيء يضران الإنسان.. إذ يحمله مسؤوليات إضافية.. لذلك يكون الجهل أفضل في كثير من المواقف
- وابتسم عامر، وسكت قليلا، ثم قال:
- هل معكما صورة له؟
- أجابه فريد مسرعا:
- لا.. واطمئن.. هو يعيش وحده
- فضحك عامر قائلا:
- أخشى أن أقتل غيره
- فضحك الاثنان، ثم قالت فريدة:
- فداك يا عامر.. اقتل كل من تراه في هذا البيت ولا تبال

فابتسم عامر، وقال مازحا:

- اتفارقنا سلكون على شأص واحد.. فإن زدتُ فكل رأس بئمنها

فضحك الاثنان، ثم قال فريد بنبرة جادة:

- عامر.. هذه العملية يجب أن تتم الليلة.. اتفارقنا مع العميل على هذا

الأساس.. يجب أن يُقتل هذا الشاب الليلة

- ولماذا لا يكون غدا؟

- الليلة يا عامر.. الشاب يمتلك أدلة على العميل قد يسلمها غدا

للشرطة.. أدلة تؤدي إلى الإعدام

وقالت فريدة بنفس النبرة الجادة التي يتحدث بها فريد:

- لذلك هناك عمل آخر تكميلي أهم بعد قتلك للشاب

- ما هو؟

- تفتيش البيت جيدا للحصول على الأدلة

- وما نوع هذه الأدلة؟

- سنخبرك

- وماذا لو وجدتُ ذهباً أو أموالاً أو أوراقاً مهمة وأنا أبحث عن الأدلة؟

فضحك الاثنان، ثم قال فريد:

- حلال عليك

وقالت فريدة مازحة:

- لكن إن كانت هناك سلسلة ذهبية ترى أنها ستزين رقبتى الجميلة تلك

فلا مانع أن تهديها لي

قالت ذلك ثم ضحكت وضحك فريد، وسألها عامر:

- ولكن ألا يجب أن أعرف هذا العميل المُستأجر؟

قالت فريدة مبتسمة:

- ماذا قلنا يا عامر؟! ليس هذا من شأنك.. ولا من شأننا نحن أيضا..

أرجو أن تتفهم ذلك

- كما تريدان

- لا تؤاخذنا أيها البطل

- حسنا.. لكن أظن أن من حقي أن أعرف مكان بيت هذا الشاب الذي

سأريجه من الحياة

- طبعاً هذا من حقك.. هو في قرية تابعة لأوسيم

- أليس لهذه القرية اسم؟

- اسمها الزيدية

وأسرع فريد فقال:

- سنوصلك إلى البيت ثم نمضي وننتظرك بعيدا حتى تتصل بنا فنعود إليك.. لكن لا تتأخر علينا

فأخذ عامر نفسا عميقا ثم قال:

- لا تقلقا

فقالت فريدة:

- للبيت جيران والأرياف كلها هدوء وسكون يا عامر.. وصوت الرصاص سيجمع الكل حولك.. لذلك ستحاول تخديره أولا ثم تقتله بسكين.. هل فهمتَ

- حسنا فهمتُ

- هل لديك أية استفسارات عن شيء آخر؟

- لا.. واطمئنا.. فلن تستغرق العملية دقائق وسأتصل بكما

- في حفظ الله



الفصل الثامن عشر

اتصل عامر المصري بفريد قائلاً:

- أين أنتما؟

فسأله فريد على الفور:

- هل انتهيتَ من المهمة؟

- نعم انتهيتُ

- ولماذا تأخرتَ؟! .. قلتُ إنها دقائق.....

فقاطعه عامر غاضباً:

- جاءت الشرطة.. لكنني استطعتُ الهرب

- وأين أنت الآن؟

- لقد ابتعدتُ عن الزيدية.. هربتُ وسط الحقول.. اذهب أنتما وستقابل
غدا

- كما تريد يا بطل

- لكن لا تنسيا أجري على العملية

- لن ننسى

وفي الغد قابلهما عامر المصري بحديقة الفسطاط، فحصل على المال، ولما
همَّ بالانصراف سألاه عن الأدلة فقال لهما:

- وجدتُ أشياء كثيرة

فأسرعتُ فريدة تقول له:

- إذا أين هي؟

- موجودة

- أعطها لنا

فابتسم عامر وقال:

- قلتُ: لقد وجدتُ أشياء كثيرة

فسأله فريد:

- ما معنى كلامك؟

- معناه أني لا أعرف أيها من الأدلة التي يريد المستأجر الذي
استأجرني.. وأيها لا يخصه

- أنا لا أفهم قصدك يا عامر

- أقصد أني سأعطيكم فقط ما يخص المستأجر وأخذ الباقي.. أو ليس
ذلك اتفاقنا؟.. أو لم تقولوا لي: إنَّ كل ما في البيت حلال عليك

فنظرا لبعضهما ثم قالت فريدة:

- أنتَ لست سهلاً أبداً يا عامر

- تلميذك يا معلّمتي

- إذاً أعطنا ما تراه من الأدلة، واحتفظ لنفسك بالباقي

- وكيف أعرف؟.. أنا معي أوراق كثيرة وأشياء كثيرة

- وما الحل؟

- لا أعرف

ونظر الاثنان لبعضهما، وقال فريد:

- ليس هناك حل إلا أن تتقابل مع المستأجر ليرى بنفسه الأدلة التي معك

فنظر عامر ثم سكت كأنه يفكر، ثم قال مبتسماً ابتسامة نصر:

- اتفقنا.. وكافة الغنائم ستظل معي في أمان حتى هذا اللقاء

فضحكت فريدة وقالت:

- وهذه الغنائم.. أليس بها السلسلة التي وعدتني بها؟

- اطمئني فالخير كثير.. ولن أنساكِ طبعاً

ورفع فريد وفريدة الأمر لمن فوقهما وانتظرا الرد، فقد رأيا أنه لا ضير من أن يلتقي المستأجر بعامر لتوزيع هذه الغنائم، خاصة أنهما رأيا أن المهمة قد تمت بنجاح.

وكان الرد أن تم رفض هذا الأمر، وتم إبلاغ عامر بذلك الرفض، فأصرَّ على الاحتفاظ بكل الأشياء معه، ومرَّ يومان بعد ذلك، فإذا بعزيز وعزيزة يتصلان به يريدان مقابله في حديقة الأزهر.

وجاء الاثنان وجلسا لفترةٍ على مقعدٍ في مواجهته ينظران إليه نظراتٍ غريبة ولا يتحدثان، وظلَّ عامر لا يتحدث، فقال له عزيز:

- الرجل الكبير غاضب منك جداً يا عامر

وخمن عامر السبب، لكنه سأله:

- لم؟

فقالت عزيزة:

- لأنك تحتفظ عندك بالأدلة التي وجدتها في بيت الجارحي

فنظر لها عامر مستغربا وسألها مسرعا:

- بيت مَنْ؟

فنظر لها عزيز نظرة غضب، ثم أجابه مسرعا:

- بيت شلبي الجارحي.. هل تظن أننا لا نعرف تفاصيل كل العمليات

التي تأتي جماعتنا حتى وإن لم ننفذها نحن؟

فأشار عامر برأسه أنه قد فهم، ثم سألها:

- وما المطلوب مني الآن؟

- المطلوب أن ترينا الأشياء التي معك

- لن أريها إلا لصاحبها

- ولكن هذه أوامر الرجل الكبير؟

- وأنا قلتُ: لن أريها إلا لصاحبها

فقالت عزيزة غاضبة:

- ألم يكفك أجر العملية وما نهبت من البيت؟.. هل تريد مساومة

صاحبها عليها؟

فضحك عامر وقال لها:

- لقد وجدتُ مَنْ يفهمني أخيرا.. نعم أريد مساومته

- وهل ما لديك يستحق ذلك؟
- لديّ أدلة تؤدي إلى الإعدام لو لم تُدفن سريعا
- فسأله عزيز مسرعا:
- إعدام مَنْ؟
- إعدام هذا المستأجر الذي لا يريد مقابلي ليدفع لي مقابل حياته
- وأسرعتْ عزيزة فسألته:
- وهل تعرفه يا عامر؟
- لو أني أعرفه لكنتُ ذهبتُ إليه.. وأخذتُ منه كل أمواله مقابل الأدلة التي معي.. وسيعطيني دون تردد حفاظا على رقبته
- وما هي طبيعة الأدلة التي معك؟
- فضحك عامر طويلا وقال:
- معي الكثير
- أين؟
- في مكان لا يعرفه غيري
- كم تريد مقابلها؟

- وهل ستستطيعان إعطائي ما أطلبه؟

- قل ماذا تريد.. وستحدث للزعيم ليدفعها صاحبها المُستأجر وينتهي الأمر

فسكتَ عامر لحظة يفكر، ثم قال:

- بصرحة إنَّ ما معي يساوي الكثير

- كم؟

- مليون جنيه

فنظر عزيز وعزيزة لبعضهما، وبرقتَ عيناها، ثم قال عزيز:

- ستحدث للرجل الكبير بذلك.. فانتظر منا اتصالا قريبا.. سنأتيك بالمبلغ وتأتينا بالأدلة لنردها إلى صاحبها وينتهي الأمر

فابتسم عامر وقال:

- اتفقنا

وهناك باليوم التالي في قرية الزيدية توقفتَ سيارة حمراء أمام البيت، ونزلتَ منها امرأة قد صارت لا تملك في الدنيا سواها وسوى شقتها الصغيرة بأوسيم، نعم هي الست شيرين أم أسامة الأخ الوحيد لحمزة والوريث الذي جاءت أمه لتطمئن على الممتلكات الجديدة لطفلها.

وخرجت من السيارة، ولم تكن وحدها، إنما كان يسير بجوارها رجلٌ فوق الثلاثين، صعدا الدرجات القليلة حتى باب البيت، وبالطبع كان الباب مُغلقاً، فتوجهت على الفور للجار السيد المتولي، فجاء معها وكان بيديه مفتاح البيت فأعطاه لها، ثم سألها عن الشاب الذي يرافقها:

- من هذا؟

- المحامي

- ولماذا معك المحامي؟

- وما الذي يقلقك منه؟

- لا شيء.. أستاذك

وعلى الفور اتصل الجار السيد المتولي منذ استأذنها بالأستاذ حسن غراب، وأخبره بقدم الست شيرين ومعهما من تقول عنه إنه المحامي، فذهب في اليوم التالي إلى الزيدية ومعه عمر الدالي.. فتحت لهما الست شيرين، ونظرت للجار السيد المتولي، ثم سألته:

- من معك؟

- هذا الأستاذ حسن غراب.. وهذا الأستاذ عمر الدالي زوج ابنة خال

حمزة رحمه الله

فقلت لهم بعد تردد:

- تفضلوا

ودخلوا وجلسوا بحجرة الاستقبال، وذهبت فأحضرت لهم الشاي
الذي لم يشربه إلا الجار.. سألت:

- خيرا

فقال الأستاذ حسن:

- بل نحن مَن جئنا لنقول لك: خيرا

فاستغربت المرأة وقالت:

- لا أفهم

فقال عمر الدالي:

- لا أحد يراكِ إلا عند توزيع الميراث.. أليس ذلك غريبا؟

فقلت غاضبة:

- وما دخلك أنتَ بذلك؟

- دخلي قاله لكِ الحاج سيد.. أنا زوج ابنة خال حمزة

- وأين الخال؟

- قادم بالطريق

وسألها الأستاذ حسن:

- ما أخبار ابنك أسامة؟

فنظرت له وقالت:

- بخير

- وزوجك السوري.. ما أخباره؟

فبرقت عينا المرأة وقالت:

- أنا لست متزوجة

- إذاً ما أخبار زوجك السوري الذي كان زوجك؟

- هذه شئون خاصة بي

- هل أعاد لك أموالك وشقة ابنك؟

فقالت غاضبة:

- لا شأن لك بذلك

وجاء الخال وبصحبته ريهام هانم وجلسا، ثم تصادف أن جاءت العمّة
وعد ومعهما زوجها المهندس مهدي دون أن يُعلّمهما أحد بهذا التجمع.. قال
الخال باكيا:

- حبيبي يا حمزة.. ماذا حدث لهذا البيت؟!

فقلت العمة وعد:

- ليس هناك أى داع لهذا الكلام.. الحى أبقى من الميت.. دعونا ننتهى
بسرعة من الأمور العالقة بيننا.. ومن الحقوق التى يجب أن تُقسّم

- معك حق يا أم محمود

قالت ريهام هانم، ونظر كل الرجال للمرأتين بغضبٍ فى الوقت الذى
قالت شیرين:

- أنا لا أعرف عن أية حقوق تتحدثان.. عموما المحامى الخاص بى فى
الطريق إلى هنا

فقلت وعد بغضبٍ شديد:

- أنا احترتُ فى أمركِ والله.. دائها مختفية ولا تظهرين إلا لنهب أموالنا
فقال عمر بنبرة ساخرة:

- هذا ما قلته لها منذ قليل

وابتسم الأستاذ حسن وقال:

- والله يا عمر لا أحد يعلم من يرث من

- معك حق يا أستاذي

وقال الخال فى أسى ولوعة:

- ربنا يخرجنا من هذه الدنيا على خير

ونظر الأستاذ حسن غراب للخال وقال له:

- عندي اقتراح يا أستاذ جعفر أعرضه عليك بصفتك خال حمزة

- تفضل يا أستاذ.. إني أسمعك

- نؤجل الحديث في أي شيء خاص بالميراث الآن.. فماذا يقول الناس

عندما يرونكم تتحدثون عن الميراث والحقوق بسرعة هكذا؟

فأسرعتُ وعدت قول:

- وماذا قال الناس عندما دفتتم ابن أخي ليلا دون علم أحد؟!.. لم يعد

أحد يستشيرني في شيء.. وكل ما يحدث هنا صار يحدث بعيدا عني

فقال عمر ساخرا:

- ومن يراك؟.. أنت أيضا مثل الست شيرين.. تظهرين فقط للمطالبة

بالحقوق والميراث

فصرختُ فيه غاضبة:

- أنا حرة.. ليس لك دخل بذلك

وقال زوجها المهندس مهدي بغضب:

- كيف تتحدث مع زوجتي هكذا؟.. لو سمحت لا تتدخل في شيء

فصرخ فيه الخال:

- بل له دخل في كل شيء يا مهدي.. وأنا أؤيد كلام الأستاذ حسن..
ولن نعود للحديث في أي شيء خاص بالميراث قبل مرور أربعين يوماً على
وفاة المرحوم

فقال الأستاذ حسن:

- نشكرك يا أستاذ جعفر.. والآن على الست شيرين أن تترك البيت من
الآن

وعند ذاك صاحت الست شيرين غاضبة:

- لن أترك بيت ابني.. هو أخوه وابن الحاج شلبي وأحق واحد بالبيت
فصاحت بها ريهام هانم:

- بل ستركين البيت.. ولن تعود له إلا بحكم محكمة.. لا أعرف من
أين أتيتنا.. لم أعرف أحدا يستفيد من الموت كما استفدتِ
فقالت لها الست شيرين في هدوء:

- انظروا إلى مَنْ تتحدث.. وألم تستفيدي أنتِ أيضاً؟.. أنا أعرف كم
هي فرحتكِ لأنّ حمزة مات ولم يأخذ حق أمه وأفدنتها عندكم.. ملايين كان
سيأخذها منكم لو كان حياً.. فهل عرفتِ يا هانم مَنْ المستفيد أيضاً من
الموت؟

فنظر الخال لهما، ثم قال بصوتٍ مَجُوعٍ:

- ما هذا؟! .. أعوذ بالله.. أعوذ بالله

ووقف الأستاذ حسن وقال:

- هيا يا جماعة.. الآن سنغلق البيت.. ولن نعود للحديث في هذه

المواضيع إلا بعد أربعين يوما كما قال الأستاذ جعفر.. هيا

والتفتَ الخال للجار السيد المتولي وقال له:

- وأنتَ يا حاج سيد.. لا تهمل أرض المرحوم.. وسأترك مفاتيح البيت

معك.. فلا تُعْطِها لأي مخلوق حتى نأتيك أنا والأستاذ حسن

فاعترضتُ وعد وقالت:

- ولماذا لا تظل مفاتيح بيت أخي معي؟! .. أنا أقرب واحدة له

فقال لها الأستاذ حسن:

- وما فائدة أن تظلَّ المفاتيح معكِ يا أستاذة وعد؟.. اتركي الأمر كما قال

الأستاذ جعفر

وفجأة دقَّ جرس الباب فإذا القادم المحامي الخاص بالست شيرين ومعه

هذا الرجل صاحب النفوذ والسطوة في شنباري عزمي شاهين.. دخل فألقى

السلام وجلس ويديه سبعة راح يمرر حباتها بأصابعه ويحرك شفثيه كأنه يذكر اسم الله.. نظرت له الست شيرين وابتسمت ثم عادت تقول بفخر وزهو:

- طبعاً كلكم تعرفون عزمي بيه.. إنه من أقاربي
ونظر له الأستاذ حسن، وقال:

- نعم أعرفه.. هو عضو البرلمان السابق.. أهلاً وسهلاً
فنظر عزمي بك للأستاذ وقال:

- أهلاً بك أستاذنا الغالي.. أنا أيضاً أعرفك وأسمع عنك كل خير
وابتسم الأستاذ حسن ولم يعقب فقال عزمي بك:

- نريد أن نعطي كل حق لصاحبه كما أمر الشرع

- لقد اتفقنا على ذلك فعلاً يا أستاذ عزمي.. ولكن ليس الآن
قالها الأستاذ حسن ثم نهض واقفا وتبعه عمر، وتوجه الأستاذ للجار
السيد المتولي قائلاً:

__ وأنت يا حاج سيد.. افعل ما اتفقنا عليه.. أستاذنكم

وغادر الأستاذ حسن البيت وخلفه الكاتب عمر الدالي تاركاً عزمي بك
والست شيرين يحترقان غضباً وغيظاً، ثم تبعهما الخال بزوجه ريهام هانم،
في حين ظلّ الباقون صامتين ينظرون لبعضهم فقط حتى نهض السيد المتولي
قائلاً:

- هيا يا جماعة.. الآن سأغلق البيت

الفصل التاسع عشر

- كل الذئاب والثعالب جاءوا لنهش لحمك يا حمزة
- قالها الأستاذ حسن غراب، فضحك حمزة ضحكته الجميلة، ثم سكت وعاد فقال بابتسامة حزينة:
- كم أنا حزينٌ يا أستاذي!! لم أُخطِئ في حق إنسان أبدا.. ولم أكن يوما طمعا أو جشعا.. فكيف يصل الطمع والجشع فيَّ ممن حولي إلى هذا الحد؟!
- اصبر يا حمزة قليلا.. يكفي أننا قد علمنا من هي تلك المرأة المُقنَّعة المجرمة
- لم أكن أتخيل أبدا أن تأتي السهام من تلك الناحية يا أستاذ
- والله لم أجد في حياتي أغرب مما حدث لك يا حمزة
- وابتسم حمزة ابتسامة حزينة وقال:
- أترقب ذلك اليوم الذي أفاجئ به الجميع بأنني حي

- هانت يا حبيب.. لم يعد أمامنا إلا أن يصل صديقك عامر المصري إلى الرجل الكبير لهذه العصابة كما أراد وخطَّ الضابط هشام.. ثم تُعلن الحقيقة للجميع

- لكنني خائفٌ على عامر كثيرا.. إنه بداخل جحر مملوء بالأفاعي

- عامر شاب ذكي جدا وسيعرف كيف يخرج منه دون أن يُلدَغ

وبينما كانا يتحدثان إذا باتصالٍ من عامر المصري للأستاذ حسن.. ردَّ الأستاذ:

- مرحبا بك يا حبيب.. كيف حالك؟

- الحمد لله أنا بخير

- كن حذرا يا عامر.. هذا أهم شيء لنا

- لا تقلق يا أستاذ.. كيف حال حمزة؟

- بخير.. هو بجانبني

- والله لقد أصبحتُ بفضلِه شخصا آخر غير ما كنتُ عليه.. يكفي أني

الآن لأول مرة في حياتي أفعل شيئا مفيدا بأن أنصب الشباك لصيد هؤلاء المجرمين

- الحمد لله

- لقد توصلتُ إلى تفاصيل كثيرة عن العصابة .. وأنا على وشك الوصول
إلى زعيمهم الرأس الكبيرة .. قريبا سنوقعهم جميعا
- حسنا.. لكن هل أخبرت الضابط هشام بكل ما وصلت إليه؟
- نعم أخبرته.. هو يتابعني دائما

- أعانك الله يا عامر.. والآن معك حمزة يريد أن يحدثك
يا إلهي!.. ما هذا؟!.. إذا فعامر المصري لم يقتل حمزة.. أجل أجل لم يقتله.
وكان حمزة قد فتح لعامر الباب مبتسما بعد أن عرفه عبر الكاميرات
وحديثه عبر الهاتف، فوقف عامر أمامه مذهولا حائرا وقد صار منذ رآه على
شفا جنون، ولا يصدق ما يحدث، ولكن للأسف حدث شيء غير متوقع،
فقد جاءت الشرطة ومعها الأستاذ حسن والكاتب عمر الدالي.

ولم يهرب عامر المصري، إنما وقف مستسلما والسكين بيده ناقلا عينيه بين
حمزة والضابط هشام عطية الذي أسرع ناحيته شاهرا مسدسه تجاهه ويأمره
صارخا بحزم:
- سلّم نفسك

فرفع عامر يديه في نفس الوقت الذي تناول فيه أمين شرطة السكين من
يده، وأسرع الأستاذ حسن وعمر تجاه حمزة يطمئنان عليه، فابتسم لهما حمزة
وقال:

- إنه عامر المصري صديقي من أيام الأحداث

فقال الأستاذ حسن:

- أليس هو مَنْ جاء لقتلك؟

- بلى هو ولكن.....

قالها وسكت، فقال الضابط هشام:

- ماذا تعني بـ " لكن " ؟

- أنا عرفتُ مَنْ تكون المجرمة صاحبة القناع والقفازين

- حسنا.. وهذا؟

فلم يتكلم حمزة، فأجاب عامر عنه:

- أنا قاتل مأجور

فصغعه الضابط، ثم قال صارخا فيه:

- مَنْ استأجرك؟

فقال عامر في هدوء:

- سأخبرك بكل شيء يا باشا

- هيا تكلم بسرعة

- أنا ضمن عصابة كبيرة جدا.. تفعل أي شيء من أجل المال.. لكنني

والله أريد أن أتركها.. أريد التوبة.. أريد ترك هذه العصابة وإجرامها

- عصابة كبيرة؟!.. هذا موضوع كبير إذا.. أين مكانها تحديدا؟

- مكانها الأساسي في قرية تابعة للجيزة

فسكت الضابط قليلا كأنه يفكر أو يتذكر شيئا، ثم قال يسأل عامر:

- هل تقصد عصابة طهرمس؟

فأجاب عامر بلا تردد:

- هي يا باشا

فالتفت الضابط هشام قائلا للأستاذ حسن:

- لقد دوختنا هذه العصابة كثيرا.. وكلما اقتربنا هربوا جميعا.. خاصة

زعيمها هذا

فقال عامر المصري:

- هم مجموعة من الأبالسة يا باشا

وسكت الضابط هشام قليلا ثم سأله:

- هل تعرف زعيمها؟

- هو دائما يُخَفِّي نفسه ويغيّر من شكله.. لكن لو أردتَ يا باشا أن أعرفه

لكَ لفعلتُ

فأسرع الضابط يقول:

- إذاً ستساعدنا في القبض عليه

- أنا تحت أمرك يا باشا

ونظر الضابط هشام عطية حوله، ثم أمر مَنْ معه مِنْ رجال الشرطة أن ينصرفوا عائدين إلى قسم الشرطة، ودخل بعامر وحمزة والأستاذ حسن وعمر إلى البيت، وطلب مِنْ عامر أن يحكي له بالتفصيل كل ما يعرفه عن هذه العصابة.

ورسم الضابط هشام خطة محكمة للقبض على العصابة كلها وخاصة زعيمها، وهنا كان لا بد مِنْ التظاهر بأنَّ القاتل المأجور عامر المصري قد نجح في مهمته وقتل حمزة، وحصل على الأدلة التي سيساوم بها كطريقة للوصول إلى زعيم العصابة.

وبالفعل فقد عاد عزيز سريعا واتصل بعامر وأخبره بأنَّ زعيمهم الرجل الكبير يريد مقابلته وعليه أن يحضر ويُريه الأدلة التي معه، فقال له عامر:

- وهل المليون جنيه ستكون جاهزة؟

- هو يريد أن يتحدث معك أولاً

- ولماذا إذاً أريه الأدلة؟!

- يريد أن يتأكد مِنْ أنها تستحق المليون جنيه

- ما هذا الكلام؟!.. فقط عُد له وأخبره أنها تساوي الإعدام

- أنتَ تبالغ يا عامر

- يكفي أن أخبرك أنّ بها ورقة بخط يد الحاج شلبي الجارحي كتب فيها قبل قتله بساعات اسم المجرمة عند المصرف التي مثّلت على ابنه الصغير أنها أمه.. وقال إنه واجهها بعد أن تأكّد منها فهربت من أمامه.. هذا غير الأدلة الأخرى مثل مخدّر وثياب وقفاز

فأسرع عزيز يسأله:

- وما اسمها؟

- لن أخبرك

- وهل تعرفها؟

- أنا أعرف الاسم فقط، لكنني لا أعرف صاحبتة

- وهل أخبرت أحدا بالاسم؟

- حتى الآن لا

- ولماذا لم تقل لنا كل هذا الكلام من البداية؟

- لأنني لم أقرأ الورقة إلا بالأمس

فقال له عزيز مستعظفا:

- إذا أعطني كل ذلك يا عامر.. أعطيها لي وسنطلب ضعف المبلغ من

المُستأجر.. لا بد أن نكون أذكاء ونستغل ما بأيدينا.. تلك فرصتنا

- ولماذا لا تبقى الأدلة كلها معي ومع ذلك نفعل ما تقوله؟

فصرخ فيه عزيز:

- اسمع الكلام يا عامر.. ما الذي حدث لك؟

فقال عامر بصوتٍ هاديءٍ وبنبرةٍ إصرار:

- أريد مليون جنيه.. مليون جنيه مصري لا غير

- إذا تعال بالأدلة وأرها لي ثم نتحدث

- وما دخلك أنت بهذا؟

فسكت عزيز ثم صاح غاضبا:

- أنسيت أنني من جئتُ بك إلى هنا من الرصيف؟.. كنت متشردا

- نعم جئتُ بي فأكسبتكم أموالا كثيرة.. فما الضير بأن تتركوني أكسب

بعض المال؟

- أنت تلعب بالنار مع الزعيم يا عامر.. اسمع الكلام ولا تعاند.. أنت

لا تعرف ما قد يحدث لك

- لا ترفع صوتك عليّ.. وطالما قد بدأت التهديد.. فأنا أيضا أهدد.. لو

لم أحصل على مليون جنيه خلال يومين سأبلغ الشرطة

فعاد عزيز يصيح به:

- هل جُنت؟.. هل نسيت أنك قتلت شخصا منذ أيام؟

- طالما أني لن أحصل على مليون جنيه فكل شيء بالنسبة لي سواء
- لا أعرف ماذا حدث لك منذ خرجت من الأحداث !
- حدث كل خير .. والآن لا تنسَ أنهما يومان وسأبلغ الشرطة .. سلام
- فأسرع عزيز يقول:
- انتظر انتظر .. سيكون المبلغ جاهزاً غداً .. لكن إياك أن تخبر أحداً بشيء
- فضحك عامر المصري وقال له:
- ولي شرط آخر:
- ما هو؟
- تكون المقابلة مع الرجل الكبير .. الزعيم شخصياً
- ولم ذلك؟
- أنا لا أثق بك يا عزيز .. وأريد أن يكون التعامل مني له مباشرة بعد ذلك .. لا أريدك واسطة بيننا .. لا أنت ولا عزيزة ولا حتى فريد وفريدة
- حسناً .. سأخبره بذلك يا عامر .. انتظر اتصالي
- وكانت عزيزة بجانبه تسمع كل هذا الحوار فقالت له:
- ألن تنتهي من ذلك؟

- ماذا نفعل؟

- ليس أمامنا إلا أمرين.. إما أن نقتله أو نقنع الرجل الكبير بمقابلته

- كيف نقتله والأدلة معه؟

- نراقبه ونتأكد أن الأدلة معه ثم نذهب لقتله وأخذها

- فلنحاول.. لكن أولاً لا بد من أن نخبر الزعيم بذلك

ووافقهما الزعيم على ذلك، وبدأ الاثنان يحاولان الوصول إليه، لكنهما لم يعثرا له على أثر أبداً، فقد كان عامر حذراً جداً في كل تحركاته كما أمره الضابط هشام عطية، ولم يكن هناك حل آخر أمامهما إلا أن يجعلوا الرجل الكبير يقابله في خطة أخرى للإيقاع به، فذهبا للرجل الكبير، ونجحوا في أن يقنعه بذلك، خاصة أنه أراد من باب الفضول أن يرى عضو عصابته هذا الشاب الجريء الذكي قبل إنهائه.

وجاء اتصال عزيز بعامر ليخبره بموافقة الرجل الكبير على لقائه، فقال له عامر:

- ستكون المقابلة غدا في التجمع الخامس الرابعة عصراً.. سأخبرك بالمكان قبل موعد المقابلة بساعة

- كما تريد.. لكن عليك أن تُحضّر معك كل الأدلة

- وعلى الرجل الكبير أن يحضر بنفسه ومعه المليون جنيه

- سيحضر.. لكن اعلم أنني سأحضر هذا اللقاء أنا وعزيزة

- كما تريد يا أستاذ عزيز.. مرحبا بكما

- اعلم يا عامر أن أية محاولة للتلاعب بنا ستندم عليها.. بل لن تعيش
لتندم

- هل هذا تهديد صريح بقتلي يا عزيز؟

- نعم

- أراك مهتما جدا بهذا الموضوع.. خيرا يا عزيز.. هل تلك الجريمة عند
المصرف إحدى قريباتك؟

- ومنذ متى وأنا أقصر في عملي يا عامر؟.. كانت عمليتك لكنك طمعت
فكلفني الرجل الكبير أنا وعزيزة بحلها.. هذا كل ما في الأمر

- حقيقي أنت مخلص جدا لعملك يا عزيز

- نعم أنا مخلص لكن هناك غداًرون مثلك.. لذلك أعود وأحذركَ من
أي تلاعب

- اطمئن.. سأخذ المليون جنيه وأعطيك الأداة وفوقها مليون قُبلة

وتمّ اللقاء بالفعل كما حدد عامر داخل مطعم ميرامار بالتجمع.. جلس
الرجل الكبير وقد قصد التنكر والتخفي فغيّر في شكله كثيرا، وكان يجلس

بجواره عزيز وعزيزة.. تناول عامر حقيبة النقود، وفتحها واطمأن، ثم تناول الرجل الكبير حقيبة الأدلة، وناولها إلى عزيزة التي راحت تنظر بداخلها في لهفة، فتأكدت من وجود كل شيء.

وكان فريد وفريدة بالخارج وهما متخفيان أيضا كزعيمهما، ويراقبان المكان عن بعد استعدادا لتتبع عامر المصري بعد خروجه من المطعم لقتله وإرجاع الأموال، وبالطبع كان هناك آخرون بداخل المطعم متخفين في ثياب العمال والجرسونات، إنهم رجال الشرطة وبينهم الضابط هشام عطية.

وما أن همت عزيزة بالنهوض من مكانها حاملة حقيبة الأدلة حتى كان الضابط برجاله قد وقفوا على رأسها ورأس عزيز ورأس الرجل الكبير شاهرين مسدساتهم.. أخذ الضابط حقيبة الأدلة من يدها وأعطاهها لزميل بجواره ثم قال:

- أخيرا وقعتم.. مرحبا بالزعيم.. أتعبتنا كثيرا يا رجل.. نحن نتعقبك منذ سنين

رفع الرجل الكبير رأسه إلى الضابط في وجلٍ وذعرٍ وقال:

- ماذا تقصد؟

ومدّ الضابط هشام يده وأزال شاربه ولحيته المصطنعين، فظهر على حقيقته، فقال الرجل رافعا صوته:

- ألا تعرف من أنا؟

ضحك الضابط هشام وقال:

- الآن عرفتُ.. أنتَ عزمي شاهين

- سأجعلكم تندمون على ذلك

فضحك الضابط هشام وقال:

- لن تعيش طويلا لتجعلنا نندم.. فإنَّ جبل المشنقة ينتظرك

وفجأة ظهر حمزة متجها ناحيتهم بسرعة يصيح بغضبٍ في وجه عزيزة:

- أنتِ أيتها السافلة المجرمة.. أنتِ المُقنَّعة.. أنتِ

فقال عامر المصري مذهولا:

- معقولة يا حمزة!.. هل عزيزة تلك هي المجرمة المُقنَّعة؟

فصاح حمزة غاضبا:

- نعم هي.. لكن اسمها ليس عزيزة

فابتسم عامر قائلا:

- يخرب بيتك.. لم تتركي جريمة إلا وفعلتها

وكان هناك بجوارها مَنْ يحاول إخفاء وجهه.. كان عزيز، لكن حمزة انتبه

له فصاح:

- وأنتَ أيها المجرم.. إلى أين تهرب؟

فضحك عامر وقال:

- عزيز!!!.. وهل تعرف عزيز أيضا يا حمزة؟!

- طبعا أعرفه.. أظنه أساس كل شيء

- هل تعرف اسمه الحقيقي؟

- وكيف لا أعرفه؟!



الفصل العشرون

قبل عشر سنوات ..

دخل المعلم سعيد العدوي بيته عائداً من عند الطبيب، وكان برفقته ابنه أسعد وهو لا يكفُّ عن البكاء، ورأته أمه على هذه الحال فسألته:

- أسعد يا ابني .. ماذا بكَ؟ .. لماذا تبكي؟

فلم يجبها أسعد، ودخل إلى غرفته فسألت الزوجة زوجها المعلم سعيد عن تلك الحال فأجابها:

- يبكي لأجلي

فأسرعتُ تسأله:

- ماذا قال لكَ الطبيب يا معلم؟

فأجابها وهو لا يستطيع أن يحبس دموعه:

- أخبرني بأن عندي.....

قال ذلك وسكت فأسرعه تسأله:

- كمّل كلامك يا سعيد.. أقلقنتني

- عندي سرطان

وصرخت المرأة، ولم تستطع أن تحملها قدماها فجلست وهي ترفع يديها وتنزلها على رأسها بهدوء قائلة:

- يا حبيبي.. يا حبيبي

وجاء ابنه الكبير عماد، ورأى البيت على هذا الوضع، وعرف بمرض أبيه، فلم يظهر عليه أي تأثر، ثم سأل عن أخيه أسعد فأخبراه أنه بحجرته، فناده، فخرج له أسعد وهو يبكي، فلما رآه على حالته تلك صاح فيه قائلاً:

- ما لك؟.. كن رجلاً.. وراؤنا أعمال يجب أن نراعيها.. انزل وتابع

محلات أبيك

فقال له أبوه المعلم سعيد:

- دعه يستريح يا عماد يا ابني.. هو معي من طلعة النهار

فقال عماد:

- أنت دائماً هكذا معه.. ستفسده بتدليلك الدائم له

- يا عماد.. ألم نتفق على أن يتابع أسعد المحلات في الفترة الصباحية وأنت في الفترة المسائية؟

- لكنه لم يكن موجودا في فترته الصباحية

- كان معي عند الطبيب بينما كنت أنت نائما يا عماد.. انزل أنت الآن

ونزل عماد دون أن يقول لأبيه كلمة واحدة يطمئن بها على صحته، وقد انتبه المعلم سعيد لذلك فقال لزوجته باكيا:

- جاء ابنك الكبير وذهب ولم يقل لي حتى كلمة سلامتك.. أي قسوة هذه!

- سامحه يا معلم واعذره.. هو مشغول بمراعاة أعمالك

- وصحتي.. ألا تهمه في شيء؟

- هذا طبعه.. فماذا نفعل في طباعه تلك؟

- طباع سيئة.. عماد على استعداد أن يفعل أي شيء من أجل المال.. حياته المال فقط

- ربنا يهديه

وفي اليوم التالي اقترب أسعد من أبيه فقبل رأسه ويديه، وقال له:

- بابا هل تسمح لي أن أذهب للزيدية؟.. أريد أن أطمئن على أرضنا وأرى صديقي ميسرة

فابتسم المعلم سعيد له وقال:

- اذهب بالسلامة يا حبيبي

- بابا لو تريدني في شيء هنا فقط أخبرني ولن أذهب

- اذهب يا حبيبي لصديقك.. لكن انتبه لنفسك من أجلي.. أنتَ كل

حياتي يا أسعد

وصار من عادة أسعد أن يذهب لصديقه ميسرة بالزيدية عصر كل يوم،
لا يقطع ذلك إلا عندما يذهب مع أبيه للطبيب، وفي نفس الوقت كان عماد
دائما يعتذر عن الذهاب مع أبيه بحجة انشغاله بمتابعة المحلات والمقاهي.

وبالطبع لم يكن عماد منشغلا بأعمال أبيه دائما كما يقول ويكرر باستمرار،
فقد كان يغيب عنها تكرارا حتى انتبه أبوه لذلك فسأله ذات يوم:

- حدث كثيرا أن نزلت أكثر من محل لنا ومقهى.. لكنني لم أجدك.. فأين

تكون يا عماد؟

وتلثم عماد إذ فوجيء بالسؤال، وأجاب:

- أكون مع أصحاب لي.. أليس من حقي أن أخرج ويكون لي أصحاب

مثل أسعد؟

- من حَقَّ طبعاً.. لكن أسعد كلما اتصلتُ به ردَّ عليّ.. أما أنتَ فغالبا

لا ترد أبدا

- أنتَ هكذا لا ترى في أية ميزة نهائيا.. دائما أسعد فقط

- وأنتَ تفهمني دائما خطأ يا عماد.. وأرجو أن تهتم بي وتراعيني كما يراعيني أخوك الصغير.. ولكن ماذا أقول؟.. الحب والحنان لا يُشترَيان

و ذات يوم سمع عماد أباه يتحدث إلى أمه قائلاً لها:

- قد أموت في أية لحظة.. ولذلك يجب أن أؤمن حياة أسعد.. لو تركته لعماد بطباعه السيئة وسلوكه الغريب هذا فقد يجرمه من كل شيء

- ربنا يطوّل لنا في عمرك يا معلم.. لا تقل هذا الكلام

- بل لا بد أن أقول هذا الكلام.. و قريباً سأذهب وأتنازل لأسعد عن الكثير من محلاتي وأملاكي

سمع عماد ذلك فامتلاً قلبه حقداً وبغضاً لأبيه وأخيه، وبدأ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله ليمنع ما ينويه أبوه، ثم ماتت أمه بعد ذلك بأيام قليلة، فاغتم أسعد وأبوه وشعرا بحزنٍ شديدٍ لفراقها، ولم يخفف عليهما الفراق إلا وجود كل منهما بجوار الآخر، أما عماد فقد ساءت أخلاقه ومعاملته لكل من يصادفه، وبدأ يشعر بأن أباه قد اشتد عليه مرضه، وسيفكر جدياً في تنفيذ ما أخبر به الأم قبل أن تموت، وعليه أن يفكر جدياً ويسعى من أجل حفظ حقوقه قبل فوات الأوان.

وكان عماد قبل هذه الأيام بفترة قصيرة قد انضم إلى هذه العصابة الخطيرة بكفر طهرمس التي تخطف الأطفال وتتاجر بالأعضاء، وأثبت جدارته

ومهارته كفردٍ نشطٍ ضمن هذه العصابة مما جعل زعيمها الرجل الكبير كما يسمونه يقربه منه، فأرسل له واستقبله استقبالا حسنا، وأطلق عليه اسمه الحركي عزيز، وصار لا يُعرَف لكل أفراد العصابة إلا بالاسم الجديد.

ومع امتداد الثقة بين عماد (عزيز) والرجل الكبير بدأ الأول يحكي للثاني كل شيء عن نفسه وعن أبيه وأخيه حتى وصل الأمر إلى أن حكى له عن رغبة أبيه في أن يُعطي لأخيه من أملاكه أكثر منه.. فضحك الرجل الكبير ضحكة خبيثة، ثم سكت قليلا وقال له بكل بساطة:

- اقتله

وهنا برقت عينا عماد (عزيز) وقال:

- كيف أقتل أبي؟!

فضحك الرجل الكبير وقال:

- لم أقصد أباك

- إذا من تقصد؟

- أقصد أخاك أسعد.. اقتله وسيخلو لك وجه أبيك.. وسترت وحدك

كل المال

- كيف؟!.. ثم إنني أول من ستحوم الشكوك حوله إن قتلته

- اقتله بطريقة ذكية يا عزيز

- كيف؟

- سأخبرك لكن أولاً احك لي كل شيء عن أخيك أسعد وأصحابه والأماكن التي يذهب لها.. وكيف يقضي وقته؟ ومتى يخرج؟ ومتى يعود؟.. كل شيء

وبالفعل حكى له عماد (عزيز) كل شيء إلى أن جاء ذكر ذهابه كل يوم تقريباً بعد العصر إلى صديقه ميسرة ابن الحاج شلي الجارحي بالزبدية، فابتسم الرجل الكبير ابتسامة خبيثة كضحكته ثم قال:

- هل تعرف أية أخبار عن بيت ميسرة هذا؟

- لا

- إذا.. اذهب واعرف الكثير عنه.. وعُد لي بعد أسبوع

- هذا أمر بسيط

وذهب عماد (عزيز) بالفعل، وراح يتقصى من بعيد ويحوم من قريب حتى عرف كل أخبار البيت وساكنيه والجيران ومن يدخله، وعرف الست سامية وسذاجة شخصيتها، وعرف أختها هيام وكل شيء عنها، وعرف العمة وعد وغبابة تصرفاتها وضيق رزق زوجها المهندس الزراعي مهدي الراوي، وعرف الخال وزوجة الخال وكل شيء عن جشعها، كما عرف ما لا

تعرفه القرية عن الحاج شلبي نفسه وهو أنه تزوج زواجا جديدا سرىا بالمرأة الجميلة الطموحة الست شيرين أم أسامة.

ونقل عماد (عزيز) كل هذه المعلومات إلى زعيمه الرجل الكبير، فاختار له واحدة من النساء الخمس رآها مناسبة ليتقرب منها ويجعلها تنقل له كل ما يدور في هذا البيت من أخبار، وبالفعل نجح عماد في تلك الخطوة الأولى، وعرف منها كل شيء خاص بالحاج شلبي وميسرة والصغير حمزة.. كل شيء.

وعلى أساس ما صار بحوزتهم من معلومات عن هذا البيت وجه الرجل الكبير عماد (عزيز) إلى خطة شيطانية مأكرة، وهي أن يقتل الطفل حمزة أخاه ميسرة وصديقه أسعد بطريقة تبدو طبيعية غير مُحَطَّط لها، وبحيث تبعد الشكوك تماما عن عماد وتلصق بحمزة، واقتنع عماد بذلك، وتمّ التنفيذ.

يرحمك الله يا حاج شلبي، فلقد عشتَ حزينا تعتب على نفسك كيف أنَّ ابنك الصغير حمزة قد حرم المعلم سعيد العدوي من فلذة فؤاده أسعد؟، والحقيقة أنَّ عماد ابن المعلم سعيد هو من حرمك من فلذة فؤادك ميسرة.. فماذا لو كان المعلم سعيد حيا الآن؟!.. والله لا اخترمه الموت من فوره مقهورا حزينا.

لكن من هي تلك الساقطة التي نقلت أخبار البيت وتفاصيله إلى عماد (عزيز) لبنى على أساسها هذه الجريمة المأكرة البشعة؟.. إنها بالطبع هي نفسها من صارت المجرمة المُقنَّعة عند المصرف، وبالطبع هي التى عرفها

الحاج شلبي وواجهها فهربت من أمامه، ثم كانت وراء قتله، تلك المجرمة التي كتب اسمها في ورقته التي تركها ضمن الأدلة في الكيس الأزرق قبل أن يُصبح مقتولا.. فمن هي؟

هي تلك التي طلب الرجل الكبير من عماد (عزيز) أن يُحضرها له بأية طريقة، وبالفعل ذهبَ له وأعجبه ذكاؤها وجشعها وحبها للمال وحقدُها على كل ذي نعمة، فسخرها خير تسخير لهذه المهمة، ثم شيئا فشيئا صارت تعمل ضمن عصابته، وصار اسمها الحركي عزيزة.

وارتدت عزيزة ثياب المرحومة تيسير، وذهبت للطفل حمزة عند المصرف على أنها أمه القادمة من اللجنة لتأخذه إليها، وكان ما حدث يوم الحادث حتى عاد لها في عصر اليوم التالي، وكانت الأوامر لها هي خطفه حتي ينتفعوا بأعضائه، ولكنها لم تستطع استدراجه حتى عماد (عزيز) الذي كان ينتظرها على بعد بالسيارة الحمراء بعد الجسر على الجانب الآخر الأسفلتي حيث يقومون بتخديره داخل السيارة ليمنعوا صراخه ويسهل لعماد نقله من المكان.

وقد كانت المُنْعَةُ مضطرة ألا تخدعه في مكانه الذي وقف فيه معترضا على الذهاب معها حينما بدأ يشعر أنها ليست أمه تيسير، فهي إن خدرته فلن تستطيع حمله كل هذه المسافة، ولذلك فقد حاولت إلقاءه بالمصرف ل يبدو الأمر على أنه غرق به، لكن قدّر الله أن تأتي ريم ابنة خاله ثم عمر الدالي، فأُنقذاه، وهربت المجرمة المُنْعَةُ واختفت وسط الحقول، لكنها قبل أن تهرب

كان حمزة قد نزع إحدى فردي قفازها، وقدّر الله أنها قصدت أن تهرب في اتجاه بيت الحاج شلبي لتُعيد الثياب التي رأت أنه لا بد من إرجاعها إلى مكانها بسرعة حتى لا تنكشف، ولسبب آخر هو أن تتقصّى آخر الأمور هناك عند البيت، كما قدّر الله أن تنسى الفرّة الثانية من القفاز والمخدّر بجيب الثياب التي تركتها بمكانها الذي أخذته منه، وكان بعد ذلك أن وجد الحاج شلبي الثياب وبها هذه الأدلة إلى جانب أنه رأى تلبس بقدميها نفس الحذاء الذي كان بالصور التي التقطها حمزة لها عند المصرف دون قصد، إلى جانب دليل أقوى، وهو رائحة عطرها التي ظلت عالقة بثياب المرحومة وهو نفس العطر الذي كانت قد ناولته للحاج السيد المتولي لينثره على وجهه وثياب الحاج شلبي لإفاقته من غيبوبة السكر يوم حادث مقتل ميسرة وصاحبه.

لكن ما إن واجهها الحاج شلبي بذلك عند منتصف الليل حتى فرّت من أمامه هاربة، ثم جاءت بعد الفجر مع عماد (عزيز) وقتلاه، ثم أزالا البصمات من البندقية وألقياها فوق جثته ليأتي حمزة صارخا مرتعيا على أبيه فيُمسك بها ليبدو الأمر على أنه هو من قتله كما قتل من قبل أسعد وميسرة.

وها هي الحقيقة قد ظهرت، وتمّ القبض عليها وعلى عماد وعلى الرجل الكبير في مطعم ميرامار بالتجمع الخامس، ثم تلا ذلك سريعا أن تمّ القبض على معظم أفراد العصابة، وأطلق سراح هذا الشاب ربيب الشوارع ودار الأحداث عامر المصري لينال أعظم فرصة بحياته، إن استغلها فسوف يعيش

عيشة صالحة مستقيمة تُنسيه سنوات التشرد، وإن لم يستغلها فربما عاد إلى أي طريق للإجرام، وهي كثيرة.

وكان حمزة قد تمَّ استدعاؤه للإدلاء ببعض الأقوال حول كل هذه الحوادث، وبالطبع كان في صحبته الأستاذ حسن والكاتب عمر الدالي، فاستأذن حمزة الضابط هشام عطية لأن يرى المجرم عماد وتلك المجرمة، فأتى له بهما من حبسهما.

نظر حمزة إلى عماد، وهزَّ رأسه عجباً منه دون كلام، ثم نقل عينيه عنه ناظراً إلى المجرمة القاتلة صاحبة القناع والقفازين، وقال لها يسألها سؤالاً واحداً:

– لماذا؟

فنظرت له نظرة باردة باهتة، ثم وضعت عينيهما في الأرض دون كلام..
إنها هيام

وانتشر سريعاً في الزيدية والناحية كلها خبر براءة حمزة ابن الحاج شلبي الجارحي والوصول إلى القتلة الحقيقيين، فملأت الفرحة القلوب المحبة له، كما عمّت الراحة والطمأنينة في النفوس مع خبر وقوع تلك العصابة الخطيرة التي ظلت لسنواتٍ تنشر إجرامها، وتغرس الألم والشقاء في كل مكان.

وفي البيت بعد أن سكن الضجيج والتراحم الذي كان قد ملأ كل جوانبه مع قدوم الكثيرين لتهنئة الفتى البريء، خلد حمزة إلى النوم، وقد أراد أن ينام

النوم الهانئ الذي افتقده لسنوات، لكن مع منتصف الليل إذا باتصالٍ يأتيه على هاتفه من رقمٍ دون اسم.. أجاب حمزة فإذا به يسمع صوتَ رجلٍ يقول له:

- هل تظنُّ أني سأتركك؟

- من معي؟

- أنا الموت.. جئتُ لآخذك إلى جهنم

وبحركة عفوية أسرع حمزة ينظر في الكاميرات، فإذا به يرى رجلاً مُدثراً بغطاءٍ يغطي جسمه كله، وعلى وجهه قناع، وبيديه قفازان، فأخذ يدور في حجرته خائفاً يترقب.

رضا الحَمَد

القاهرة ١٧ / ٧ / ٢٠١٩

